جوليا ألفاريز
بنات جارسيا
باللكنة الأمريكية
ترجمة نيرمين نزار
رواية

t.me/qurssan

جوليا ألفاريز

بنات جارسيا باللكنة الأمريكية

رواية

ترجمة

نيرمين نزار

مراجعة

د. سونيا فريد - ياسر عبد اللطيف

t.me/qurssan

إلى بوب باك وبالطبع، الأخوات

t.me/qurssan

(١)

١٩٧٢ ـ ١٩٨٩

t.me/qurssan

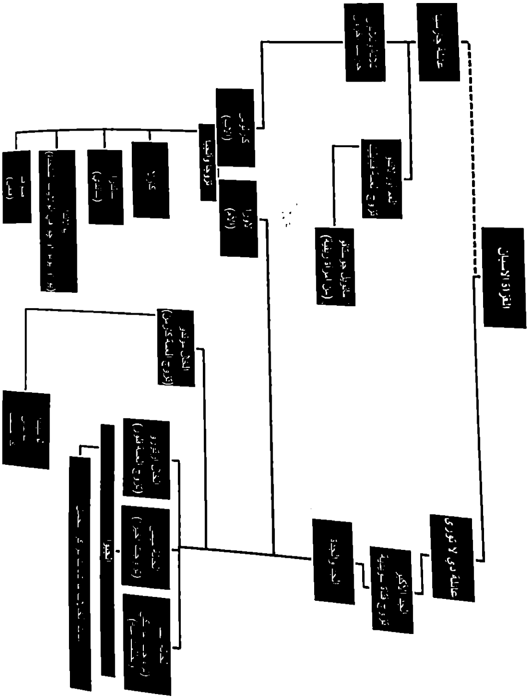

t.me/qurssan

وحم

يولاندا

تسترخي الخالات العجائز على أرائكهن الخيزارن البيضاء، يطوحن مراوحهن فتنفتح وتنغلق بفرقعة. لم تتغير الخالات كثيرًا عن خمس سنوات مضت، عندما رأتهن يولاندا لآخر مرة على الجزيرة، عدا أن المزيد منهن ترتدين ملابس الحداد السوداء والرمادية. وتبدو بنات الخالات وسط أمهاتهن على كراسي السفرة الأقل راحة، كبريق من الألوان في سترات فيروزية وفساتين ضيقة من قماش ال "جيرسيه".

الكعكة وحدها على الطاولة، وأبناء الخالات الصغار متجمعون حولها يتجادلون حول من منهم سيحصل على أية قطعة. عندما يصل صوت شجارهم إلى المستوى الذي يضايق الأمهات تستدعيهم مربياتهم الجالسات على مقاعد في الجانب البعيد من الفناء، مثل كتيبة من الملابس البيضاء المنشَّاة.

قبل أن يستدير أي شخص لتحيتها في الممر، ترى يولاندا نفسها كما سيرونها... رثة، في تنورة قطنية سوداء وبلوزة "جيرسيه"، بصندل في قدميها، وشعرها الأسود الجامح مربوط إلى الخلف بربطة شعر.

t.me/qurssan

سيقول أبناء خالاتها إنها تبدو كمبشرة مثل هؤلاء الفتيات في فرق السلام اللواتي أهملن أنفسهن كي يفعلن خيرًا مربيًا في العالم.

تطل خادمة من حجرة المؤن. إنها سيدة نحيفة سمراء في الزي الأسود لخدم المطبخ. رأسها مغطى بضفائر صغيرة ملفوفة في دوائر ومثبتة بدبابيس شعر. تنادي زوجة خال يولاندا التي تستضيفهم: "يا سيدة كارمن. لا يوجد ثقاب. ذهب جستو إلى السيدة لوسيندا ليأتي بالبعض منه".

"يا إلهي! يا إيلوميندادا"! تنهرها كارمن: "لقد كان لديك اليوم بأكمله".

تحملق الخادمة في يديها المتشابكتين اللتين تضعهما أمامها، وهي إيماءة تتذكر يولاندا رؤيتها في كتاب عن ممثلي عصر النهضة. هذه الأيدي المضمومة كانت في صفحة عن الإيماءات الكلاسيكية. قال التعليق على الصورة: إيماءة استجداء. عندما يضموا (تضم اليدان) إلى الصدر بجوار القلب، فإن تلك الأيدي المشتبكة نفسها تكون لحبيب يستجدي الرحمة من محبوبه.

يلمح الجمع يولاندا. تقود ابنة خالها لوسيندا أغنية ترحيب يصحبها كورال نشاز من أبناء الخالة الصغار: "ها هي تأتي ملكة جمال أمريكا"! تقرن يولاندا حاجبيها وتئن بشكل درامي كما هو متوقع. يجاهد الكورال مع العبارة الأولى، ثم يندفعون إلى الأمام بالأحضان والقبلات وحركات الكاراتيه المصطنعة، يقوم بها اثنان من الصبيان.

تقول لوسيندا: "شكلك فظيع! نحيفة جدًّا، والشعر يحتاج إلى قص. أنا لا أقصد شيئًا". إنها ابنة الخالة التي لم تنمّق كلماتها قط. تبدو

t.me/qurssan

لوسيندا، في حلتها التي تحمل توقيع مصمم أزياء شهير، وشعرها المصفف الذي صبغت بعض خصلاته بصبغة فاتحة، كعارضة في مجلة دومينيكية، وهو مظهر طالما ذكر يولاندا ببائعة هوى مرتفعة المستوى.

"اشعلوا الشموع! أشعلوا الشموع"! تقول ابنة الخالة الصغيرة بادئة في الغناء. ترفع الخالة كارمن يديها إلى السماء في إشارة لا بد أنها التقطتها من أحد أصدقائها الكهنة: "نسيت الفتاة أعواد الثقاب".

تُسِرُّ الخالة فلور إلى يولاندا ووجهها يشرق بابتسامتها الشهيرة: "الخدم! إنهم يزدادون سوءًا في كل يوم". يسمي أبناء الخالات زوجة خالهم فلور "السياسية"، فهي قادرة على إطلاق هذه الابتسامة مهما كانت الظروف. يُحكى أنه أثناء ثورة ما، ظهر خال راديكالي شاب مع زوجته في منزل الخالة فلور في منتصف إحدى الليالي طالبًا الحماية. حيتهم الخالة فلور عند الباب بالابتسامة نفسها، و"كم هو رائع أن تمرا بي"!

وتسترسل الخالة: "دعوني أحكي لكم آخر الأخبار في بيتي. كان السائق يوصلني إلى صلاة التساعية[1] بالأمس. فجأة قفزت السيارة إلى الأمام وفقدت الحياة هناك في الشارع. أنا منزعجة طبيعيًا في الأحوال الحالية، فما بالك بسيارة كبيرة متوقفة في منتصف حي الجامعة! سألت سيزار عما يمكن أن يكون قد حدث! حك رأسه: "لا أعلم يا سيدة فلور". يقف رجل لطيف ليساعدنا... فحص كل شيء، وقال: "يا سينيورا لقد نفد الوقود". نفد الوقود! هل تتصورون ذلك"! تميل الخالة

---

[1] صلاة طقسية خاصة أو عامة تمتد عبر تسعة أيام.

t.me/qurssan

فلور رأسها باتجاه يولاندا: "سائق لا يستطيع أن يبقي السيارة ممتلئةً بالوقودا مرحبًا بعودتك إلى البيت في جزيرتك الصغيرة"! وبابتسامة تطوح مروحتها لتفتحها، فتفرد طيور برية جميلة أجنحتها الفضية. ومع جذبة متملكة من ابنة خالة صغيرة، تترك يولاندا نفسها لتقاد إلى الطاولة التي وُضعت عليها الكعكة الاحتفالية بمفرشها الدانتيل الأبيض ومناديل الحفلات المنشاة. تدّعي أنها تفاجأت بالكعكة المصنوعة على شكل الجزيرة التي تحوي الدومينيكان، وتشرح ابنة لوسيندا الصغيرة بابتسامة مشرقة: "إنها فكرة مامي".

تضيف ابنة خالة صغيرة أخرى: "سنُشعل شموعًا على البلد بالكامل". في وجهها تشابه طفيف مع شخص من جيل يولاندا. لا بد أن هذه ابنة كارمنسيتا.

يصحح لها أخ أكبر: "ليس عليها بأكملها. الشموع للمدن الكبيرة فقط".

تصر الطفلة مستنسخ كارمنسيتا: "عليها بأكملها! أليس كذلك يا مامي، بأكملها"؟ توجه كلامها لامرأة ذات وجه متقدم في العمر لا يبدو مألوفًا ليولاندا كوجه الطفلة.

تصيح يولاندا: "كارمنسيتا! لم أتعرف عليك قبل الآن".

"أنا أكبر سنًّا ولست أكثر حكمة"، مزحة كارمنسيتا بالإنجليزية نتيجة لسنتين أو ثلاث قضتها في مدرسة داخلية في الولايات المتحدة. الصبيان فقط يبقون للدراسة الجامعية. تابعت كارمنسيتا بالإسبانية: "فكرنا أن نرحب برجوعك بجزيرة من الكعك"!

t.me/qurssan

تعد لوسيندا: "خمس شموع. واحدة لكل عام غبتِ فيه"!
تصيح ابنة الخالة المتفاصحة: "خمس مدن رئيسية".
تعارضها أختها: "لا"! وتنحني أمهما لتتفاوض.

تجلس يولاندا وخالاتها وأبناؤهن لينتظروا أعواد الثقاب. تتخلل شمس آخر النهار شجيرة الجهنمية التي اعتادت تسلق حوائط الفناء كي تتشابك عبر السقيفة وتنهمر البراعم الأرجوانية والبنفسجية. فناء الخالة كارمن هو مكان اللقاء للتجمع السكني. هي أرملة زعيم القبيلة، وبالتالي فبيتها هو الأكبر. تتشعب ممرات حجرية ضيقة لتتخلل الحدائق المُعتَنَى بها خلف الفناء. بعد الكعك والقهوة الكوبية ستتفرق بنات الخالات في تلك الممرات إلى بيوتهن المختلفة في المجمع. هناك سيشرفن على طهاتهن في تحضير طعام العشاء للأزواج الذين يعودون جماعة إلى منازلهم بعد ساعة الترويح ما بعد العمل. ذات مرة تباهى أحد أبناء الخالة بأن ساعة ما قبل العشاء يجب أن تسمى ساعة العاهرات. لم يتهرب من أن يشرح ليولاندا أن هذه هي الساعة التي يتوقف فيها الرجال الدومينيكانيون من طبقة معينة عند عشيقاتهم في طريق عودتهم إلى زوجاتهم في المنزل.

تقول الخالة كارمن وهي تتنهد: "خمس سنوات! سيكون علينا أن نُفرِط في تدليلها هذه المرة" -تميل الخالة برأسها لتوحي بالتواطؤ مع الخالات وأبناء الخالات الآخرين- "كي لا تبقى بعيدًا كل هذا الوقت مرة أخرى".

تقول الخالة فلور: "هذا ليس حسنًا. أنتن الأربع ستضعن هناك بالأعلى". تومئ بذقنها مبتسمة إلى السماء.

t.me/qurssan

"وكيف حالكن أيتها الفتيات الأربع"؟! تسأل لوسيندا وهي تغمز بعينها. في أيام مراهقتهن خلال الزيارات الصيفية كانت الفتيات الأربع تثِرْن ذهول أبناء خالاتهن في الجزيرة بقصص عن مغامراتهن في الولايات المتحدة.

تخبر يولاندا عن أخواتها بإسبانية متعثرة. وعندما تنتقل إلى الإنجليزية ينهرنها "بالإسبانية"! تصر الخالات أنها كلما مارست الكلام عادت إلى لغتها الأم بشكل أسرع. نعم، وعندما تعود إلى الولايات المتحدة تجد ذهنها فارغًا فجأة عند استدعاء كلمة إنجليزية أو تختلط عليها عبارة شائعة كما يحدث مع والدتها. مع ذلك فيولاندا ليست واثقة أنها ستعود هذه المرة... ولكن هذا سر.

تقول جابرييلا الزوجة الشابة الجميلة لموندين، أمير العائلة: "قولي لنا ما الذي تفعلينه بالتحديد وأنت هناك"؟ وجه جابرييلا ببشرته الباهتة والعيون السوداء الدرامية لبطلة رومانسية يذكر يولاندا بقبضة العاشق فوق صدره. ولكن جابرييلا نفسها مباشرة بشكل محفز. "إن لم يكن لديك خطة فصدقيني سينتهي الأمر بالعديد من الدعوات التي لن تستطيعي أن ترفضيها".

توافقها الخالة كارمن: "يجب أن تقولي لنا إن كان لديك أي وحم (بالإسبانية في الأصل) صغير"!

تسأل يولاندا: "ما هو الوحم"؟

هل رأيتِ! الخالات على حق. بعد البقاء بعيدًا كل تلك السنوات هي الآن تفقد إسبانيتها.

t.me/qurssan

"الحقيقة أنها ليست كلمة من السهل تفسيرها" تتبادل الخالة كارمن نظرة حائرة مع الخالات الأخريات. كيف سنفسرها؟

"الوحم هو مثل اشتهاء شيء تريدين ان تأكليه".

تنفخ جابرييلا خدودها "سعرات حرارية".

تكمل إحدى الخالات الأكبر سنًا قائلة إن الوحم كلمة إسبانية قديمة جدًا، "من قبل حتى أن تكون ولاياتك المتحدة مجرد فكرة". ثم تضيف بحدة: "في الوقع ستجدين أن بعض الفلاحين في الريف لا يزالون يستخدمون الكلمة بمعناها القديم. ألتاجراسيا"! تنادي إحدى الخادمات الجالسة في الطرف الآخر من الفناء. تقترب من مجموعة النساء سيدة عجوز ضئيلة الحجم، شعرها مشدود إلى الوراء في كعكة بيضاء. تطلب منها النساء أن تقول ليولاندا ما هو الوحم، فتخفي يديها البنيتين في جيوب ردائها.

"أنتم أدرى"! تقول ألتاجراسيا بصوت خافت: "أنتِ من تعرفين".

تنهرها سيدتها: "بالله عليكِ يا ألتاجراسيا".

تمتثل الخادمة وتقول: "في قريتي نقول إن الشخص لديه وحم عندما يتلبسه قديس يطلب شيئًا ما".

تتراجع ألتاجراسيا وعندما لا يطلبون منها العودة تستدير وتعود إلى مقعدها.

t.me/qurssan

تقول يولاندا: "سأقول لكم ما يريده قديسي بعد خمس سنوات. لا أستطيع أن أصبر على تناول بعض الجوافة. ربما أستطيع قطف البعض منها عندما أذهب إلى الشمال بعد بضعة أيام".

"بمفردك"؟ تهز الخالة كارمن رأسها رفضًا للفكرة.

تقول الخالة فلور بابتسامة عارفة: "هذه ليست الولايات المتحدة. المرأة لا تسافر بمفردها في هذا البلد. خاصة هذه الأيام".

تنطق جابرييلا بهدوء واثق: "ستكون بخير. سيكون مونديين قد رحل، إن رغبتِ في استعارة إحدى سياراتنا".

"جابي"! تحملق لوسيندا في دهشة: "هل فقدتِ عقلك؟ سيارة ڤولڤو في عمق البلاد مع الوضع الحالي"!

ترفع جابرييلا يديها: "حسنًا! حسنًا! هناك الداتسون أيضًا".

"لا أرغب في إزعاج أحد". قالت يولاندا. كانت قد جلست بهدوء آملة أن تكون قد تعلمت أخيرًا أن تدع موجة التقاليد العالية تجري متجاوزة حياتها وتتحطم على شاطئ امرأة أخرى. خطتها كانت أن تطفو إلى السطح مرة أخرى بعد العديد من (لا تفعلي)؛ كي تفعل ما تريده. رأت بطرف عينيها إلومينادا تدخل مع علبة من أعواد الثقاب على صينية فضية. "سآخذ الحافلة".

"الحافلة"! تنفجر المجموعة كلها ضاحكة. يتقدم أبناء الخالة الصغار لينضموا إلى الضحك متلهفين على أن يكونوا جزءًا من مرح الكبار. "يولاندا يا حبيبتي لقد غبتِ لوقت طويل". تشاكسها لوسيندا

t.me/qurssan

وتضحك: "ألا تدركين ذلك"؟! "تخيل يويو وهي تتسلق شاحنة متهالكة مع كل الفلاحين وديوكهم المتناحرة وعنزاتهم وخنازيرهم"!

ضحكات وهزات رؤوس.

تؤكد لهم يولاندا: "أستطيع الاعتناء بنفسي، ولكن ما هي تلك المتاعب الأخرى التي تذكرونها دائمًا"؟

تهز جابرييلا يدها كما لو كانت تبعد عنها ذبابة مزعجة: "لا تنتبهي لما يقولون". أصابعها طويلة ومدببة، وقد تم لحام خاتم خطبتها مع خاتم زواجها في محبس واحد عريض. شرحت ليولاندا في إحدى المرات "أنه أسهل هكذا" وهي تناولها الخاتم كي تجربه.

تقول الخالة كارمن بصوت هادئ لا يسمح بمناقضته، فهي في نهاية الأمر ربة العائلة والحاكمة فيها: "وقعت بعض الأحداث مؤخرًا بالفعل".

وكما لو كان تأييدًا لوجهة نظرها، يمر حارس خاص بأسلحته التي تصدر صوت طقطقة على الجانب من الفناء الذي يطل على الحديقة الخلفية. يرتدي زيًا كاكي اللون عسكري الطابع وتتأرجح بندقيته على كتفه. ثمة جدار عالٍ يحيط بالمجمع السكني منذ وعت ذاكرة يولاندا. جدار كانت تعتقد في طفولتها أنه موجود كي يصد البحر في حال ارتفاعه خلال إعصار حتى التلة التي بنيت عليها بيوت العائلة.

"تبدو الأمور بشعة". تبتسم الخالة فلور مرة أخرى بإشراق. في كتاب التمثيل الخاص بعصر النهضة يمكن أن تحمل صورة هذه الابتسامة التعليق التالي: السيدة عالقة في ابتسامة لا تستطيع الهرب منها. "هناك كلام كما تعلمين عن جماعات مسلحة من المتمردين في الجبال".

t.me/qurssan

تُغضن جابرييلا أنفها وتقول: "يقول موندين إن الكلام مجرد شائعات".

زحفت إيلومينادا الآن إلى الأمام حتى وصلت إلى طرف الدائرة كي تقدم الثقاب إلى سيدتها. وفي الضوء الغارب للفناء لا تستطيع يولاندا أن تحدد التعبير على وجهها الداكن.

تنهض الخالة كارمن كي تقترب من الكعكة. تبدأ في إشعال الشموع، وتضع الثقاب المستعمل على صينية تحملها لها إيلوميندا. ضوء واحد لسانتو دومينيجو، وواحد لستياجو، وواحد لبورتو بلاتا. يتضرَّع الأطفال كي يُسمح لهم بإشعال المدن الباقية، ولكن الخالة كارمن تقول لهم لا، يمكنهم نفخ الشموع، وبالطبع تناول الكعك. أما الإشعال فمهمة الكبار. فور اشتعال جميع الشموع يبدأ أبناء الخالات والخالات والأطفال في غناء "مرحبا بك هنا"! على نغمة أغنية عيد الميلاد "سنة حلوة يا جميل".

تحدق يولاندا في الكعكة: حيث يشتعل الطريق الذي حددته على الخريطة لنفسها، شمال المدينة عبر الجبال إلى الشاطئ. مع انتهاء الغناء تحثها بنات خالاتها على تمني أمنية. تميل إلى الأمام وتغمض عينيها. هناك الكثير الذي ترغب به، ومن الصعب اختيار أمنية واحدة. لقد كان هناك عثرات زائدة عن اللازم في طريق السنوات التسع والعشرين منذ أن تركت عائلتها هذه الجزيرة. عاشت هي وأخواتها حيوات مضطربة تنقلن فيها بين الأزواج والبيوت والوظائف، ومررن بالعديد من اللحظات العصيبة. لكن هذا ليس حال بنات خالاتها، فهن ربات منازل ذوات سلطة. تتمنى يولاندا، "أريد أن يصبح هذا بيتي". تتخيل

t.me/qurssan

شكل الخادمات مجتمعات في هدوء غامض عند نهاية الفناء، خاصة التاجراسيا التي تستقر يداها في حجرها.

وعندما فتحت عينيها، مستعدة، كانت نصف دزينة من النفخات الصغيرة البديلة قد أطفأت جميع الشموع. ينطلق صوت تصفيق حاد وتندلع مجادلات صغيرة حول تقسيم مدن الكعكة: يريد ولدي لوسيندا مدينة سانتيجو لأنهما مارسا الطيران الشراعي هناك في عطلة نهاية الأسبوع السابقة، ابنة لوسيندا وابنة كرامنسيتا تصممان على العاصمة لأنها مكان ميلادهما، ولكن إحداهما توافق على التنازل عن العاصمة إذا حصلت على "لا رومانا": حيث تمتلك العائلة بيتًا ساحليًا. ولكن بالطبع فإن "لا رومانا" كانت ابنة الخالة فلور بالمعمودية قد طالبت بها، وهي مريضة بالربو؛ فلا ينبغي معارضتها. تعطي لوسيندا التي بُحَّ صوتها من محاولات تأديب الفريق المشاكس، السكين إلى يولاندا: "إنها كعكتك يا يويو. قرري أنت".

* * *

الطريق الذي يخترق التلال يكفي عرضه لسيارتين صغيرتين، وكذلك فعند كل انحناءة، وكما تم إرشادها، تبطئ يولاندا السيارة وتطلق آلة التنبيه. بعد إحدى الانحناءات السيئة مباشرة تم بناء نصب صغير للعذراء محاطة بثلاثة صلبان أسمنتية، تم طلاؤها حديثًا باللون الأبيض.

تُوقِفُ يولاندا السيارة الداتسون وتستمتع بأول لحظة وحدة منذ وصولها. كل نزهة خارج المجمع السكني كانت تقودها متطوعةٌ إحدى

t.me/qurssan

الخالات الطيبات، وتقدم لها المناظر الطبيعية كأنها عرض ترفيهي أقيم لمتعة نظر ابنة أختها.

تحيط بها سفوح التلال بلونها الأخضر الداكن المهول الممتد في أرجاء المكان. السماء بها سطوع عوضًا عن اللون. وتسري نسمة عبر النخيل بالأسفل، فيصدر جريده حفيفًا كأصوات هامسة. تتصاعد وشائج من دخان من التلال، ثمة فلاح وعائلته يعيشون هنا حياتهم المنعزلة. هذا هو ما افتقدته خلال كل تلك السنوات، دون أن تعرف حقًّا أنها تفتقده. حين وقفت هنا وسط هذه السكينة أيقنت أنّها لم تشعر قط أنها في وطنها في الولايات المتّحدة.

في البداية عندما سمعت الصوت ظنت أنها نسيت إبطال محرك سيارتها، ولكن الصوت ارتفع لزئير متألم، وكأن المحرك على وشك الانفجار. لاحظت يولاندا أصوات رجال في خلفية الصوت. فهرعت إلى سيارتها وأحكمت غلق الباب، وعادت إلى القيادة ملتزمة بالجانب الأيمن من الطريق.

تأتي حافلة مترنحة من المنحنى لتحجب الرؤية عنها. تتجشأ عوادم، والسائق يطلق آلة التنبيه في دفقات كتحذير أو كتحية. إنها حافلة عسكرية قديمة طُمِسَ الشعار الرسمي عليها بدهان لا يتفق لونه مع اللون الأصلي. يراها الركاب في اللحظة الأخيرة فقط، وبطول الجانب الملاصق لها من الباص يطل الرجال من النوافذ يطلقون صيحات ويصرخون ويمسكون بزجاجات ويومئون إليها. تسرع وتتركهم خلفها، بينما تتسلق الداتسون بمحركها القوي الطريق الأفعواني بسهولة.

t.me/qurssan

لا تسمع من الراديو إلا التشويش -مثل صوت حديد سيارة يُطحن- ذلك الصوت الخافت المبهم عبر موجات الأثير هو صوتها وهي تصرخ مستغيثة محبوسة داخل حطام. بالإنجليزية أم الإسبانية؟ تتساءل. جادل هذا الشاعر الذي التقته في حفلة لوسيندا في الليلة السابقة بأنه مهما كان القدر الذي خسره الشخص من لغته الأم فإنه في خضم لحظة عاطفية ما يعود الشخص دائمًا إليها. وضع يولاندا في سلسلة من المواقف وسأل ناظرًا مباشرةً إلى عينيها، أي لغة تستخدمينها في الحب؟

بدأت التلال تنبسط في هضبة عالية والطريق يزداد عرضًا. على يمين ويسار الطريق بدأت تظهر أكشاك. يولاندا تترقب الجوافة. تتكوم عاليًا على منصات خشبية فواكه لم ترها يولاندا من سنوات: المانجو الأصفر المائل إلى الوردي، وقرون التمر الهندي تتسرب منها عصارتها الغنية، وثمار الكاجو الصغيرة معلقة على حبل لتحفظها من أن تسبب رضوضًا لبعضها البعض. قطع اللحم المغطاة بالذباب معلقة في واجهات حوانيت الجزارين. من الصعب تصديق الفقر الذي يتحدث عنه معلقو الراديو. فيبدو أن هناك وفرة في الطعام -إلا الجوافة.

بعد أن تخطت أكشاك الفاكهة تقترب يولاندا من مجمع سكني شديد الشبه بذلك الخاص بعائلتها في العاصمة، محاط سور خرساني عالٍ يمتد لربع ميل تقريبًا. يصعد حارس إلى نقطة حراسته خلف البوابة المصنوعة من الحديد المشغول. فيبدو من خلف القضبان -التي تتخللها الأغصان المزهرة- كأنه رجل محبوس في سجن غرائبي رائع الجمال. ترى خلفه ممر السيارات مظلل في نهايته بيت ريفي بثلاثة أدوار وشرفة واسعة تلتف حوله بالكامل. تقف عند الباب سيارة مرسيدس بنية بلون الشوكولاتة. ربما كان المُلّاك قد أتوا إلى بيتهم الريفي ليتفادوا المتاعب في

t.me/qurssan

العاصمة. هم في الأغلب من اقاربها. لقد تزاوجت حفنة العائلات الغنية فيما بينها مرات عديدة حتى تشابكت أشجار العائلات من الجذور. بل إن خالاتها قد أعطينها قائمة بأسماء أعمام وأخوال وأبناء عمومة تستطيع الاتصال بهم أثناء رحلتها. بجوار كل اسم وصف مختصر قد يساعد يولاندا على تذكر هذا القريب: "لديه حمام سباحة على شكل حبة الفاصوليا"، "السمين الذي كان يعمل سفيرًا". قبل حتى أن تغادر المجمع السكني وضعت يولاندا القائمة في تابلوه السيارة. ستكون على ما يرام بمفردها.

تمتد أمامها قرية صغيرة تدعى "ألتاميرا" وفقًا للحروف المكتوبة على السطح الصفيح المضلع لأول منزل. "ألتاميرا"، وهي مجرد كومة من البيوت على جانبي الطريق، هي المكان المناسب كي تمدد ساقيها قبل اجتياز المنحدر الذي قالت خالاتها إنه خطير، نحو الساحل. تتوقف يولاندا في حانة بسقف من القش محمول على عدد من الأعمدة، وأرضها من الأسمنت المصبوب. في منتصفها طاولة خشبية طويلة يحوم فوقها سرب من الذباب.

لصقت على أحد الأعمدة في المنتصف لوحة مصفرة اللون تحمل إعلانًا لصابون بالموليف. سيدة شقراء مغطاة بالزَّبَد تحت دش منعش، رأسها ملقى إلى الخلف في نشوة ظاهرة وفمها مفتوح في صيحة بلا كلام.

"مرحبًا"! تصيح يولاندا.

تخرج سيدة عجوز من كوخ خلف الحانة وهي تغلق أزرار فستان منزلي ممزق. يتبعها عن قرب ولد صغير يختبئ خلفها كلما ابتسمت له يولاندا وكلما سألته عن اسمه كلما غاص أكثر داخل ثنيات تنورة المرأة العجوز.

تعتذر المرأة: "اعذريه يا سيدة، إنه لم يعتَد التواجد وسط الناس". تعني الأثرياء الذين يمرون في سياراتهم بألتاميرا في طريقهم إلى المتجعات الشاطئية في الساحل الشمالي. "اسمك"! تكرر المرأة العجوز السؤال وكأن يولاندا لم تسأله بالإسبانية. يهمهم الولد باتجاه الأرض. "ارفع صوتك" تنهره المرأة العجوز ولكن صوتها عندما ترفعه بدلاً منه يفصح عن فخر "هذا النكرة الصغير هو خوسيه دوارتس سانشيز يا ميلا".

تضحك يولاندا. أسماء كثيرة لمثل هذا الولد الصغير؛ أسماء محرري الدولة الثلاثة!

تسأل المرأة: "هل أستطيع أن أخدم السيدة بأي شكل؟ شراب منعش؟ كوكا كولا"؟ تفهم يولاندا من الفخر في صوتها أنها تريد أن تكرمها بأفضل ما في قائمتها. تقول لها يولاندا: "سأقول لك عما أرغب فيه". تلقي يولاندا نظرة على صف الأشجار خلف كوخ المرأة: "هل توجد أي جوافة هنا"؟ يتغضن وجه السيدة وتتمتم: "جوافة"؟ ثم تسر لنفسها لثانية: "إنها تنمو في كل مكان أيتها السيدة، ولكني لا أستطيع أن أقول إنني رأيت أيًا منها مؤخرا".

"بعد إذنك"! يصيح خوسيه دوارتي -وقد انضم لمجموعة من الأولاد الصغار الذين ظهروا فجأة وبدأوا يحومون حول السيارة، بينما يتفاخر كل منهم بعدد السيارات التي ركبها- عند ذكر يولاندا للجوافة يقفز إلى الأمام مشيرًا عبر الطريق نحو قمة التلال الغربية، "أعرف أين يوجد بستان كامل من الجوافة الناضجة". يهز رفاقه الصغار رؤوسهم من خلفه.

"هيا إذًا! اذهب". تدب جدته بقدمها كما لو كانت تبعد حيوانًا. "اجلب بعضًا منها للسيدة".

t.me/qurssan

ينطلق بعض الصبيان عبر الطريق ويختفون أعلى طريق منحدر في جانب التلة، ولكن قبل أن يستطيع خوسيه أن يلحق بهم تناديه يولاندا ليعود. هي تريد أن تذهب معه. ينظر الولد نحو جدته وهو لا يعلم ما الذي عليه فعله. تهز العجوز رأسها. ستشعر السيدة بالحر وستتسخ ملابسها الأنيقة. سيأتي خوسيه للسيدة بكل الجوافة التي تريدها.

"ولكن طعمها أفضل كثيرًا عندما تقطفينها بنفسك". تسمع يولاندا الحدة في صوتها. تحولت المرأة العجوز إلى الذراع الطولى لعائلتها. يجتمع الصبية القلائل الذين بقوا مع خوسيه حول السيارة مرة أخرى، يدَّعي كل واحد منهم أنه يحرسها من أجل السيدة. يخطر ببال يولاندا أن هناك طريقة لجعل الأمر متعة للجميع. "ما رأيكم لو أخذنا السيارة"؟ يهلل الأولاد الصغار.

توافق المرأة العجوز على أن هذه ليست فكرة سيئة. إذا أصرت السيدة على الذهاب يمكنها أن تسلك الطريق الترابي إلى الأعلى ثم تعبر إلى الطريق المعبَّد حتى مخازن القهوة. تشير المرأة العجوز جنوبًا باتجاه البيت الكبير. يسلك الكثير من العمال هذا الطريق المختصر نحو العمل.

يتكومون في السيارة. ستة أولاد صغار في الخلف وخوسيه الملاح في الكرسي بجوار يولاندا. ينعطفون إلى طريق وعر يتفرع من الطريق السريع، ويزداد وعورة، بينما يصعد نحو ريف أكثر وحشية وجدبًا. تحتك فروع الشجر بجوانب السيارة وتضربها الحصى من أسفل. تريد يولاندا أن تستدير عائدة، ولكن ليس هناك مساحة لذلك. وأخيرًا مع طقطقة ضخمة للأغصان وخبط الفروع على الزجاج الأمامي، كما لو أن الريف لا يريد أن يطلق سراحهم، تنطلق السيارة إلى الأمام صاعدة

t.me/qurssan

إلى رصيف أملس وضوء النهار. على جانبي الطريق بساتين من أشجار الجوافة والأولاد الذين سبقوا سيرا على الأقدام، يشدون الأغصان بالفعل ويهزونها لينهمر مطر من الجوافة.

تأكل يولاندا عددًا من الثمار فورًا، متلذذة بالملمس غير المستوي قليلاً للقشرة في يدها، وتلتهم اللحم الأبيض المقرمش الحلو بينما يتأملها الأولاد.

تتناثر المجموعة لحصد الجوافة وتشرد يولاندا وخوسيه كشريكين بعيدًا عن الطريق الذي يخترق البستان. سريعًا ما ينحنون تقريبًا إلى نصف طولهم كي يتفادوا الغطاء الكثيف من الأغصان فوقهم. امتلأت سلة يولاندا عن آخرها، فأصبحت كل ثمرة تتم إضافتها تتسبب في سقوط أخرى.

يبدو طريق العودة أطول كثيرًا من طريق الوصول إلى هناك. يداهم يولاندا القلق من أنهم قد يكونون قد ضلوا الطريق، ثم، وكما ينبت القلق من القلق، تصدمها فكرة أنهم لم يسمعوا أو يروا الأولاد الآخرين منذ فترة من الوقت. يكشف نسيج الأغصان لمحات من سماء تبهت. تبرق عبر ذهنها صورة الحارس في سجنه ذي القضبان المزهرة. يردد حفيف أوراق شجر الجوافة صدى تحذيرات خالاتها العجائز: ستضيعين، ستخطفين، سيتم اغتصابك، ستقتلين.

أمامها مباشرة ينقشع دغل أغصان الجوافة، وها هو الممر وخلفه المنظر المبهج للسيارة التي لا تزال على جانب الطريق. الوقوف منتصبة مرة أخرى متعة. يريح خوسيه حمله على الأرض ويفرد ظهره إلى الحد الأقصى. تنظر يولاندا إلى السماء. الشمس تهبط في الأفق الغربي.

t.me/qurssan

يقول خوسيه ملاحظًا: "لا بد أن الآخرين قد ذهبوا ليجمعوا حطبًا لإشعال النار".

ترمق يولاندا ساعتها، لقد تجاوزت السادسة. بهذا المعدل لن تصل إلى الساحل الشمالي عند حلول الليل. تسرع بإعادة خوسيه إلى السيارة؛ حيث يجدون كومة من الجوافة تركها الأولاد الآخرون على جانب الطريق. كمية من الجوافة كافية لإرضاء أكثر قديسي الجزيرة طمعًا مدى الحياة!

يملآن صندوق السيارة سريعًا ويركبان بداخلها، ولكن السيارة لا تكاد تتحرك خطوة حتى تقفز إلى الأمام في ترنح فظيع. تغمض يولاندا عينيها وتلقي برأسها على عجلة القيادة ثم تلقي نظرة إلى خوسيه. عيونه تبحث داخل السيارة عن دليل على ما عساه يكون قد حدث. لن يستطيع هذا الطفل أيضًا أن يستبدل إطار السيارة المثقوب. ستغرب الشمس بعد قليل ويحل الليل سريعًا. لا يوجد غسق متمهل كما في الولايات المتحدة. تشرح لخوسيه أن لديها إطارًا فارغًا من الهواء ويجب أن تعود أسفل الطريق إلى البيت الكبير. فمن يعتني بالمرسيدس البنية سيعرف بلا شك كيف يغير إطارًا.

"بعد إذنك".. يعرض خوسيه عليها، يمكن للسيدة أن تنتظر في السيارة وهو سيعود سريعًا بشخص من بيت آل ميراندا.

ميراندا، ميراندا... تميل يولاندا وتخرج قائمة عمتها من صندوق القفازات وبالفعل، ها هم. الخالة مارينا والعم أليخاندرو ميراندا - مرتفعات ألتاميرا. توضح ملحوظة أن الخال أليخاندرو "هو من كان يملك خيول الركوب الإنجليزية وعلمكن أنتن الأربع ركوب الخيل".

t.me/qurssan

تقول للفتى: "حسنًا. سأخبرك بشيء".. وتشير إلى ساعة معصمها: "إذا رجعت عندما يصل هذه العقرب إلى هنا، فسأعطيك" وترفع إصبعًا واحدة، "دولارًا". يفتح الولد فمه في ذهول. وفي لمح البصر ينطلق من السيارة ويتجه عدوًا إلى بيت ميراندا. تخرج يولاندا من السيارة أيضًا وتمشي خطوة إلى الأمام حتى يختفي الولد عند أحد المنحنيات. تسمع صوت أغصان تزاح جانبًا وأغصان تتكسر تحت أقدام تأتي من الممشى الذي يخترق البستان على الجانب المقابل من الطريق. يظهر رجلان، أحدهما قصير وأسمر والآخر نحيف فاتح البشرة. يرتديان ثياب عمل رثة ملطخة ببقع العرق، ولهما وجوه مسحوبة. تتدلى بلطتان من حزاميهما.

ينتفض الرجلان عند رؤية يولاندا، ثم ينظران خلفها إلى السيارة: يتحدث الرجل الأسمر أولاً: "هل هذه سيارتك"؟ ثم يواصل: "هل هناك مشكلة"؟ يتفحصها الآخر باهتمام. أصبحا الآن أمامها في الطريق يسدّان عليها أي مهرب. قدَّرت أنهما قويان ويستطيعان الإمساك بها إذا بدأت في الجري بعيدًا. وهذا بغض النظر عن أنها غير قادرة على الحركة، فساقاها بدتا فجأة كأنهما مثبتتان في الأرض.. فكرت أن تشرح لهما أنها خرجت في نزهة بالسيارة قبل العشاء في المنزل الكبير حتى يظنا أن شخصًا ما يعرف مكانها وسيعود للبحث عنها إذا حاولا اختطافها. ولكن يبدو أن لسانها قد انحشر داخل فمها فصار كخرقة أعاقت خروج الكلمات.

يتبادل الرجلان نظرات –تبدو ليولاندا– صدامية.

يتكلم القصير الأسمر مرة أخرى: "يا آنسة، هل أنت بخير"؟ يحدق فيها. هو رجل قصير. ليس أطول من يولاندا، ولكنه يعطي انطباعًا بأنه

t.me/qurssan

ضخم لأنه عريض وصلب مثل تمثال خشبي لم يكتمل نحته. رفيقه رشيق وطويل وله بشرة بلون العسل البني الغني تليق بلون عيونه العسلية. في أي مكان آخر كانت يولاندا ستجده شديد الجاذبية، ولكن هنا في طريق موحش مع السماء التي تزداد إظلامًا كل ثانية تبدو ملامحه الجميلة خطيرة كأنها شرك نصب ليصطادها بدون أن تنتبه.

يكرر الرجل الأقصر: "هل نستطيع مساعدتك"؟

يبتسم الوسيم بمعرفة، تظهر غمازتان طويلتان وعميقتان مثل شقين على جانبي فمه. "أمريكية" يقول للرجل الأكثر سمرة مشيرًا إلى السيارة: "لا تفهم ما نقول". يضيق الأكثر سمرة عينيه ويتفحص يولاندا للحظة ويسألها "أأنت أمريكية"؟ كما لو كان غير متأكد.

لقد كانت خائفة أكثر من أن تنفذ أي إستراتيجية، ولكن الآن هناك طريق ينفتح أمامها. تضم يديها إلى صدرها —تستطيع أن تشعر بقلبها يدق بشدة- وتهز رأسها. ثم، وكأن الاعتراف في حد ذاته قد أطلق لسانها، تبدأ في الكلام بالإنجليزية، كلمات قليلة، اعتذار في البداية، ثم فيض من التفسيرات: كيف حدث أنها كانت عائدة في الطريق وحدها واشتهاؤها للجوافة، وكيف أنها لم تتعلم قط كيف تبدل إطارَ سيارة فارغًا. يحدق بها الرجلان وقد بدا أن كلامها غير المفهوم قد جعلهما أكثر وداعة. فقط عندما ذكرت اسم ميراندا أضاءت عيناهما بالاحترام. لقد أنقذت!

تقلد يولاندا حركة الضخ. ينظر الرجل الأكثر سمرة إلى رفيقه الذي يهز كتفيه متحيرًا أيضًا. تشير لهما يولاندا بأن يتبعاها. وتجد أنها تستطيع

t.me/qurssan

ان تحرك قدميها نحو السيارة، كما لو كانت قد نجحت اخيرًا في انتزاعهما من التربة بعد أن سحبت الجذور إلى اعلى.

تقف المجموعة الصغيرة محدقة في الإطار المتهدل للحظة والرجلان يركلانه كما لو كانا يعاقبانه لأنه خذل الآنسة. يقرفصان عند جهة الراكب ويتحدثان بنبرة هامسة. تقود يولاندا الرجلين للجانب الخلفي من السيارة؛ حيث يخرجان الإطار الاحتياطي من عشه الغائر، ثم يبدآن العمل على تركيب أجزاء الرافعة المتداخلة ويخرجان الأدوات من التجاويف الأعمق لصندوق السيارة. يضعان البلطتين جانبًا بعيدًا عن الطريق وفوقهم سماء لوّنها الغسق بالبنفسجي. تتكسر الشمس على قمم التلال ساكبة دمها القرمزي.

فور أن تم تبديل الإطار بالإطار الاحتياطي، يرفع الرجلان الإطار الفارغ إلى صندوق السيارة ويعيدان الأدوات إلى مكانها ثم يعيدان المفاتيح إلى يولاندا.

تهم بقول: "أريد أن أعطيكما شيئًا"! ولكن الكلمات الإنجليزية مجوفة على لسانها. تعبث في محفظتها وتخرج كومة من الأوراق النقدية التي تلفها معًا وتقدمها إلى الرجلين. يرفع القصير يده. ترى يولاندا المكان الذي أصيب فيه بخدش من الرصيف في يده والدم الذي تجلط في صورة خطوط داكنة على كفه. "لا لا يا آنسة. إنه من دواعي سرورنا".

تستدير يولاندا إلى الأطول وتقول: "أرجوك" وتدفع بالأوراق النقدية نحوه. ولكنه أيضًا ينظر إلى الأرض -إيماءة إلوميناداً، إيماءة خوسيه- تدفع الأوراق سريعًا داخل جيبه.

t.me/qurssan

يحمل الرجلان البلطتين على كتفيهما كما يحمل الجنود بنادقهم. يشير الرجل الطويل إلى البيت الكبير "إلى الأمام، آل ميراندا". يوضح نطق الكلمات بحرص. تنظر يولاندا باتجاه يده. في الضوء الخافت الباقي من النهار ترى الطريق أمامها بالكاد. يبدو وكأن بستان الجوافة قد نما داخل الطريق وغزل سجادة محكمة من الأغصان.

تمد يدها إلى الرجلين لتصافحهما. يبعد الرجل القصير يده في البداية كما لو كان لا يريد أن يوسخ يديها، ولكنه أخيرًا يعطيها ليولاندا بعد أن مسحها بجانب بنطاله. جلده خشن وجاف كلحاء الأشجار.

تركب يولاندا السيارة، بينما يتنظر الرجلان للحظة على جانب الطريق ليريا إن كان الإطار سيتحمل. تنزلق خارجة نحو الرصيف ثم تشق طريقها ببطء في الطريق. عندما تبحث عنهما في المرآة الخلفية يكونان قد اختفيا في ظلام بستان الجوافة.

أمامها تلتقط أضواء السيارة شكل ولد صغير. تميل يولاندا كي تفتح له الباب. يضاء ضوء السيارة الأمامي بينما يغالب الولد دموعه. يهدهد ذراعه: "لقد ضربني الحارس. قال لي إنني أخترع قصصًا. لا يمكن لدومينيكانية تملك سيارة أن تكون في الخارج في هذا الوقت لتأتي بجوافة".

"لا تقلق يا خوسيه"، تربت يولاندا على الولد. تستطيع أن تشعر بعظام كتفه عبر القماش الخفيف لقميصه. "لا يزال بإمكانك الحصول على الدولار. لقد قمت بدورك". لكن يبدو أن خجله قد أفسد أي متعة كان ليشعر بها عند الحصول على النقود. تحاول يولاندا أن تلهيه بسؤاله

t.me/qurssan

عمّا سيشتريه بالنقود، ما هو أكثر شيء يشتهيه؟ تفكر يولاندا ان ربما هو الآخر لديه وحم، وربما تأتي له في زيارة لاحقة بما يتوحَّم عليه. ولكن خوسيه دوارتس سانشيز يا ميلا لا يقول شيئًا سوى همهمته بالشكر عندما تطلق سراحه عند الحانة مع ما هو أكثر من الدولار الذي وعدته به.

في بريق أنوار السيارة الأمامية تستطيع يولاندا أن تحدد هيئة المرأة العجوز في المستطيل الأسود لمدخل بيتها وهي تلوح بيدها مودعة، وأعلى الطاولة تلتمع بشرة امرأة بالموليف بلون أبيض منعم ورأسها ما زال مائلاً إلى الخلف وفمها مفتوح كما لو كان ينادي شخصًا ما من مسافة بعيدة.

t.me/qurssan

القبلة

صوفيا

حتى بعد زواجهن، وبعد أن أصبح لديهن أُسر خاصة بهن، كثيرًا ما كانت البنات الأربع لا يستطعن زيارة بيت العائلة في المناسبات، ولكن دائمًا ما يعُدن من أجل عيد ميلاد والدهن. يتجمعون معًا بدون الأزواج والأزواج المستقبليين ودون جلب العمل للمنزل. لأن ذلك أيضًا كان جزءًا من التقليد: البنات يأتين إلى المنزل وحدهن. يدفع الأب بأن الشقة أصغر من أن تتسع للجميع. وبالتأكيد يستطيع أزواجهن أن يستغنوا عنهن لليلة واحدة؟

وعند الأزواج استعداد مماثل لعدم الذهاب إلى أصهارهم، فقد كانوا يشعرون بالضيق من تعالي الأب: "متى سيدرك أنكن كبرتن وأنكن تنمن معنا"؟ ترد البنات مدافعات عن والدهن: "بالله عليكم، لقد قارب سبعين عامًا". كن نساء يملكن شغفًا، ولكن إخلاصهن كان مثل الجذور، منغرزًا في الماضي باتجاه الرجل المسن.

حتى الآن، ولليلة واحدة تعود الزوجات كلّ نوفمبر ليكنّ بنات أبيهن. في غرفة المعيشة المزدحمة يحيط بهن الأثاث الداكن المبالغ في حجمه الآتي من البيت القديم الذي تربين فيه، يتحولْن إلى طفلات مرة

t.me/qurssan

أخرى في نسخة أصغر وأبسط من العالم. وهناك المشهد الاحتفالي عند الباب. يفتح الأب ذراعيه على اتساعهما ويرحب بهن بإنجليزيته المتصدعة: "هذا بيتكن ولا يجب أن تنسين ذلك أبدًا". في الداخل تبدأ الأم في توبيخهن: ملابسهن المهلهلة، شعرهن الهائش، مظهرهن المرهق، النحافة الزائدة، المكياج الزائد وما إلى ذلك.

بعد بضع كؤوس من النبيذ يبدأ الأب في سرد ما يجب فعله إن لم يعش حتى يرى عيد ميلاده القادم. "أرجوك يا بابي بابي"! تحثه بناته كما لو كانت وفاته تواضعًا منه وعليهن إقناعه بالبقاء حيًّا. بعد الكعكة والشموع يوزع الأب أظرفًا سميكة تبدو وكأنها مبطنة، وقد كانت مبطنة بالفعل بما لا يقل عن عدة مئات من الأوراق من فئة العشرات والعشرينات والخمسات مرتبة بحيث تتراص جميعها على الوجه نفسه والعليا، موقعة باسم الأب موسومة بوسم ملكيته لها. لَم لا تكون شيكات؟ ستتساءل البنات لاحقًا حين تجتمعن للنميمة في غرفة النوم وتقمن بعد نقودهن كي تتأكدن أن الأب لا يفضل إحداهن على الأخرى. هل يمارس الأب عملاً غير قانوني ولهذا يخبئ مثل تلك المبالغ؟ لم تصدق أي من البنات هذا الأمر، ولكن إمكانية حدوثه تشعرهن بالإثارة. هل كان يتاجر في المخدرات أو يقوم بعمليات إجهاض غير قانونية في عيادته؟

على الطاولة كن دائمًا يتظاهرن بمحاولة إعادة الأظرف، "لا لا يا بابي، إنّه عيد ميلادك أنت في نهاية الأمر".

يقول لهن الأب إنه لا يزال هناك الكثير في المكان الذي أتت منه تلك المبالغ. كانت الثورة في البلد القديمة قد فشلت. اغلب رفاقه قتلوا أو

t.me/qurssan

تمت رشوتهم. هرب هو إلى هذه البلد، والآن كان على كل رجل تدبر نفسه، لذا فما يجمعه كان من أجل بناته. لم يكن الأب يعطي بناته أموالاً في حضور أزواجهن. قال الأب في إحدى المرات: "قد تخطر لهم فكرة خاطئة". مع أن أيًا من البنات لم تعرف ماذا يعني الأب بالتحديد، إلا أنهن جميعًا فهمن ما يريد قوله: لا تأتوا بالرجال إلى عيد ميلادي. ولكن في هذه السنة ولمناسبة عيد ميلاده السبعين أرادت الابنة الصغرى، صوفيا، أن يكون الاحتفال في بيتها. كان ابنها قد ولد في ذلك الصيف وهي لا تريد أن تسافر في نوفمبر مع رضيع عمره أربعة أشهر وابنة صغيرة. ومع ذلك فهي لم ترغب في أن تغيب دونًا عن جميع البنات، لأنها وللمرة الأولى منذ هربت مع زوجها منذ ست سنوات كانت تتحدث مع أبيها. بل إن الرجل العجوز سافر ليراها –أو بالأحرى ليرى حفيده- مرتين. كان أول ذكر يولد للعائلة منذ جيلين. بل إن الرضيع كان سيسمى على اسم الجد "كارلوس"، وكان اسمه الأوسط سيكون اسم صوفيا الأخير قبل الزواج، لذا سيتحقق للرجل العجوز ما لم يأمله "مع حريم من أربع بنات" كما كان يحب أن يقول مازحًا، أن يستمر اسمه في البلد الجديد!

خلال تلك الزيارتين كان الجد يقف حارسًا على المهد طوال اليوم يتحدث إلى كارلوس الصغير "كارلوس الخامس، تشارلز ديكنز، الأمير تشارلز". كان يحصي أسماء المشاهير الذين يحملون اسم تشارلز أو كارلوس كي يحفز الطموح الجيني في الولد. كان يقرقر له أيضًا باسم "شارلمان"؛ لأن الرضيع كان ضخمًا وله عظام كبيرة بزغب أشقر على بشرته الوردية الباهتة وعيون زرقاء مثل والده الألماني. كل محبة الجد الكاريبية للوريث الذكر وللملامح دول الشمال طفت إلى السطح. لقد

t.me/qurssan

كانت هناك الآن دماء جيدة في العائلة يمكنها مقاومة الاختيارات السيئة المستقبلية لأيّ من نسائها.

يغني الجد للطفل: "يمكنك أن تكون رئيس الجمهورية، لقد ولدت هنا. يمكنك أن تصعد إلى القمر، وربما حتى إلى المريخ عندما تصبح في مثل عمري".

كان حديثه الذكوري مع الطفل يعيد لصوفيا مشاعر العداء القديمة نحو والدها. كم كان بغيضًا منه أن يستمر ويستمر هكذا بينما تقف بجواره حفيدته الصغيرة بعيوَن واسعة وحزينة على كل الأشياء التي سيكون باستطاعة أخيها الصغير -الذي لا يزيد حجمه عن حجم إحدى لعبها- فعلها لمجرد أنه صبي. قالت صوفيا لزوجها: "اجعله يتوقف من فضلك". كان أوتو يعتبر الجذل وصاحب الطبع المرح بين أزواج البنات. "المرشد النفسي في المعسكر" كما كانت أخوات زوجته يمازحنه. اقترب أوتو من الجد. نظر كلاهما بحب إلى الفايكينج الجديد.

قال الجد: "يمكنك أن تصبح رجلاً عظيمًا مثل والدك". كانت تلك هي المجاملة الأولى على الإطلاق التي يتلقاها أي زوج ابنة في العائلة. لم يكن هناك أي مجال كي يعبث أوتو مع الرجل العجوز الآن. "إنه ولد طيب، أليس كذلك يا پاپي پاپي"؟ صارت لكنة أوتو الألمانية أكثر وضوحًا عند التعبير عن المحبة. خبط بيده على كتف حميه. لقد أصبحا الآن أصدقاء.

وعلى الرغم من أن الوالد تصالح مع زوج ابنته، كان لا يزال هناك بعض التوتر مع ابنته نفسها. عندما وصل احتضنته عند الباب، لكنه تصلب وأزاحها بأدب. "دعيني أضع تلك الأكياس الثقيلة يا صوفيا" لم

t.me/qurssan

يدعها قط باسم التدليل العائلي، فيفي، حتى عندما كانت تعيش في المنزل. كان لديه مشاكل دائمًا مع صغيرته المتمردة، وهروبها زاد الأمر سوءًا. كان قد حذر بناته كلهن: "أنا لا أريد نساء منحلات في عائلتي"ا كانت التحذيرات تقدم بشكل جماعي، فعلى الرغم من أن في تلك اللحظة تكون ابنة محددة هي المخطئة، إلا أنه لا مانع من توبيخهن جميعًا على سبيل الردع.

كان على بناته أن يتحمّلن هذا النوع من السلوك في مرحلة زمنية قاسية. لقد كبرن في أواخر الستينيات. كانت تلك هي الأيام التي كان فيها ارتداء الجينز والحلقان الكبيرة وتدخين بعض المخدرات ومضاجعة زملاء الدراسة تعتبر أفعالاً سياسية ضد المجتمع العسكري الصناعي. ولكن تحدي والدهن كان أمرًا مختلفًا كليةً، حتى عندما أصبحن سيدات ناضجات. كن يخفضن أصواتهن على مسمع من والدهن عندما يشِرن إلى متعهن الجسدية... نساء عاملات حصلت ثلاثة منهن على شهادات جامعية معلقة على الحائط!

صوفيا هي التي لم تحصل على شهادة. لقد كانت دائمًا ما تسلك طريقها الخاص، مع أنها كانت تقلل من قدر اختياراتها مطلقة عليها اسم "حوادث". كانت تعتبر عادية الملامح بين الأخوات الأربع، بجسدها الطويل وعظامها الكبيرة ووجهها ذي الملامح الضخمة. ومع ذلك كانت هي صاحبة "السيل المتواصل من المحبين"، كما اعتادت أخواتها أن يقُلن مازحات بنبرة لا تخلو من الحيرة وبعض الغيرة. كن معجبات بها ويسألنها دائمًا عن نصائح بخصوص الرجال. كانت الأخت الثالثة تتشارك مع صوفيا غرفة النوم في فترة المراهقة. كانت تحب مشاهدة أختها وهي تتحرك في غرفتهما استعدادًا للنوم، تصفف

t.me/qurssan

شعرها وتربطه بمشبك شعر قبل أن تنزلق تحت الأغطية كما لو كان هناك شخص ينتظرها هناك. في الظلام كانت تنبعث من فيفي الرائحة الطازجة والصحية للجلد النظيف. كانت تمنح بعض الثقة للأخت الثالثة التي كانت دائمًا مترددة ومرعوبة ولديها الكثير من المشاكل مع الرجال. كانت أنفاس أختها في الغرفة المظلمة، مثل وجود حيوان قوي واليف عند طرف سريرها مستعد لحمايتها.

كانت الابنة الصغرى أول من ترك المنزل. تركت الجامعة وهي واقعة في الحب، وعملت سكرتيرة، وكانت تعيش في المنزل لأن والدها هدد بالتبرؤ منها إن تركته لتعيش بمفردها. في عطلتها كانت تذهب إلى كولومبيا[٢] لأن حبيبها الحالي كان يرتادها، وبما أنها كانت لا تستطيع تمضية الليل معه في نيويورك، فقد كان عليها السفر آلاف الأميال كي يمارسا الجنس. في بوجوتا اكتشفا أنهما قد فقدا شهيتهما للفاكهة المحرمة فور أن تذوقاها. انفصلا. التقت بسائح في الشارع، رجل ما من ألمانيا، هكذا ببساطة. لم تقضِ المرأة وقتًا بدون حبيب طوال حياتها كبالغة سوى لبضعة أيام. وقعا في الحب.

في طريقها إلى المنزل رمت غشاء منع الحمل في أول صندوق قمامة في مطار كنيدي. لم تكن لتخاطر بأي شيء. ولكن الأب تشكك مع ذلك. راقبها لشهور. في أول فرصة أتيحت له فتش أدراجها "مُدعيًا البحث عن قصافة الأظافر"، وهناك وجد حزمة من خطابات الغرام.

٢ إحدى دول أمريكا اللاتينية وعاصمتها بوجوتا.

t.me/qurssan

حكى الرجل الألماني بخط صغير وواضح أشياء لا تُحكى، تمت استعادة احاديث الفراش على أوراق الخطابات الزرقاء الرقيقة.

"ما معنى هذا"؟ قال الأب وهو يلوح بالخطابات في وجهها. كانت الأخوات الأربع جالسات حول الطاولة يثرثرن فدخل الأب ضاربًا ساقه بالحزمة كأنها سوط، وشريطة الشعر الحريرية محلولة حيث فكها ثم أعاد لفها حول الخطابات عدة مرات في محاولة مجنونة لاحتواء سوء تصرف ابنته الصغرى.

صرخت "أعطني إياها"! قافزة نحوه.

رفع الأب يده بالخطابات فوق رأسيهما مثل تمثال الحرية وشعلتها، ولكنه كان قد نسي أن هذه هي الابنة التي تضاهيه في الطول. خدشت ذراعه وهي تعيدها للأسفل، وضمت الخطابات إليها كما لو كانت طفلاً انتزعه من صدرها. بدا وكأن سخطها عضوي أكثر منه رومانسي.

بعد صدمته الأولى استعاد الأب غضبه. "هل فض عذريتك؟ هذا هو ما أريد معرفته. هل أخذك خلف النخيل؟ هل تمرغين اسمي الشريف في الوحل، هذا ما أريد أن أعرفه"! كان الأب يصرخ بجنون في وجه الابنة الصغرى، سؤالاً بعد سؤال دون أن يعطيها فرصة للرد. تضرج وجهه من الغضب ولكن وجهها كان أفظع في جموده، قمر عاجي شاحب ينجرف وينجرف مع طوفان غضبه حتى بدا وكأنه يغرق فيه.

t.me/qurssan

وقفت أخواتها القلقات، واحدة عند كل ذراع تحثانه مثل الممرضات، وأخرى تربت على ظهره كأنه طفل محموم. "هيا يا بابي بابي، اهدأ الآن. تمهل. دعنا نتكلم. نحن عائلة في نهاية الأمر".

"هل أنت عاهرة"؟ يستجوبها الأب وقد تناثر رذاذ فمه على وجنتي البنت لشدة قرب وجهه من وجهها.

قالت بصوت منخفض قبيح مثل فحيح حيوان قادر على إيذائه: "الأمر لا يخصك بتاتًا! ليس لديك الحق، ليس لديك أي حق أن تفتش في أشيائي أو تقرأ خطاباتي"! تدفقت الدموع من عينيها وانتفخت فتحتا أنفها.

انفتح فم الأب في مشكلاً دائرة صغيرة من الصدمة. انسحبت صوفيا بهدوء وتركت الغرفة. عادة في نوبات غضبها وهي تكبر كانت هذه الابنة تندفع خارج البيت وتعود بعد ساعات، وقد سكنت وعادت إليها حلاوة طبعها حاملة هدايا سخيفة لجميع أفراد العائلة، مغناطيس ثلاجة، كرات شعر صغيرة بعيون متحركة.

ولكن هذه المرة كانوا يستطيعون سماعها في الطابق الأعلى تفتح وتغلق الأدراج وتتحرك بين السرير والخزانة. في الأسفل كان الأب يطوف بطول الغرف وبناته الثلاث يحتجزنه، بينما القوى العظمى الأخرى في البيت تقوم بهدوء -كما لو كان لديها كل الوقت- بإغلاق أزرار جميع ملابسها وطيها وتحضير جميع حقائبها وترك البيت للأبد. وصلت إلى ألمانيا بشكل ما وجعلت الرجل يتزوجها، كان الأب الذي عرف بطموحه الجامح في العائلة ليذهل حين يعرف أن ذلك النكرة الألماني الذي تزوجته هو كيميائي عالمي السمعة. الابنة المشاكسة، لم

t.me/qurssan

يكن يعنيها كيف يكسب أوتو قوته عندما طرقت بابه وعرضت نفسها عليه.

قالت: "أستطيع أن أحبك أكثر من أي شخص آخر إن استطعت مبادلتي الشيء نفسه، هيا نتزوج".

قال أوتو: "ادخلي ودعينا نتحدث"! أو هكذا حُكيت القصة.

"نعم أم لا"؟ سألته صوفيا. هكذا ببساطة في ليلة يتساقط فيها الثلج على بابه وتيار بارد يدخل. تفاخر أوتو لاحقًا: "لم أكن أستطيع أن أدعها تتجمد".

"حقًا لم تكن تستطيع! صادق بالطبع". وضعت صوفيا يدًا ضخمة على كتفه، وكان لأي شخص أن يتخيل كيف لا بد أن تكون الأمور بينهما في ظلام ممارسة الحب. في شهر عسلهما سافرا إلى اليونان، وأرسلت صوفيا بطاقات بريدية إلى أبيها وأمها وأخواتها مثل أي شخص حديث الزواج: "نحن نقضي وقتًا رائعًا. نتمنى لو كنتم معنا".

ولكن الأب تمسك بانتقامه. لشهور لم يكن أحد يستطيع أن ينطق اسم الابنة في حضوره، مع أنه كان يناديهن جميعًا بصوفيا ويصحح لنفسه سريعًا. عندما وُلدت ابنة الابنة حسمت الأم أمرها. فليحمل ضغينته إلى القبر. ستذهب هي إلى ميتشيجان (حيث انتقل أوتو) كي ترى أولى حفيداتها.

في اللحظة الأخيرة لان الأب وذهب معها، ولكن ليته لم يفعل. بقيَ متجهمًا وصامتًا طوال الزيارة مهما حاولت صوفيا وأخواتها إشراكه في الحديث. كان النبذ أفضل من هذا البرود. ولكن صوفيا

t.me/qurssan

حاولت مرة أخرى. في الزيارة التالية بمناسبة عيد ميلاد الأب ظهرت في الشقة مع ابنتها الصغيرة. "مفاجأة"! كان هناك نوع من الصلح. حاول الأب في البداية مصافحتها باليد وعندما نجحت في تفادي ذلك احتضنها متخشبًا، قبل أن يأخذ الرضيعة في ذراعه تحت العين الحارسة لزوجته. وجاءت الابنة بعد ذلك إلى عيد ميلاد أبيها في كل الأعوام التالية، وبطريقة النساء استطاعت أن ترقّع وترفو المشاعر التالفة. ولكن ظلّ الجرح مفتوحًا هنا تحت النسيج الاجتماعي، رفض الأب أن يطأ منزل الابنة. ونادرًا ما كان يتحدث معها إلا في بعض الموضوعات العامة، وبنفس نبرة الصوت التي يستخدمها مع أزواج بناته.

ولكن عيد ميلاده السبعين اقترب، وقد وافق على أن يكون الاحتفال في بيت صوفيا. كان تعميد كارلوس الصغير في الصباح، لذا فسيكون الحدث الكبير هو عيد ميلاد پاپي كارلوس في تلك الليلة. كان حدثًا جللاً بالنسبة للابنة الصغرى أن تجتمع العائلة المتناثرة في الغرب الأوسط لديها في عطلة نهاية الأسبوع. ولكن الحدث الأكبر هو أن صوفيا استطاعت دعوة الأزواج هذا العام، فتندرت الأخوات: "الأزواج قادمون، الأزواج قادمون". أرجعت صوفيا الفضل إلى كارلوس الصغير. لقد فتح الطفل الباب للرجال الآخرين في العائلة.

ولكن الضربة التي رغبت فيها الابنة الصغرى أكثر من غيرها كانت الصلح مع أبيها بشكل أشمل. ستقيم حفلاً كبيرًا للرجل المسن لن ينساه. لأسابيع تخطط لما سيأكلونه وأين سينامون جميعًا وسبل الترفيه. دأبت على الاتصال بأخواتها كي تستشيرهن في كل أمر. في الأغلب كن يوافقنها: فرقة موسيقية، قبعات ورقية، بالونات، دبابيس تحمل

t.me/qurssan

شارات كتب عليها: "أعظم اب في العالم". كل شيء كان معدًا وفقًا لما يعرفن من تفضيلات الأب، مبالغًا فيه وسخيفًا ومنصبًا عليه. فكرت صوفيا لبرهة في راقصة شرقية أو فتاة تقفز من داخل كعكة عيد الميلاد، ولكن الابنة الثالثة ـوالتي أصبحت نسوية عقب طلاقهاـ قالت: "إن ترفيه المراهقين هذا مهين". ما تحبذه هو فكرة الفرقة الموسيقية. يمكن لأخواتها الثلاث المتزوجات ان يتقاسمن التكلفة بينهن إن أردن ان يمارسن التمييز الجنسي. خلقت صوفيا عطلة نهاية أسبوع ترضي جميع الأطراف. سيقضون وقتًا جيدًا في بيتها في عيد الميلاد السبعيني للأب حتى إن قضى ذلك عليها!

في ليلة الحفلة تناولت العائلة عشاءً مبكرًا قبل وصول الفرقة الموسيقية والضيوف. رفعت كل ابنة نخبًا لكلا الكارلوسين. نادى أزواج البنات كارلوس الكبير "پاپي پاپي"، وصرخ كارلوس الصغير طوال الوقت وهو يبدو مثل بنت في رداء التعميد الطويل، ولم تنل أمه المسكينة لحظة من السلام بين تقديم العشاء الذي حضّرته للعائلة وبين تقديم العشاء له. لم يتوقف الهاتف عن الرنين من أقارب في البلد القديمة يتصلون لتهنئة الرجل الكبير، وتواصل قرع الأنخاب التي أعدتها البنات. حتى مع ذلك فقد لمعت عينا الأب بالدموع أكثر من مرة بينما كانت الأخوات يقدمن فقرات الإطراء.

كان يبدو مسنًّا اليوم وقد بدت عليه كل سنة من سنواته السبعين. ربما كان النبيذ الكثير قد جعل بشرته داكنة وشعره وشاربه وحاجبيه البنين يبدو عليهم بياض غير طبيعي. انتعش قليلاً بسبب هداياه مع ذلك، الأدوات والكتب وزينة المكتب والكروت التي تتضمن رسائل طويلة مكتوبًا في بدايتها: "إلى أفضل وأعز پاپي پاپي في العالم". والتي

t.me/qurssan

كان يرغب في قراءتها جميعًا بصوت عالٍ. "لا تفعل ذلك يا بابي بابي، إنها رسائل خاصة"! تقاطعه البنات ملتفات حوله وراغبات في إنقاذ بعضهن البعض من افتضاح مشاعرهن الجياشة علانيةً. أعطته زوجته ساعة ذهبية وداعبتهما ابنتهما الثالثة قائلةً إن هذه هي الطريقة التي تحيل بها الشركات موظفيها إلى التقاعد، ولكنها توقفت عندما أرسلت إليها أمها نظرات غاضبة. ثم جاء دور هدايا الرجال: أحزمة ومحافظ لبطاقات الائتمان من أزواج البنات.

كان الأب دمثًا: "كلها أشياء أحتاجها بالفعل". كوّم كروت الهدايا معًا ووضعها في جيبه كي يتأملها لاحقًا. كان أزواج البنات جميعًا يعرفون أن الأب يراقب بغيرة أي علامات عدم اكتراث من جانبهم. أما بالنسبة لبناته، فحتى بعد أن قدمن أنخابهن وفتحت الهدايا وحفظها الأب بعيدًا بمساعدة حفيدته الصغيرة، حتى في تلك اللحظة، شعرت البنات بأنه كان ينتظر شيئًا آخر لم يعطينه له بعد. ولكن كان لا يزال هناك في الحفل المزيد للتأكد من أنه سيحصل على ما يحتاجه للسنة الطويلة الوحيدة الآتية. وصلت الفرقة، ثلاثة رجال في منتصف العمر، كل منهم له خصلة فضية مصففة إلى الخلف بكمية مبالغ فيها من كريم الشعر. وضع "داني وأولاده" لوحة باسمهم مستندة على المدفأة. كان هناك واحد على الأكورديون وآخر على الكمان وثالث يتنوع بين المراكس والمثلث والطبول عند الاحتياج لها. لعبوا موسيقى أفلام وبولكا. أي شيء مألوف يمكنك الدندنة معه، وجميع الأغاني المفرطة في العاطفية كانت مهداة إلى "بوبي" أو "زوجته الجميلة". أعجبت الفرقة الأب، وهنأ أوتو: "اختيار جيد". استشاط مزاج الابنة الصغرى بسهولة مع كل ما تناولته من شراب وطعام وضيقت عينيها وهي تنظر

t.me/qurssan

إلى زوجها المبتسم ووضعت يدا على ردفها. كما لو ان اوتو قد حرك ساكنًا خلال شهور من التحضيرات!

بدأ الضيوف في الوصول، ولدى الكثير منهم حكايات حول كيف ضلوا الطريق. كانت الضواحي مظلمة ومتشعبة، مثل متاهات بساحاتها ودروبها. نظر زملاء أوتو غير المتزوجين إلى ارجاء الغرفة محاولين تحديد الأخت المطلقة حديثًا، والتي سمعوا الكثير عنها. لكن لم يجدوا امرأة بنفس الجمال والجاذبية والموهبة التي طالما أسهبت صوفيا في الحديث عنها عند التباهي بتلك الأخت. كان معظم هؤلاء الأصدقاء شبه واقعين في غرام صوفيا على كل حال، وكانت هي من يبحثون عنها في الغرفة المزدحمة.

كانت هناك كعكة شوكولاتة كبيرة على شكل قلب موضوعة على الخوان الطويل مع إحدى وسبعين شمعة؛ واحدة إضافية لجلب الحظ. عدتها الحفيدة وخالاتها وزرعتها رأسيًّا في أنحاء القلب، شموع خادعة من التي لا تنطفئ. لاحقًا أضاءت مثل سهم مشتعل لا يخبو. كان البار بجوار القلب، وعند منتصف الليل عندما انطلقت الفرقة مرة أخرى في "عام سعيد يا بوبي" كان الجميع قد أكلوا وشربوا بإفراط.

لعب الجميع ألعاب الحفلات على مدار الليلة، وطاوعتهم الفرقة في الكراسي الموسيقية، ولكن بعد أن كسروا كرسيين من كراسي مائدة الطعام كفوا عن اللعب. كانت الابنة الثالثة بالذات قد خرجت عن السيطرة جاعلة من حجر جميع الرجال كراسٍ موسيقية. جلس الأب صامتًا. كان يحدق في المشهد باستنكار.

t.me/qurssan

بل إنه كلما توغل الليل أصبح الأب أكثر انعزالاً. محاطًا بناته وأزواجهن وأصدقائهم الفاخرين الأذكياء الذين يتحدثون حديثًا راقيًا، بدا الأب وكأنه يلاحظ أنه مجرد رجل شائخ جالس في بيوتهم يأكل لحم الضأن المشوي الخاص بهم ويقتحم عليهم حياتهم. كادت البنات أن يسمعن أفكاره داخل رؤوسهن. هو من دفع تكلفة تقويم أسنانهن ونزع اللكنة من إنجليزيتهن في مدارس باهظة، أصبح لا شيء بالنسبة لهن الآن. كل من في هذه الغرفة سيعيشون بعده، حتى الرجال السخفاء في الفرقة الموسيقية الذين بدوْا كأولاد: تخيل أن تكسب قوتك من عزف أغاني عيد الميلاد! كيف يمكنهم أن يكسبوا ما يكفي من النقود كي يجلبوا لبناتهم فساتين جميلة ويرسلوهم إلى أوروبا خلال الصيف كي لا يصبْن بالملل؟ أين أصبح رجال العالم الآن؟ كل واحد من أزواج بناته صبي. يستطيع أن يرى ذلك بسهولة. حتى أوتو العالم الشهير كان صبيًا في المدرسة بقلم رصاص يحل مسائل القسمة المطولة. أما زوج الابنة الجديد فهو يشفق عليه، كان يستطيع أن يرى أن هذا الزوج ستصرعه ابنته الثانية قوية الإرادة. لقد بدأت بالفعل في جعله يدلك لها ظهرها ويأتي لها بالسجائر في منتصف الليل. ولكن ليس عليه أن يقلق على بناته ولا زوجته أيضًا. ها هي تجلس جميلة ورشيقة كفتاة، تبتسم بخفر للجميع عندما تُهدى لها أغنية. أعطيها ثمانية أو ربما تسعة أشهر من الترمُّل ثم ستجد شخصًا تشيخ معه اعتمادًا على أموال بوليصة تأمينه على الحياة.

فكرت الابنة الثالثة في لعبة حفلات تنتزع أباها من صمته. أخذت إحدى أغطية الطفل الناعمة وعصبت عيني والدها وقادته إلى كرسي في وسط الغرفة. صفقت النساء وجلس الرجال. ادعى الأب أنه لا يفهم ما تنتويه بناته.

t.me/qurssan

"كيف يلعب المرء هذه اللعبة يا مامي"؟

قالت الأم وهي تضحك: "أنت وحدك يا داد". كانت الوحيدة في العائلة التي تناديه باسمه الأمريكي.

سألت الكبرى: "هل أنت مستعد يا پاپي"؟

اجاب بلكنة قوية: "أنا مستعد تمامًا".

قالت الكبرى: "حسنًا، خمن من هذا"؟ كانت دائمًا ما تتولى قيادة الأمور. هكذا كانت الأمور تستوي بين البنات.

هز الأب رأسه ورفع حاجبه. تمسك بكرسيه متحمسًا وخائفًا بعض الشيء، مثل ولد على وشك أن يُسأل سؤالاً صعبًا ولكنه يعرف إجابته.

أشارت الابنة الكبرى للابنة الثالثة، والتي خطت على أطراف اصابعها نحو الدائرة التي صنعتها النساء حول الرجل العجوز. أعطته قبلة سريعة على وجنته.

سألت الكبرى: "من تلك يا پاپي"؟

كان يقهقه باستمتاع، ولم يستطع نطق الكلمات في البداية. كان قد شرب كثيرًا. قال بصوت صغير وحيي: "هذه مامي".

"لا! خطأ"! صاحت جميع النساء.

"كارلا"؟ خمن أنها الكبرى. كان يتحرك بالترتيب.

"خطأ"! المزيد من الصيحات.

"ساندي؟ يويو"؟

"لقد خمنت". قالت الثالثة.

t.me/qurssan

صفقت النساء وبعضهن انحنين في ضحك طرب. كان الجميع قد شربوا كثيرًا وكان الشيخ يستمتع بوقته أيضًا.

بدات الكبرى في اللعبة مرة أخرى: "حسنًا هناك أخرى تأتي باتجاهك". وضعت إصبع السبابة عند شفتيها وألقت نظرة ذات مغزى على الجميع، وبهدوء دارت حول الرجل العجوز وقبلته من خلفه على قمة رأسه. ثم عادت على أطراف أصابعها إلى حيث كانت تقف عندما تحدثت لأول مرة. "من كان ذلك يا پاپي"؟ سألت ببراءة مبالغ فيها.

"مامي"؟ علا صوته مفضوحًا وضعيفًا، ثم هبط إلى يقينه "كانت تلك مامي".

"لن أشارك في اللعبة"، قالت زوجته الجالسة على الأريكة؛ حيث كانت قد استسلمت أخيرًا في إرهاق.

لم يصرح الأب باسم أيٍّ من النساء الأخريات في الغرفة. كان ذلك سيكون خاليًا من الاحترام، كما أن أسماءهم الأمريكية غريبة الجرس كانت عصية على التذكر وصعبة في النطق. ولكنه مع ذلك نال فضل قبلاتهن تحت ستار بناته. كان الأب يعدّ بالترتيب كل مرة: "كارلا"، "ساندي"، "يويو"؟ أحيانًا كان يخلط الترتيب كي يضع الابنة الثالثة في البداية أو الكبرى في المركز الثاني.

كانت صوفيا في غرفة النوم تعتني بابنها الذي توتر مع كل هذا الضجيج بالمنزل. عادت إلى غرفة المعيشة وهي تعقد الأزرار الأمامية لفستانها وصادفت اللعبة، أدارت عينيها في محجريهما: "لقد صار الأمر مبتذلاً هنا أليس كذلك"؟! وحركت ردفيها في دائرة ساخرة فضحك

t.me/qurssan

جميع الرجال. دفعت صوفيا بصديقاتها داخل الدائرة وهمست لابنتها الصغرى أن تزرع قبلتها القادمة على أنف جدها. وطبعت النساء قبلاتهن على وجه الشيخ. جلست الابنة الثانية لفترة قصيرة على حِجره وداعبته تحت ذقنه. كلما قال الأب تخمينًا خاطئًا ضحكت الابنة الصغرى بصوت عالٍ. ولكنها لاحظت سريعًا أنه لم يخمن اسمها قط. بعد كل مجهودها الشاق لم تكن متضمنة في إحصائه لبناته. اللعنة عليه! ستأخذ دورها وتجعله يعرف أنها هي!

سريعًا اندفعت داخل الدائرة وأعطت الرجل العجوز قبلة رطبة بفم مفتوح في أذنه. لفت لسانها في تجاويف أذنه وعضت طرفها. ثم تراجعت للوراء. "أوه لا لا".. قالت الكبرى ضاحكة: "من كانت تلك يا بابي"؟

لم يجِب الأب. كانت الابتسامة التي لعبت على شفتيه طوال اللعبة قد غابت. جلس معتدلاً ومنتبهًا. كان هناك توقف طويل، مال الجميع إلى الأمام منتظرين أن يبدأ الأب كعادته "مامي"؟

ولكن الأب لم ينطق اسم الأم. نزع عصابته كما لو كانت جسدًا معديًا قد يلتقط منه مرضًا. وقع الغطاء في كومة ناعمة بجوار كرسيه. كان وجهه قد أصبح داكنًا من الخجل لأن رغبته تم إيقاظها علانية من قبل إحدى بناته. نقّل نظره بينهن. ترددت نظرته. كانت على وجه ابنته الصغيرة النظرة اللامعة والثابتة التي يتذكرها من وقت أن نزعت رسائل حبها من يديه.

"كفانا من هذا" قال آمرًا بصوت خفيض غاضب.

وبالفعل انتهت الحفلة.

t.me/qurssan

البنات الأربع

كارلا، يولاندا، ساندرا، صوفيا.

لا تزال الأم تطلق عليهم "البنات الأربع" حتى بعد أن بلغت الصغرى ستة وعشرين عامًا والكبرى ستبلغ الحادية والثلاثين في الشهر القادم. حين تعدن بالذاكرة للوراء، لا تتذكرن سوى ذلك الاسم.. ربما قبل ميلاد الرابعة كانت تطلق عليهن "البنات الثلاث"، وقبل ذلك البنتين، ولكن حتى الابنة الكبرى التي كانت الوحيدة في يوم ما، والتي تتذكر يوم ميلاد الأخت الرابعة، لا تتذكر أن الأم كانت تطلق عليهن أي اسم سوى "البنات الأربع".

كانت الأم تلبسهن جميعًا ملابس متشابهة، هي في واقعها نسخ مصغرة بألوان مختلفة مما ترتديه هي، حتى إن الأب كان أحيانًا يطلق عليهن مازحًا "البنات الخمس". لم يكن أحد يعرف إن كان فعليًا غير راضٍ في داخله عن عدم إنجابه لأولاد. ولكن الأب كان دائمًا ما يتفاخر بأن "الثيران القوية تنجب البقرات"، وتربت الأم على يده، وتقفز الفتيات الأربع ويحجلن ويضحكن ويتسابقن في أثوابهن التي تعددت ألوانها بين الأصفر والسماوي والوردي والأبيض، ويقوم الغرباء بعدِّهن: "واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع بنات! لا يوجد أبناء"؟

"لا"، تقول الأم بنبرة اعتذار: "فقط البنات الأربع".

t.me/qurssan

كان لكل منهن نفس ثوب الحفلات، وملابس المدرسة، والملابس الداخلية، وفرشاة الأسنان، وملاءات السرير، وقمصان النوم، والكوب البلاستيكي، والمنشفة، وطقم الفرشاة والمشط، مثل الثلاث الأخريات. ولكن الأولى كانت تمشط بالأصفر، والثانية تركب حافلة المدرسة مرتدية الأزرق، والثالثة تنام بالوردي، والرضيعة تفعل كل ما تريده بالأبيض. وعندما كبرت الصغيرة بدأت تحسد أختها على الوردي، فحاولت الأم إقناع الابنة الثالثة أن الأبيض هو أفضل الألوان، وأن الرابعة تريد الوردي لأنها صغيرة ولا تعرف ما هو الأفضل. لكن الابنة الثالثة كانت ذكية ولم يتم إقناعها. كانت دائمًا مقتنعة بأنها حصلت على الصفقة الأفضل؛ حيث إن الوردي هو لون البنات. "أنتن ستدفعنني إلى الجنون يا بنات"! تقول الأم، ولكن البنات كن قد اعتدن على تهديدات الأم الخطابية.

كانت الأم قد اخترعت الشفرة اللونية كي توفر الوقت. لم تكن تستطيع مع وجود أربع بنات متقاربات في السن إلى هذا الحد أن تجاري ميول كل منهن، وتسعى وراء قميص رعاة بقر أحمر عندما أصبحت الابنة الثالثة مسترجلةً، أو بلوزة ريفية مكسيكية عندما اكتشفت الكبرى جذورها اللاتينية. حين أصبحن ناضجات، انتقدت كلٌّ من البنات كفاءة الأم. ادعت الصغرى أن نظام الألوان كله كان يفوح بعقلية خطوط التجميع في المصانع، أما الكبرى، والتي تخصصت في علم نفس الأطفال، فقد انتقدت الأم في ورقة بحثية مستوحاة من حياتها بعنوان "حدث هذا لي أيضًا"، وقالت إن نظام الألوان قد أضعف قدرات البنات الأربع على تحديد هوياتهن والتعرف على سماتهن

t.me/qurssan

الشخصية.. كما ألمحت الابنة الكبرى إلى أن شخصية الأم كانت تعاني من درجة طفيفة من التثبيت عند المرحلة الشرجية.

لم تفهم الأم كل هذا الحديث النفسي، ولكنها كانت تعرف أنها تُنتَقد. في المرة التالية التي كانت فيها البنات الأربع جميعًا معًا استغلت الفرصة كي تبكي قليلاً وتقول إنها فعلت أفضل ما استطاعته من أجلهن. فأثنت البنات على مهارة الأم في تربية أربع بنات ذوات أعمار متقاربة، وسكبن المزيد من النبيذ في كأس الأم وفي كأس الأب، وربت الأب على ذراع الأم وقال سريعًا: "الأبقار القوية تنجب بقرات"، وحكت الأم القصة التي تحب أن تحكيها عن الابنة الكبرى كارلا.

مع أن الأم كانت تخلط بين أسمائهن أو تناديهن جميعًا باسم التدليل الموحد "دلوعتي"، وتخلط مواعيد أعياد ميلادهن ومساراتهن المهنية، وأحيانًا كانت تنسى أي زوج أو رفيق ينتمي إلى أية ابنة، إلا أن لديها قصة مفضلة تحب أن تحكيها عن كل منهن كطريقة للاحتفاء بتلك الابنة في المناسبات الخاصة. آخر مرة حكت فيها الحكاية التي تحب أن تحكيها عن الابنة الكبرى كانت عندما تزوجت كارلا. استولت الأم على الميكروفون خلال استراحة الفرقة الموسيقية وهي ثملة قليلاً من الشمبانيا، وحكت للمدعوين حكاية الحذاء الرياضي الأحمر. بعد أن بكت بحرارة على طاولة العشاء كررت الأم القصة. كانت كارلا بالطبع تعرف القصة جيدًا، وقد حللتها مع زوجها المحلل النفسي من أجل حل مشاكل الطفولة غير المحسومة. ولكنها لم تكن تملّ قط من سماعها لأنها قصتها هي، وكلما قالتها الأم، كانت كارلا تعرف أنها الابنة المفضلة في تلك اللحظة.

t.me/qurssan

سألت الأم الجالسين على الطاولة بشكل عام: "أنتم بالطبع تعرفون قصة الحذاء الرياضي الأحمر"؟

أنّت الابنة الثانية وقالت: "لا! ليس مرة أخرى".

حدقت كارلا بها محذرة: "اسمعوا تلك السلبية"، وهزت رأسها مشيرة إلى زوجها كأنها تأكد له شيئًا كانا قد تحدثا عنه.

ردت الثانية وهي تلف عينيها في مقلتيهما: "أسمعتم هذه المصطلحات"؟

"اسمعوا حكايتي".. رشفت الأم من كأس النبيذ ووضعتها بقوة قليلاً. انسكب النبيذ على يدها. نظرت إلى السقف كما لو كانت قد عادت في الزمن إلى وقت كانوا يعيشون في الجزيرة. تلك الأمطار الغزيرة! تسريب، تسريب لم يكن بمقدرة أي سقف أن يبقيه خارجًا خلال موسم المطر. "كلكم تعرفون أننا في بداية زواجنا كنا فقراء جدًا جدًا"؟ هز الأب رأسه متذكرًا: "وأختكن" —كانت الحكايات تُحكى دائمًا كما لو كانت الابنة المعنية غير موجودة- "كانت أختكن تريد حذاء رياضيًا جديدًا. لقد دفعتني إلى الجنون، ليلاً ونهارًا كانت تلح، تريد الحذاء، تريد الحذاء. على كل حال لم نكن نملك ما يمكننا من تدبير أمورنا فما بالكم بحذاء رياضي! لو أنكن يا بنات تعرفن فقط ما مررنا به في تلك الأيام. لا يمكن وصفه بكلمات. أربع، لا، ثلاث منكن فقط في ذلك الوقت، ثلاث بنات ولا مال يدخل إلى المنزل".

قاطعها الوالد: "لقد كنت أعمل".

t.me/qurssan

"كان أبوكن يعمل"! عقدت الأم حاجبيها. لم تكن تعير اهتمامًا للمقاطعات عندما تبدأ في الحكي. "ولكن ذلك الراتب التافه الصغير كان بالكاد يغطّي الإيجار". عبس الأب. وأسرت الأم: "ووالدي كان يساعدنا".

وضّح الأب لأزواج بناته: "كانت مجرد سُلفة. رددت له كل بنس".

اكملت الأم: "كان مجرد قرض. على كل الأحوال ـالهدف هو أن اختصر الحكايةـ لم يكن لدينا أموال لأشياء مكلفة مثل حذاء رياضي. على كل حال لقد دفعتني للجنون، ليلاً ونهارًا: أريد حذاء، أريد حذاء".. كانت الأم مقلدة جيدة، فضحك الجميع ورشفوا نبيذهم. مسح زوج كارلا على مؤخرة رقبتها في حركات دائرية بطيئة ومثيرة.

"ولكن الرب الكريم دائمًا ما يرزق"، مع أنها لم تكن متدينة بشكل خاص، إلا أن الأم كانت تحب أن تجعل حبكاتها محاطة بالعناية الإلهية. "تصادف أن سيدة لطيفة جدًّا تسكن في آخر الشارع مع فتاة صغيرة أكبر قليلاً من كارلا وأضخم كثيرًا".

"أضخم كثيرًا" نفخ الأب خديه وصنع بوجهه تعبيرًا ساخرًا كي يريهم كم كانت أضخم.

"كانت جدة تلك البنت الصغيرة قد أرسلت إليها حذاء رياضيًّا في عيد ميلادها من نيويورك، بدون أن تعرف أنها كبرت كثيرًا وأن الحذاء الصغير لن يناسبها".

أبقى الأب خدوده منتفخة لأن الابنة الثالثة كانت تنفجر في الضحك كلما نظرت إليه. كانت تسكر بسرعة.

t.me/qurssan

انتظرتها الأم حتى تسيطر على نفسها وحدقت في الأب تحديقة تعيده إلى صوابه، "فعرضتْ عليّ السيدة اللطيفة الحذاء لأنها كانت تعرف كم كانت كارلا تزعجني لرغبتها في واحد. وهل تعلمون"؟ انتظرت الطاولة كي تستمتع الأم بالإجابة عن سؤالها "كان مقاسه مناسبًا تمامًا. دائمًا ما يستجيب". قالت الأم وهي تهز رأسها.

"ولكن الآنسة كارلا لم تكن مهتمةً بحذاء رياضي أبيض. كانت تريد حذاء أحمر"! أدارت الأم عينيها في محجريهما متوجهة إلى الأخت الكبرى: "هل تستطيعون تصديق ذلك"؟

قالت الابنة الثانية: "أها. أنا أُصدق".

قالت كارلا: "نحن عدائيون، أليس كذلك"؟ همس زوجها بشيء في أذنها وضحكا.

"دعوني أكمل"، قالت الأم وهي تشعر بالمعارضة.

نهضت الابنة الصغرى وصبت المزيد من النبيذ للجميع. أدارت الابنة الثالثة قاعدة كأسها إلى الأعلى، وضحكت بلا حماس كبير عندما نفخ الأب خديه مرة أخرى من أجلها. كان خداها هي نفسها قد بهتا وتهدل جفناها فوق عينيها ورفعت رأسها بيديها. ولكن الأم كانت مستغرقة في حكايتها أكثر من أن تنهرها كي تزيح كوعيها عن الطاولة.

"قلت لأختكن: "إنه حذاء أبيض أو لا حذاءٍ"، وقد كان مزاجها عنيفًا هذه الكارلا. رمته عبر الغرفة وصرخت: "حذاء أحمر، حذاء أحمر". تحركت الفتيات الأربع في كراسيهن متشوقات للوصول إلى نهاية القصة. داعب زوج كارلا كتفها كأنه ثدي. أسرعت الأم في حكايتها.

t.me/qurssan

"فأنى والدكن الذي دللكن حتى الإفساد"، ابتسم الأب من مكانه على راس الطاولة، "وأنقذ الحذاء، وهمس لكارليتا من وراء ظهري بأنها ستحصل على حذاء أحمر كما ارادت. وجدتهما هما الاثنين على الأرض في الحمام يلونان هذا الحذاء باللون الأحمر بطلاء أظافري"!

"في صحة مامي".. يقول الأب بخجل وهو يرفع كأسه في نخب ويضيف "وصحة الحذاء الأحمر".

رنت الغرفة بالضحك. رفع الأخوات كؤوسهن "للحذاء الأحمر".

قال المحلل النفسي وهو يغمز لزوجته: "هذه قصة كلاسيكية".

"وحذاء أحمر كما قيل". هزت كارلا رأسها مؤكدة على كلمة أحمر.

"يا إلهي"! تذمرت الأخت الثانية.

"دائمًا ما يرزق" أضافت الأم.

"حذاء أحمر"، قال الأب محاولا أن يحصل على ضحكة أخيرة من الجالسين على الطاولة. ولكن الجميع كانوا مرهقين، وقالت الابنة الثالثة إنها تشعر أنها قد تتقيأ.

يولاندا الابنة الثالثة أصبحت معلمة في مدرسة، ولكن ليس عمدًا. لسنوات بعد تخرجها كانت تكتب "شاعرة" تحت بند المهنة في أي استبيان، وفي استمارات ضريبة الدخل، ثم عدلتها لاحقًا إلى كاتبة/ شاعرة. وأخيرًا اعترفت بأنها لم تكتب شيئًا يذكر منذ سنوات، وأعلنت لعائلتها أنها ليست شاعرة بعد الآن.

أصيبت أمها بالإحباط في نفسها لأنها طالما تمنت أن تصبح يويو شهيرةً. لم تعد للقصة التي ترويها عن ابنتها الثالثة جاذبية النهاية

t.me/qurssan

الاستشرافية. "وبالطبع أصبحت شاعرة"، ولكن الأم حاولت إقناع ابنتها بأنه من الأفضل أن تكون نكرة سعيدةً عن أن تكون مهمة وحزينة. يولاندا، التي كانت لا تزال ذكية مثلما كانت عندما حاولت الأم ان تقنعها بأن الأبيض أفضل من الوردي، لم تقتنع.

كانت الأم تذهب إلى جميع القراءات الشعرية لابنتها في البلدة، وتجلس في الصف الأول تصفق بعد كل قصيدة وتحييها واقفة. كانت يولاندا تخجل لدرجة أنها حاولت أن تبقي قراءاتها سرًّا عن أمها، ولكن بطريقة ما كانت الأم دائمًا تعرف بها وتظهر في قلب الصف الأول. كانت يولاندا ترتبك كثيرًا لرؤية أمها، لمجرد حضورها حتى عندما كانت تلتزم بالسلوك المطلوب. كثيرًا ما كانت يولاندا تقرأ قصائد موجهة إلى حبيب، سوناتات تقع أحداثها في غرفة نوم، وكانت تعرف أن أمها لا تعترف بالجنس للفتيات. ولكنه بدا وكأن الأم لا تلاحظ موضوع القصائد، أو إن كانت تلاحظ فقد كانت تنسب مشاهد الحب إلى خيال يويو العظيم.

"طالما تمتعت هذه الفتاة بخيال خصب"، تسرّ الأم لأي شخص يجلس بجوارها. عقب إحدى القراءات التي قامت بها الابنة مؤخرًا بعد صمت طويل، كان جار الأم هو حبيب الابنة. لم تكن الأم تعرف ان البروفيسور الوسيم الأشيب الجالس بجانبها يعرف الابنة جيدًا. كانت تعتقد أنه مجرد شخص مهتم بشعرها. قالت الأم للحبيب: "من بين البنات الأربع جميعهن يويو كانت دائمًا تحب الشعر".

t.me/qurssan

"هذا هو اسم التدليل الخاص بها، يو، يويو" شرحت الأم "إنها تشتكي أنها تريد اسمها، ولكن يجب عليك أن تختصر عندما يكون لديك أربعة. أربع بنات، هل تتخيل"؟

"حقًّا"؟ قال الحبيب مع أن يولاندا كانت قد أخبرته عن عائلتها واسمها الذي تم تشويهه -يو، جو، يويو. كان أكثر حكمة من أن يختصر. يو - لا - ندا حفرت الاسم في وعيه. من المفترض أن الأبوين راسخان في انتمائهما للعالم القديم، ولكن البنات الأربع كن جامحات بشكل يتجاوز كل ذلك. كان هناك عدد من حالات الطلاق فيما بينهن، بما في ذلك طلاق يولاندا. الابنة الكبرى، طبيبة نفس الأطفال كانت قد تزوجت محللاً نفسيًّا كانت تواعده عندما انهار زواجها الأول أو شيء من هذا القبيل. كانت الأخرى تتعاطى الكثير من المخدرات حتى تبقي وزنها منخفضًا. الصغرى هربت مع رجل ألماني عندما اكتشفوا أنها حبلى.

"ولكن هذه اليو".. أسهبت الأم وهي تشير إلى ابنتها؛ حيث تجلس مع الشعراء الآخرين منتظرة أن يعمل نظام الصوت بشكل جيد كي تبدأ الأمسية: "هذه اليو كان لديها خيال عظيم". كان طنين الحديث يقاطع الآن بطقطقة "تست" متضخمة، تنطق قريبًا من الميكروفون بشكل مبالغ فيه. راقبت يولاندا الحديث الذي استغرقت فيه أمها وحبيبها بعدم ارتياح متزايد.

"نعم، طالما أحبت يويو الشعر. بل إني أتذكر الوقت الذي ذهبنا فيه إلى رحلة في نيويورك. لا بد أنها كانت تبلغ أقل من ثلاث سنوات

t.me/qurssan

وقتها". بينما كانت الأم تمهد لقصتها لاحظ الحبيب أن عيني الأم كانتا هما العينين اللتين تنظران إليه بنعومة ليلاً من وجه الابنة.

"تست" انفجر صوت داخل الغرفة.

نظرت الأم إلى الأعلى معتقدة أن قراءة الشعر قد بدأت. اومأ لها الحبيب أن لا تعبأ بالصوت. كان يريد أن يسمع القصة. "ذهبنا إلى نيويورك. لولو وأنا. كان لديه مؤتمر هناك وقررنا أن نجعل من الأمر عطلة. لم نكن قد قمنا بعطلة منذ ميلاد أول أطفالنا. كنا فقراء جدًّا" أخفضت الأم صوتها "لا يمكن للكلمات أن تصف كم كنا فقراء. ولكننا كنا قد بدأنا نشهد أيامًا أفضل".

"حقًّا"؟ قال الحبيب، كان قد ثبت تلك الكلمة باعتبارها الكلمة القادرة على منح القدر المناسب من التشجيع، ولكن من دون أن تعرقل استرسال قصة الأم.

"تركنا البنات في المنزل، ولكن تلك"، أشارت الأم مرة أخرى إلى الابنة التي حدقت بعينيها نحو حبيبها، "تلك كان شعرها يتساقط، فأخذناها معنا كي نعرضها على اختصاصي. فاتضح أنه بعض التوتر فقط".

كان الحبيب يعرف أن يولاندا لا تحب أن يعرف بتلك الهنّات في جسدها. لم تكن تحب حتى أن تنزع شعر حاجبيها الزائد في حضوره. روب حمام فورًا بعد استحمامها. الأنوار مطفأة عندما يمارسان الحب. في أوقات أخرى كانت تستفيض في الكلام عن الإلهة الأم وقدسية الجسد والطاقة الجنسية كمتعة أزلية. أحيانًا كان يتذمر من أنه عالق بين

t.me/qurssan

التحررية النسوية والآنسة الكاثوليكية. "تبدو مثل حبيبي السابق" كانت تتهمه. "بعد ظهيرة أحد الأيام ركبنا في باص مزدحم" هزت الأم رأسها متذكرة كم كان الباص مزدحمًا "لا يمكن أن أحكي لك كم كان مزدحمًا. كنا محشورين مثل السردين في علبة".

"حقًا"؟

"أنت لا تصدقني" اتهمته الأم. هز الحبيب رأسه ليظهر أنه مقتنع. "ولكن دعني أقُل لك إن الباص كانَ مزدحمًا، حتى إني ولولو ارتبكنا تمامًا. كنت واثقة أنها بحوزة لولو، ولولو كان متأكدًا أنها معي. على كل حال كي أختصر الحكاية، نزلنا في محطتنا ونظرنا إلى بعضنا البعض. "أين يو"؟! سألنا، في الوقت نفسه كان الباص يهدر مبتعدًا عنا.

"سأقول لك إننا انطلقنا نركض مثل زوج من المجانين! كانت ساعة الذروة والكل كانوا يستديرون لينظروا إلينا كأننا نهرب من الشرطة أو شيء من هذا القبيل". كان صوت الأم يتهدج وهي تتذكر الركض. انتظر الحبيب حتى تلحق بالباص في ذاكرتها.

"الصوت جيد"؟ كان فني الميكروفون يسأل دون اقتناع.

"بعد ناصيتين تقريبًا أشرنا للسائق ليتوقف، صعدنا إلى الباص. ولن تصدق ماذا وجدنا"؟

كان الحبيب أكثر حكمة من أن يخمن.

"وجدنا هذه محاطة بجمع من الناس كأنها المسيح حوله الحواريين".

t.me/qurssan

"حقًا"؟ ابتسم الحبيب متأملاً الابنة بإعجاب عن بعد. كانت يولاندا من أكثر المدرسين شعبية في الكلية التي كان يرأس قسم الأدب المقارن بها.

"لم تكن قد أدركت حتى أننا ذهبنا. كان لديها دائرة من الناس حولها يستمعون إليها وهي تتلو الشعر! في الحقيقة كانت قصيدة علمتها إياها. ربما تكون قد سمعت بها. إنها للرجل الذي كتب قصيدة عن الطيور السود".

"ستيفنسن"؟ خمن الحبيب.

مالت الأم برأسها "لست متأكدة. على كل حال" تابعت "تخيل! ثلاث سنوات وتجتذب جمهورًا. بالطبع، صارت شاعرة".

"هل تقصدين پو؟ إدجار ألان پو"؟

"نعم هذا هو! هذا هو"! صاحت الأم. "كانت القصيدة عن أميرة تعيش بجوار البحر أو شيء مثل ذلك. دعنا نرَ" وبدأت في الإلقاء.

منذ سنوات عديدة، كذا... كذا..
في... كذا بجوار البحر..
عاشت أميرة قد تتذكرها..
باسم أنابيل لي

نظرت الأم إلى الأعلى وأدركت أن الجمهور الصامت كان يحدق فيها. احمرت وجنتاها. ضحك الحبيب ضحكة مكتومة وشد على ذراعها. على المنصة كان قد تم تقديم الشاعرة، وكانوا في انتظار أن

t.me/qurssan

توقف المرأة ذات الشعر الأبيض الجالسة في الصف الأول عن الكلام. "إلى كلايف" قالت يولاندا وهي تقدم قصيدتها الأولى، "سيستينا غرفة النوم". ابتسم كلايف للأم بخجل وهي ابتسمت نحو ابنتها بفخر.

لم تعد الأم تحكي حكاية مفضلة عن ساندرا. تقول إنها تود أن تنسى الماضي، ولكن في الحقيقة ما تود أن تنساه هو جزء صغير من الماضي القريب. ولكن الأم تعرف أن الناس يسمعون الجمل المطلقة أكثر فتقولها بصوت مرهق، "أريد أن أنسى الماضي" آخر قصة قالتها الأم عن ثاني بناتها لم تكن احتفالاً، ولكنها تفسير للدكتور تاندلمان رئيس قسم الطب النفسي في ماونت هوب. شرحت الأم لماذا ستُودِع هي وزوجها ابنتهما في مستشفى للأمراض العقلية.

بادرت الأم: "بدأ الأمر بتلك الحمية المجنونة". طوت وأعادت طي منديلها الورقي إلى مربعات متزايدة في الصغر. نظر إليها دكتور تاندلمان ودوّن ملاحظات. جلس الأب بجوار الشباك في هدوء وتابع حركة البستاني، الذي كان يجز صفوفًا من العشب الذي دكن لونه بالتتابع عبر الحديقة.

انتزعت الأم قطعًا صغيرة من منديلها وهي تقول: "هل تستطيع أن تتصور أن تجوّع نفسها حتى الموت. لا عجب في أنها جنت".

"لقد أصيبت بانهيار عصبي"، نظر دكتور تاندلمان إلى أبيها. "ابنتك ليست مجنونة إكلينيكيًا".

تجهمت الأم: "ماذا يعني هذا؟ مجنونة إكلينيكيًا. أنا لا أفهم كل هذه المصطلحات السيكولوجية".

t.me/qurssan

"ذلك يعني"، بدأ دكتور تاندلمان كلامه ناظرًا إلى ملفه ليتأكد من الاسم: "يعني أن ساندرا ليست عصابية أو مصابة بالسكيزوفرينيا، ولكن أصابها انهيار عصبي بسيط".

"انهيار عصبي بسيط"؟! همهم الأب لنفسه. توقف البستاني في منتصف أحد صفوف الحشائش، بينما لا تزال ماكينة جز العشب تزعق. بصق وهز كتفه به فمه واستمر في التقدم عبر الحديقة. تقافزت قطع من العشب إلى شوال أبيض ينتفخ خلف المحرك. شعر الأب بأن عليه أن يقول شيئًا لطيفًا، "لديك مكان جيد، الملاعب جميلة".

"آه يا لولو"، قالت الأم بحزن وكورت ما تبقى من منديلها في قبضتها.

انتظر دكتور تاندلمان للحظة كي يرد الزوج على زوجته إن اراد. ثم سأل الأم: "تقولين إن ذلك بدأ مع حمية قامت بها"؟

"بدأ مع تلك الحمية المجنونة"، قالت الأم مرة أخرى، كما لو كانت قد وجدت الموضع الذي توقفت عنده عن قراءة كتاب ما، "ساندي كانت تريد أن تبدو مثل هؤلاء العارضات العجفاوات. كانت فاتنة، تلك الابنة، أظن أن الأمر عبث برأسها. لدينا أربع بنات كما تعرف".

كتب دكتور تاندلمان "أربع بنات"، مع أن الأب كان قد قال له ذلك عندما سأله. "لا أبناء"! وبصوت عالٍ قال بنبرة غير مكترثة "أربع بنات". ترددت الأم ثم رمقت زوجها كما لو كانت غير متأكدة إن كان

t.me/qurssan

يمكنها كشف ذلك لغريب: "كان لدينا صعوبات معهن جميعًا"، ادارت عينيها في محجريهما لتشير لنوع الصعوبات التي تعنيها.

"هل تعنين أن بنات أخريات عانين من انهيار عصبي أيضًا"!

"ما عانين منه هو رجال سيئون"! زجرت الأم الطبيب كما لو كان احد أزواج بناتها السابقين. "عمومًا ذلك منطقي. كسر قلب، كسر قلب. ولكن هذا مختلف. هذا جنون". رفع الطبيب يده في اعتراض ولكن الأم تجاهلت الإشارة واستمرت في حكايتها.

"الأخريات لسن قبيحات. لا تسِئ فهمي. ولكن ساندي. ساندي لها ملامح دقيقة وعيون زرقاء وبشرة كما الخوخ والآيس كريم، لديها كل شيء"! مدت الأم يديها في جميع الاتجاهات كي تظهر مدى جمال شحوب وزرقة عيني الفتاة. وقعت أجزاء من منديلها في الأرض فالتقطت الفتات من السجادة. "هل تعلم أن جدي الأكبر تزوج فتاة سويدية؟ فالعائلة بها دماء شقراء وساندي حصلت عليها كلها. ولكن تصور روح التناقض، هي كانت تريد أن تكون سمراء مثل أخواتها".

قال دكتور تاندلمان: "هذا مفهوم".

"إنه جنون. هذه حقيقته". قالت الأم غاضبة: "على كل حال لقد سيطرت هذه الحمية عليها. عندما تزوجت أختها لم تذق ساندي كعكة العرس. لم تتذوقها حتى"!

"هل كن ينسجمن معًا"؟ رفع دكتور تاندلمان بصره. يده كان لها حياة مستقلة عنه فاستمرت في الكتابة.

t.me/qurssan

"من"؟! رمشت الأم معترضة. لقد سأل الرجل أسئلة زائدة عن اللزوم.

"الأخوات"، قال دكتور تاندلمان: "هل كنّ قريبات من بعضهن البعض؟ هل كان هناك الكثير من التنافس بينهن"؟

"الأخوات"؟ عبست الأم بسبب كل هذا الحديث المجنون الخاص بعلم النفس. "إنهن أخوات"! قالت بغرض الشرح.

"كن يتشاجرن أحيانًا" أضاف الأب. لم تفُتْه أي كلمة قالها الطبيب وزوجته مع أنه كان ينظر خارج النافذة.

أسرعت الأم بالقول: "كن يتشاجرن أحيانًا"، كانت تريد أن تصل إلى نهاية القصة. "فاستمرت ساندي في فقدان الوزن. في البداية كان شكلها جميلاً. كانت قد سمحت لنفسها بأن تصبح ممتلئة بعض الشيء، ومع عظامها الرقيقة لا تحتمل ساندي وزنًا إضافيًّا. لذا فلا بأس بخسارة بعض الأرطال. ثم رحلت إلى برنامج للدراسات العليا فلم نرَها لفترة. كلما كنا نتحدث إليها عبر الهاتف كان صوتها يبدو أبعد وأبعد. ولم يكن ذلك لأنها مكالمة من مدينة أخرى. لا أستطيع أن أشرح الأمر"، قالت الأم: "الأم تعرف ببساطة".

"ففي أحد الأيام تلقينا تلك المكالمة. العميدة. قالت إنها لا تريد أن تقلقنا ولكن هل يمكننا أن نأتي فورًا. ابنتنا في المستشفى، كانت أكثر ضعفًا من أن تفعل أي شيء، كل ما تفعله هو القراءة".

t.me/qurssan

كان الأب يحسب الوقت الذي تستغرقه رحلة البستاني عبر العشب الممتد. عندما لا يتوقف الرجل كي يبصق أو يمسح جبينه كان كل صف يستغرق منه دقيقتين.

حاولت الأم أن تفرد المنديل الورقي في حجرها، ولكنه كان باليًا لدرجة أنه لا يمكن فرده. "ركبنا الطائرة التالية وعندما وصلنا لم أتعرف على ابنتي"، أشهرت الأم إصبعها البنصر: "ساندي كانت مثل خلة أسنان، وفوق هذا لم تكن تفعل شيئًا سوى أن تقرأ.. تقرأ.. تقرأ".

عند النافذة كانت رؤية الأب للحقل مشوشة. نظرت الأم إلى زوجها وتساءلت عما يفكر فيه. "كان لديها قوائم وقوائم من الكتب التي ستقرؤها. وجدناها في مذكراتها. بعد أن تنهي واحدًا منها كانت تشطبه من القائمة. أخيرًا قالت لنا لماذا لم تكن تستطيع التوقف عن القراءة. لم يبقَ لديها الكثير من الوقت. كان عليها أن تقرأ جميع الأعمال العظيمة التي كتبها الإنسان لأنها قريبًا...". استجمعت الأم الشجاعة لتقول ذلك. "قريبًا لن تظل إنسانًا".

في الصمت التالي سمعت الأم أزيز آلة جز العشب البعيدة.

"قالت لنا إنها ستُخرج من الجنس البشري. إنها تتحول إلى قرد"! تهدج صوت الأم: "قرد، طفلتي"!

"أعضاؤها الداخلية كانت بالفعل قد أصبحت خاصة بقرد، وبقي مخها فقط، وهي تشعر به يغيب".

توقف دكتور تاندلمان عن الكتابة. وزن قلمه في يده: "ما أفهمه هو أنكما أدخلتماها هنا بسبب فقدان الوزن. هذه أخبار جديدة بالنسبة لي".

t.me/qurssan

"انهيار عصبي بسيط"! همهم الأب بهدوء كي لا يسمعه دكتور تاندلمان.

سيطرت الأم على صوتها مرة أخرى. "إذا قرأت جميع الكتب العظيمة فربما تستطيع أن تتذكر شيئًا مهمًّا من وقت أن كانت إنسانة. لذا كانت تقرأ وتقرأ. ولكنها كانت خائفة أن ترحل قبل أن تصل إلى بعض من المفكرين الكبار". "فرويد" قال الدكتور وهو يدون الأسماء في كراسته. "داروين، نيتشه، إريكسون، دانتي". تأمل الأب: "هوميروس، ثرفانتس، كالديرون دي لا باركا".

"قلت لها أن تتوقف عن القراءة وتبدأ في الأكل. قلت لها إن هذه الكتب تدفعها إلى الجنون. صنعت لها كل شيء تحبه، أرزًا وفاصوليا، لازانيا، دجاج ألا كينج. صنعت لها سمك النفار المفضل لديها مع صلصة الطماطم. قالت إنها لا ترغب في أكل الحيوانات. قالت إنها مع الوقت ستتحول إلى هذه الدجاجة. ستتحول إلى سمكة النفار تلك. لقد وصل التطور إلى قمته ويبدأ في التراجع الآن. شيء من هذا القبيل"! لوحت الأم للفكرة نفسها أن تبتعد: "دعني أقُل لك، كان كلامًا مجنونًا".

"في أحد الأيام دخلت إلى غرفتها لأوقظها ووجدتها مستلقية في السرير تنظر إلى يديها"، رفعت الأم يديها وأعادت تمثيل المشهد. "أنادي اسمها. ساندي! وهي مستمرة في تقليب يديها في هذا الاتجاه وذاك وتحدق فيهما. صرخت بها أن ترد عليّ وهي حتى لا تنظر إليّ. لا شيء. وهي تطلق تلك الأصوات الفظيعة كأنها حديقة حيوانات"! طقطقت الأم بلسانها وأنّت لتريَ الطبيب ما بدت عليه أصوات الحيوانات.

فجأة انحنى الأب إلى الأمام. كانت عيناه قد التقطتا شيئًا مهمًّا.

t.me/qurssan

"ترفع ساندي حبيبتي يديها إليّ"، تستمر الأم. أدارت يديها للدكتور تاندلمان ثم إلى زوجها الذي كان وجهه ملتصقا بالنافذة: "وتصرخ: (يدا قرد، يدا قرد)".

نهض الأب من كرسيه فجأة. في الخارج كانت فتاة شقراء نحيلة وامرأة ممتلئة ترتديان الأبيض وتمشيان عبر الحديقة. كانت المرأة تشير إلى الزهور وأوراق الشجيرات كي تحث الفتاة على أن تتقدم نحو المبنى. في احد أطراف الحديقة مسح البستاني جبهته وأدار آلة جز العشب وبدأ في صف جديد. امتدت خلفه موجة داكنة. نظرت تلك الفتاة إلى الأعلى بجنون باحثة عن الطائرة التي تسمع صوتها. تابعت الممرضة حركاتها الذاهلة بقلق. أخيرًا رأت الفتاة رجلاً يتجه نحوها مع حيوان يزأر مربوطًا بمقود وبطنه الشبيهة بالكيس متورمة، كما لو كانت قد ابتلعت العشب الموجود داخلها. صرخت الفتاة وانطلقت تركض صارخة نحو المبنى؛ حيث كان أبوها الذي تستطيع أن تراه، واقفًا عند النافذة يلوح.

في المستشفى تميل أمها نحو الزجاج بيد واحدة وتطرقه باليد الأخرى. وتصطنع تعبيرات مضحكة بوجهها. أُدير المهد باتجاهها ولكن الرضيعة الضئيلة المكرمشة لا تنظر نحو جدتها. عوضًا عن ذلك تلتف عيون الرضيعة في كل مكان كما لو كانت لا تدري بعد كيف تستخدمهما. تضم شفتيها وترخيهما، تضم وترخي. الجدة متأكدة أن الرضيعة تبتسم لها. "انظر إلى ذلك"، تقول الجدة للشاب الذي يقف بجوارها وينظر إلى الرضيع في المهد المجاور.

ينظر الشاب إلى رضيع الغريبة.
تتباهى جدتها: "إنها تبتسم منذ الآن".

t.me/qurssan

يهز الشاب رأسه ويبتسم.
"رضيعتك نائمة". تقول الجدة بصوت به نبرة انتقاد.
يشرح الشاب: "الرضع ينامون كثيرًا".
"البعض يفعلون ذلك". تقول الجدة: "كان لدي أربع بنات ولم ينمن قط".
"أربع بنات؟ لا أولاد"؟
تهز الأم رأسها: "أتصور أنه في دمائنا. هذه بنت أيضًا. ألست كذلك يا تشيكيتا"؟
يبتسم الشاب نحو ابنته: "مولودتي أيضًا بنت".
تهنئه الجدة: "الثيران القوية تنجب البقرات كما تعرف".
"ها"؟

"إنه مثَلٌ كان يقوله لي زوجي بعد إنجابي لواحدة من البنات. الثيران الجيدة تنجب أبقارًا. أتذكر ليلة ميلاد فيفي". تنظر الجدة إلى حفيدتها وتشرح لها: "والدتك".

يتفحص الشاب ابنته الرضيعة وهو يستمع إلى قصة السيدة.

"لقد أتعبتني تلك الفتاة في ولادتها أكثر من كلّ الأخريات. والمضحك أنها كانت الأخيرة والأصغر من بينهن. أربع وعشرون ساعة من المخاض". رفعت الجدة حاجبيها للتأكيد.

أطلق الشاب صفيرًا: "أربع وعشرون ساعة مخاض طويل لابنة رابعة صغيرة. هل حدثت أي مضاعفات"؟

t.me/qurssan

تفحصت الأم الشاب للحظة. تساءلت هل هو طبيب كي يعرف الكثير عن الولادة!

"أربع وعشرون ساعة..." يهز الشاب رأسه متأملاً: "مخاضنا استمر ثلاث ساعات ونصفًا".

تحدق الجدة نحو الشاب. مخاضنا! الرجال! يريدون الآن أن يدعوا إنجابهم للأطفال أيضًا.

"ولكن سأقول لك إن فيفي؛ لم نسئ تسميتها! صوفيا هو اسمها الحقيقي. ابنتي الشاعرة تقول إن صوفيا كانت الإلهة المسؤولة عن الحكمة في الزمن البعيد. نحن الكاثوليك لا نؤمن بهذا الشيء. ومع ذلك فهي الذكية بالفعل بين أخواتها. وأنا لا أعني فيما يخص الكتب! أعني ذكية"! تطرق الجدة جانب رأسها ثم تعيد الإشارة على الزجاج. "ذكية، ذكية"، تقول الجدة للرضيعة. "هذه الفيفي، تبدو دائمًا وكأنها في طريقها إلى المشاكل، ولكن سرعان ما يظهر أنّها محظوظة".

"في تلك الليلة ولدت أخيرًا. دخل أبوها وعرفت أنه كان محبطًا قليلاً خاصة بعد مثل ذلك الانتظار الطويل. وقلت له: "الأمر ليس بيدي يا لولو، هن يولدن بنات"، وكل ما قاله هو إن كل شيء على ما يرام، الثيران القوية تنجب بقرات. كان ينسب الفضل إليه. كان يكاد يسقط من الإرهاق فأرسلته إلى المنزل والسرير".

يتثاءب الشاب ويضحك.

"كان ميتًا من التعب فلم يسمع اللصوص عندما دخلوا. سرقوا كل شيء. سرقوا حتى أحذيتي وملابسي..." تتذكر الجدة أنه من غير

t.me/qurssan

اللائق ذكر الملابس الداخلية فأضافت بخجل: "كل قطعة ملابس". تظاهر الشاب بالانزعاج. "ولكن هذا هو ما أعنيه بخصوص الحظ: لقد ألقوا القبض على اللص واستعدنا كل قشّة سرقها". تطرق الجدة الزجاج وتقرقر "تشيكيتا" إلى الحفيدة.

"محظوظة"! تقول للشاب: "فيفي هذه كانت دائمًا المحظوظة. انتظر حتى أحكي لك عن حظها مع..." تخفض الأم صوتها، "مع أوتو". ينظر الشاب إلى الخلف. أوتو؟ من يطلق على طفل مسكين اسم أوتو؟

"تصور"! تسترسل الجدة: "فيفي تترك الكلية، وتذهب في رحلة كنسية إلى بيرو، مع مشرفين بالطبع، لم نكن لنسمح لها أن تذهب إلا بهذه الطريقة. نحن لا نؤمن بهذه الحرية"! تعبس الجدة وهي تنظر نحو الحضّانة. عبر الزجاج وبين القضبان الرفيعة البيضاء لمهودها تنام نصف دزينة من الأطفال.

"على كل حال، قابلت رجلاً ألمانيًا يدعى أوتو في سوق في بيرو. لا يستطيع أن ينطق ولا كلمة بالإسبانية ويحاول شراء عباءة بونشو. تساوم البائع بدلاً منه، وتحصَّلَ على البونشو له بلا مقابل تقريبًا. وهكذا ببساطة يغرمان ببعضهما البعض، يتراسلان، وها هما الآن والدان! قل لي أليس هذا حظًّا جيدًا"؟

"هذا حظ جيد" يقول الشاب.

"وأنت ستكونين محظوظة أيضًا، أليس كذلك"؟ تطقطق الجدة بلسانها نحو الحفيدة ثم تسر إلى الشاب: "سيكون شكلها مثل الملاك، وردية وشقراء".

t.me/qurssan

"لا يمكن أبدًا أن تحددي وهم بعد صغار الى هذا الحد" يقول الأب وهو يبتسم لطفلته.

"انا استطيع" تدعي الجدة: "لقد كان لدي اربع منهن".

"مامي تلتقط رجالاً بديعين"! تضحك ساندي. تجلس متربعة على أرض غرفة المعيشة في منزل فيفي. تجلس الأم الجديدة في مقعد اوتو والطفلة نائمة على كتفها. كارلا مبعثرة على الأريكة وعند قدميها تحيك يولاندا بحماسة بطانية صغيرة بمربعات زهرية وزرقاء فاتحة وصفراء باهتة مع إطار أبيض. الوقت مبكر، وقد اجتمعت العائلة في منزل فيفي بمناسبة الكريسماس، والذي يقع بعد ميلاد الطفلة بأسبوع. الأزواج والجدود لا يزالون نائمين في غرف النوم. تسترخي الفتيات الأربع في قمصان نومهن ويحكين لبعضهن البعض القصة الحقيقية حول ما يجري في حياتهن. تشرح ساندي أنها كانت مع الأم في غرفة الانتظار ثم اختفت الأم "وجدتها عند نافذة الحضّانة تتحدّث مع شاب شهيّ".

"هذا مهين"! تقول يولاندا: "قولي إنّه رجل وحسب".

"هل يمكنك أن تغربي عن وجهي"؟ توشك ساندي على البكاء. هي تبكي بسهولة منذ أن سُمح لها بالخروج من موانت هوب قبل شهر، ودائمًا ما تحمل مناديل مع مضاد الاكتئاب الخاص بها في محفظتها. تنظر حول الغرفة باحثة عن حقيبتها "الآنسة الشاعرة لديها حساسية لعينة تجاه اللغة". "لم أعد أكتب الشعر" تقول يولاندا بصوت مجروح. "اللعنة يا بنات"! تقول كارلا كمحكّمة في هذه الواقعة "إننا في الكريسماس".

t.me/qurssan

تستدير الأم الجديدة إلى الأخت الثانية وتمر بأصابعها في شعرها. هذه هي أول مرة تجتمع فيها العائلة معًا منذ عام، وهي تريد أن ينسجم الجميع. تغير الموضوع "كان لطيفًا منك أن تأتي لتزوريني في المستشفى". وتضيف: "أعرف كم تحبين المستشفيات".

تنظر ساندي إلى السجادة وتلتقط أشياء منها: "فقط أريد أن أنسى الماضي كما تعرفين".

تقول كارلا: "هذا مفهوم".

تضع يولاندا بطانية الطفلة جانبًا. على وجهها نفس العبوس الذي كان على وجه أختها منذ لحظة، وهي علامة عائلية على اقتراب الدموع. تقول لساندي: "آسفة. كان أسوأ أسبوع".

تلمس ساندي يدها. تنظر إلى أخواتها الأخريات. يعرف الجميع أن كلايف قد عاد إلى زوجته مرة أخرى: "إنه قطعة من الخراء. كم مرة فعل ذلك حتى الآن يا يو"؟

"يولاندا"، تصحح لها كارلا: "هي تريد أن تدعى يولاندا الآن".

"ماذا تعنين بتريد أن تدعى يولاندا الآن؟ ألا تعلمين أنه اسمي"؟

"لَمَ أنت غاضبة إلى هذا الحد"؟ كارلا محترفة في الحفاظ على هدوئها.

تدير يولاندا عيونها "وفِّروا عليَّ النصائح المجانية. شكرًا".

"المتاعب تختمر مرة أخرى"، فيفي تغير الموضوع. تتحسس البطانية التي تتطور "إنها جميلة حقًا. والقصيدة التي كتبتِها للطفلة أبكتني".

t.me/qurssan

تقول كارلا: "إذًا أنت تكتبين! أعرف... اعرف، لا تريدين سماع شيء عن ذلك". تقدم كارلا مجاملاتها كقرابين سلام: "أنت ماهرة جدًا يا يولاندا، حقًّا. لقد احتفظت بجميع قصائدك. كلما قرأت شيئًا في مجلة افكر، يا إلهي! يو أفضل من ذلك بكثير! أعطِ نفسك حقها. أنت قاسية على نفسك جدًّا".

تصمتُ يولاندا تمامًا. إنها تعمل على فكرة بخصوص أختها الكبرى المتحكمة: كارلا لديها ميل إلى تغليف مجاملاتها بدعوات لتحسين الذات على غرار "أعطِ نفسك حقها"، "صدقي نفسك"، "كوني حنونة على نفسك". بشكل ما يجعل ذلك مديحها يبدو وكأنه نقد أمها "البنّاء" القديم.

تستدير كارلا لتواجه ساندي. "مامي تقول إنك ترين شخصًا ما". تزن الأخت الكبرى كلماتها بحرص: "هل هذا حقيقي"؟

"ماذا عنه"؟ ترفع ساندي بصرها مدافعة، ثم عندما تدرك أن اختها تعني رجلاً وليس معالجًا، تضيف "إنه رجل لطيف، لا أدري". تهز كتفيها: "كان هناك في الوقت نفسه حين كنت أنا هناك".

ولماذا كان هو هناك؟ سؤال يعلق في الهواء ولا تجرؤ أي من أخواتها على طرحه.

تستحثها صوفيا: "فلتحكِ لنا عن ذلك الرجل الظريف في غرفة المولودين". كلما بدا أن أخواتها على شفا كلام محمَّل بالمخاطر تغير الأم الموضوع إلى موضوعها المفضل، ابنتها الجديدة. كل تفصيلة صغيرة من وجود الطفلة ـماذا تأكل، ماذا تتبرزـ تبدو وكأنها طفرة في التطور.

t.me/qurssan

قطعًا لا يبتسم كل المواليد لأمهاتهم؟ "قابلتِ هذا الرجل في غرفة الرضع"؟

"أنا"؟ تضحك ساندي "تقصدين مامي. لقد التقطت هذا الرجل ودعته على الغداء في كافيتريا المستشفى".

"مامي عفريتة جدًّا" تقول يولاندا. تدرك أنها أخطأت في الحياكة وتبدأ في فك صف أصفر مائل. تربت فيفي على ظهر طفلتها وتقول: "وتشكو منا"!

"تناولنا الغداء معًا كلّنا" واصلت ساندي، "وتطوعت مامي بقصة كيف جمع الربّ بينك وبين أوتو من أطراف متناقضة من الأرض في بيرو".

"الربّ"؟ تجعد كارلا وجهها.

"بيرو"؟ يعكس وجه فيفي كشرة وجه أختها "لم أذهب إلى بيرو قط. لقد التقينا في كولومبيا".

"في نسخة مامي من القصة التقيتما في بيرو"، تقول ساندي، "ووقعتما في الحب من أول نظرة".

"ومارستما الحب في أول ليلة" تشاكسها كارلا. تضحك البنات الأربع "غير أن هذا الجزء ليس في نسخة مامي".

تقول ساندي: "لقد سمعت عددًا كبيرًا من الصيغ من هذه القصة، لم أعد أعرف أيًا منها القصة الحقيقية".

t.me/qurssan

"ولا أنا" تقول فيفي وهي تضحك. "يقول أوتو إننا في الأغلب التقينا في محطة الباصات في نيو جيرسي، ولكننا سمعنا كل تلك القصص المثيرة حول كيف التقينا في البرازيل أو كولومبيا أو بيرو فبدأنا في تصديقها".

"فهل كانت الليلة الأولى"؟ تسأل يولاندا، وإبرتها ثابتة في الهواء.

"سمعت أنها الليلة الأولى" تقول كارلا.

تضيق ساندي عينيها: "سمعت أنها كانت بعد أسبوع تقريبًا من وقت لقائكما".

تتجشأ الرضيعة. تنظر البنات الأربع إلى بعضهن البعض ويضحكن "في الحقيقة..."، تحسب فيفي برفع أصابعها واحدة تلو الأخرى عن ظهر الرضيعة ثم تربت بها. "كانت الليلة الرابعة. ولكني عرفت منذ اللحظة التي رأيته فيها".

"إنك تحبينه"؟ سألت يولاندا. هزت فيفي رأسها. منذ غادر كلايف أدمنت يولاندا قصص الحب ذات النهايات السعيدة، وكأنها ارتكبت خطأ ما في الحياكة عندما أحبت للمرة الأولى، وإن استطاعت أن تحدده ربما تستطيع أن تحل غرز، ستفك جون وبراد وستيفن ورودي وتبدأ من جديد.

في لحظة الصمت قبل أن يلتقط شخص آخر طرف الحوار يستمعن جميعًا إلى تنفس الرضيعة الرقيق. "على كل حال، تقول مامي لهذا الشخص عن مراسلاتك الطويلة" تساعد ساندي يولاندا في لف الخيط المفكوك في كرة وتتوقف كل فترة للاستمتاع بقصة أمها.

t.me/qurssan

"افترقا لشهور بعد أن التقيا في بيرو" تدير ساندي عينيها مثل امها فهي مقلدة بارعة. تضحك أخواتها الثلاث. "كان أوتو يقوم بأبحاثه في المانيا ولكنه كان يكتب لها كل يوم".

"كل يوم"! تضحك فيفي: "ليته كان كلّ يوم. أحيانًا كنت أنتظر لأسابيع بين خطاباته".

"ولكن"! تقول يولاندا بصوتها المنذر كما في ميلودراما إذاعية: "بابي وجد الخطابات"!

تقول ساندي: "لم تذكر مامي الخطابات". كانت القصة قصيرة ولطيفة: "كتب لها كل يوم. ثم ذهبت لتزوره في الكريسماس الماضي، ثم تقدم لها وتزوجا في هذا الربيع، وها هما الآن والدان".

"واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة". تقول كارلا بادئة في عد تنازلي.

ابتسمت فيفي ابتسامة عريضة وقالت: "توقفي! لقد ولدت الطفلة بعد تسعة شهور وعشرة أيام من الزفاف".

"نشكر الله على الأيام العشرة". تقول كارلا.

"أحب نسخة مامي من الحكاية" تضحك فيفي: "إذًا هي لم تحكِ موضوع الخطابات"؟

هزت ساندي رأسها: "ربما تكون قد نسيت. تعرفين كيف تردد دائمًا أنها تريد نسيان الماضي".

تعارضها كارلا: "مامي تتذكر كل شيء".

t.me/qurssan

"حسنًا لم يكن لبابي أي حق في ان يفتش في خطاباتي الشخصية". اصبح صوت فيفي حادًا. تململت الطفلة على كتفها. "إنه يدَّعي أنه كان يبحث عن قصافة أظافر أو شيء ما في أدراجي، اليس كذلك"؟

تقلد يولاندا أباهم وهو يفتح ظرفًا. تحدق عيناها في رعب هزلي. تقبض على رقبتها وتقلد لكنة كونت دراكيولا كي تجعل اللحظة أكثر درامية. هي ليست محاكية جيدة: "ما الذي يعنيه هذا الرجل؟ هل أتت دورتك الشهرية بعد"؟

تردد ساندي كما الكورس: "وما دخل أوتو بإن كانت دورتك الشهرية قد أتت أم لا"؟

تبدأ الطفلة في البكاء "اهدئي يا حبيبتي، إنها مجرد قصة" تهدهدها فيفي.

"نحن نتبرأ منك"! تقلد ساندي أباهن "لقد لطختِ اسم العائلة. اخرجي من هذا المنزل"!

"اغربي عن وجهنا"! تشير يولاندا إلى الباب. تتفادى ساندي إبر الحياكة المتطايرة، تتدحرج كرة من الخيط الأبيض على الأرض. تميل الأختان محاولتين أن تحجما من مرحهما الصاخب.

"أنتما تندمجان حقًّا في هذا الأمر" تقف فيفي لتتمشى بطفلتها الباكية حتى تنام "ليس هناك أفضل من قصة لتخفيف حدة الأمور" وتضيف ببرود " الأمور ليست أفضل بيننا على أي حال كما تعرفن".

t.me/qurssan

ترفع اخواتها الثلاث حواجبهن في مواجهة بعضهن، لم ينطق ابوهن بكلمة منذ وصل قبل يومين. ما زال لم يسامح فيفي على أنها "ذهبت خلف النخيل"، عندما كن أصغر في العمر اعتادت على المزاح بأن احتمال ان يظللن عذراوات أكبر من احتمال وجود نخلة في هذا الجزء من العالم.

"إنه صعب المراس، أعرف" كما قالت المعالجة النفسية في العائلة. تحب كارلا أن تكون هي من يفهم الأمور "ولكن حقًّا أعط لنفسك قدرها. لقد استملتِهم يا فيفي. مامي راضية عنك تمامًا مع وجود هذه الطفلة، وبابي ستتم استمالته مع الوقت، سترين. ألم يحضر في النهاية"؟

"تقصدين أن مامي أجبرته على الحضور"؟ تنظر فيفي بمحبة إلى طفلتها وتستعيد مزاجها الجيد. "حسنًا فالطفلة جميلة وبخير، وهذا ما يهم".

تفكر يولاندا في كلمات "جميلة" و"بخير". هذا هو ما أرادته مع كلايف. كل الأشياء جميلة وبخير بدلاً من عواطفهما المهلكة الاستحواذية التي كانت تتركها في كل مرة يهجرها فيها كلايف منهكة ومضطربة. تقول لأخواتها بصوت عالٍ: "لا أفهم لماذا يفعل ذلك".

تقول كارلا: "إنها أمور العالم القديم. وقد حصل على جرعة أثقل من مامي".

تنظر ساندي إلى يولاندا وتفهم من كانت تقصد، فتحاول أن تخفف من مزاج أختها المتعكر. "اسمعي، إن لم يكن ذاك الجذّاب على

t.me/qurssan

ذوقك فهناك الكثير من السمك في البحر. كنت أتمنى لو لم يكن ذلك الشاب اللطيف متزوجًا".

تسأل كارلا: "أي شاب لطيف"؟

"أي شاب"؟ تسأل الأم. إنها تقف عند مدخل غرفة الجلوس تزرر روبًا منزليًا متعدد الألوان منقوشًا بالزهور. إنها إحدى عاداتها منذ طفولتهم، أن تشتري لنفسها ملابس في الوان قوس قزح كي لا تتهمها إحدى البنات بأنها تنحاز للون إحداهن بالذات.

تمازحها ساندي: "الشاب الذي التقطتِه من المستشفى".

"ما الذي تعنينه بالتقطته! كان شابًا لطيفًا، وقد حدث أن ولدت له ابنة في توقيت ميلاد صغيرتي الجميلة نفسه". تمد الأم يدها: "تعالي هنا يا كوكا" تزقزق آخذة الطفلة من يدي فيفي. وتقرقر باتجاه البطانية.

تهز ساندي رأسها: "يا إلهي! تصدرون ضجيجًا كحديقة حيوانات".

"هذبي كلامك"، تنهرها الأم بشكل تلقائي، ثم تعيد نفس الكلمات لحفيدتها بنغمة موسيقية كأنها تصلح للتدليل.

يتقاطر الرجال ببطء للإفطار. أولاً الأب الذي يهز رأسه بتجهم لكل من يحييه. يتبعه أوتو الذي يتمنى للجميع (كريسماس) سعيدًا. يبدو أوتو بحواجبه البيضاء الذهبية وشواربه وذقنه ووجهه المكتنز واللطيف المائل للاحمرار كبابا نويل شاب. ثم يأتي المحلل النفسي أخيرًا ويطلق صفير إعجاب، "ما كلّ هذه النساء"!

تتمشى الأم بحفيدتها جيئة وذهابًا بطول الغرفة.

t.me/qurssan

يبتسم أوتو ابتسامة عريضة "انظر إليهن. إنها رؤيا! هذا ما رآه ملوك المجوس الثلاثة".

"اربع بنات" يغمغم الأب.

يصحح له المحلل النفسي "خمس" غامزًا نحو الأم.

"ست"، تصحح الأم مشيرة برأسها نحو الكومة الصغيرة التي تحملها وتقول للرضيعة: "نحن ستة الآن، قد كنت متأكدة من ذلك! لقد رأيت حلمًا غريبًا قبل ولادتك بأسبوع. كنا جميعًا نعيش في مزرعة وهناك ثور...".

الغرفة ساكتة من النعاس. الجميع يستمع إلى الأم.

t.me/qurssan

چـو

يولاندا

يولاندا الملقبة بـ "يو" في الإسبانية، والمفهومة خطأ على أنها چو بالإنجليزية، والمضاعفة لتنطق "يويو" مثل اللعبة -أو چوي عندما تجبر على الاختيار من صف من سلاسل المفاتيح المشخصنة- تقف في نافذة بالدور الثالث تشاهد رجلاً يمشي عبر الحديقة حاملاً مضرب تنس. يلمس الشجيرات التي تشكل سورًا بطرف مضربه ويجعل سوسنة أو اثنتين تهتزان.

"لا تفعل ذلك"! تهمهم يو لنفسها في النافذة محددة محيط شعرها بسبابة متأملة. إنه فخرها السري: شعرها ينمو إلى حد معين على جبهتها ويتقوس إلى الأعلى محيطًا وجهها بشبه دائرة. قلب كامل. "لا تزعج الزهور يا دكتور" تهز إصبعها نحو ظهره الذي يصل إلى حجم الإبهام.

يتوقف الرجل. يرمي كرة متخيلة في الهواء ويضربها نحو الأفق. يخطئ الأفق رد الضربة. يمشي نحوه ونحو ملاعب التنس.

يرتدي شورتًا وقميصًا لونهما أبيض، زيًّا يجعله يبدو مثل ولد، ولد طيب، الابن الوحيد لزوجين قاسيين من كبار أصحاب الأعمال الملقبين بالحيتان. تفترض يولاندا أن كليهما من حيتان الأعمال. الحوت

t.me/qurssan

الأب في مجال الملابس الداخلية الفاخرة. تضيق حافة لباسها الداخلي برفق. أما الحوت الأم -تنظر يو حول الغرفة: شال، مرآة، صابون، مظلة- سيدة أعمال في مجال المظلات. تتدحرج غيمة داكنة بكسل نحو سمائها. قد أتى شبح كرة التنس كي يطارد الرجل. تبتسم يو متأملة في مفاتنها.

مسألة حوت المظلات لن تجدي. دورة أخرى حول الغرفة: آلة كاتبة، محفظة حمراء - هذا يبدو جيدًا. ولكن ليست حوتًا محافظًا حمراء. تهب نسمةٌ فتنفخ الستائر البيضاء على الجانبين، ذراعان شبحيتان تحتضنانها. حوت غرف.

يبدو العالم شديد العذوبة وكأنه خلق للتو. يسير الرجل الأول في الحديقة في طريقه إلى موعد للعب التنس. تقف يو عند نافذة بالطابق الثالث وتقبل أصابعها وترسل القبلة نحوه. "قبلة قبلة" تهسهس من نافذتها. تتمنى لو يقطع قميصه الأبيض ويشق صدره على الجانبين مثل سوبرمان فيفتح بابًا تخرج منه أول امرأة. حواء جميلة، بمنبت شعر على شكل قلب ولباس داخلي من القماش الشفاف الناعم.

"في البداية"، تبدأ يولاندا محاولة تحديد المنظور الذي ستتحدث منه. على مسافة أربعة أدوار للأسفل يجلس طبيبها على العشب وقد انكمش إلى حجم طفل. "في البداية يا دكتور أحببت چون". تبدأ في العودة بالذاكرة... امرأة عند شباك، امرأة ذات ماضٍ... ذات ذكرى ورغبة وقلب محطم. ستسمح لنفسها بالعودة بالذاكرة، فهي لا تستطيع أن تمنع ذلك في كل الأحوال.

t.me/qurssan

"في البداية كنا واقعين في الحب". تبتسم يو. "كانت تلك بداية جيدة. اتى الى بابي. فتحته. سألت عيناي: هل تريد، أنت من دون كل العالم، ان تدخل؟ اجاب: "شكرًا جزيلاً، هذا تحديدًا ما كان على طرف لساني"".

كان ذلك في بداية الزمن، وكان هناك نهر يجري خارج شباك يو بحده شجر السرو والصفصاف وسرخسيات ضخمة متعرقة وجذوع سميكة ونخل. تهرول كائنات خيالية ضخمة عبر القاع الموحل للنهر. في الليل، وبينما يستلقي العاشقان في السرير، ويوصلان النجوم في شكل حملان وعقارب وتوائم، يسمعان صوت نباح وعواء الوحوش السعيدة وهي تتزاوج.

"احبك". قال جون محتفلاً وقد خدعه النباح والعواء.

ولكن يولاندا كانت خائفة. فعندما يبدآن في التحدث لا يمكن التنبؤ بما سيؤول إليه الحديث.

"أحبك" كرر جون كي تحذو حذوه.

قبلت يولاندا عينيه آملة في أن يكتفي بهذا.

توسل: "هل تحبينني يا جو؟ هل"؟ كان يريد صدى الكلمات، لا شيء آخر سيرضيه.

جارته يو: "أنا أحبك أيضًا".

"سأحبك دائمًا" قال بفيض من المشاعر: "تزوجيني، تزوجيني".

t.me/qurssan

عوى وحش من النهر. عدا الحمل بعيدًا عن السماء فزعًا من الصوت الآدمي.

"واحد" طوى جون إبهام يولاندا باتجاهه. "اثنان" طوى السبابة. "ثلاثة". قبّل الظفر.

انتحب المذياع كما لو كان جائعًا: "كل ما تحتاجه هو الحب".

"أربعة" انضمت له وطوتِ إصبعها الرابعة. "خمسة" يصدحان معًا.

التقت يده بيدها، كفًّا لكف كما لو كانا يشتركان في صلاة.

"الحب" زمجر الراديو متضورًا.

"حب... حب".

"جون، جون أنت بحيرة"! داعبته يولاندا وهي تعتليه بجوار بحيرة مريت.

كان جون يستلقي على ظهره، وكان قد قال للتو إنك عندما تنظر إلى السماء تدرك أن لا شيء مما تفعله ذو أهمية.

"جون الحنون بجوار البركة يستمتع كثيرًا" تتلاعب يولاندا بالكلام وتتمرغ في تجويف كتفه.

يمر بيده على ظهرها "وأنت سنجاب صغير! هل تعرفين ذلك"؟

جلست يولاندا مستقيمة "السنجاب لا يصلح"، وشرحت "الفكرة هي أن تناسب القافية اسمي".

t.me/qurssan

"چو-لان-دا"!، قال بنبرة مراوغة. "ترى ما الكلمات التي لها نفس قافية نفسها. چو-لان-دا"؟

"استخدم چو إذًا... ابحث عن كلمات لها نفس القافية"، قالت له بصوت تعلمته من أمها عندما كانت تريد المزيد من متع الحياة.

"عزيزتي چو"، بدأ جون لكنه لم يستطع أن يجد القافية فتنحنح وتلعثم وقهقه ثم قال أخيرًا: "سنجابتي الحبيبة أنت أفضل عندي من كل الثمر على الشجر". ابتسم ابتسامة عريضة بسبب ذلك السجع العفوي.

جلست يو مرة أخرى. "ستحصل بالكاد على درجة النجاح". تدحرجت بعيدًا عنه على العشب. "أين تعلمت هذه العبارات مفرطة العاطفية"؟

وقف جون وقد شعر أنّه جُرِحَ. نفض بنطاله كأن أوراق العشب العالقة به هي قطع صغيرة من يو. "لا يستطيع كلّ الناس أن يكونوا بشاعريتك اللعينة"!

عضعضت ساقه بطولها في اعتذار لعوب.

شدّها جون من كتفيها وقال: "سنجابة". لقد سامحها.

ضيّقت عينيها. أي شيء غير سنجابة. تملّك منها الغضب حتى شعرت به في أكتافها. "هل يمكن أن أكون شيئًا آخر"؟

"بالطبع" مسح بيده على الأرض كأنه يمتلكها بأكملها: "ماذا تريدين أن تكوني"؟

t.me/qurssan

استدارت بعيدًا عنه ونظرت على الأفق من حولها: "أشجار، صخور، بحيرة، أعشاب، زهور، طيور، سماء...".

أتت يده من خلفها، تملكت كتفها.

"سماء" حاولت. ثم حولها التلفظ بها إلى الشيء المناسب: "سماء، أريد أن أكون سماء".

"هذا ليس مسموحًا"، أدارها لتواجهه. لاحظت لأول مرة أن عينيه كانتا بزرقة السماء نفسها. "أنت من أرسى القواعد. يجب أن تكون كلمة لها نفس قافية اسمك".

"أنا" أشارت إلى نفسها "مسجوعة مع سما"!

"ولكن ليس مع چو"! هز جون إصبعه باتجاهها. رقت عيناه بالرغبة. وضع فمه فوق فمها وفتح شفتيها.

"السماء تعني 'سيّلو' بالأسبانية ويوجد سجع بينها وبين 'يو" وقعت كلمات يو في الكهف المظلم الصامت لفم جون. سيلو سيلو، ارتد إليها صدى الكلمة. وكانت يو تركض كالمجنونة نحو أمان لغتها الأولى؛ حيث لا يستطيع جون الذي يفتخر بأنه يتحدث لغة واحدة فقط أن يمسك بها، حتى إن حاول.

***

"ما تحتاجين إليه هو طبيب مجانين"! قفزت كلمات جون من على لسانه كأنها تنتحر.

t.me/qurssan

قالت إنها إذا كان هذا ما تحتاج إليه فهو لا يحتاج إلى أن يطلق عليه طبيب مجانين.

قال "طبيب مجانين، طبيب مجانين، طبيب مجانين".

قالت إن اختلافهما ليس ذريعة كي يُشعرها بأنها مجنونة؛ لأنها متفردة. إن اقتضى الأمر فهو يماثلها في الجنون نفسه. "يا إلهي"! قالت لنفسها، لقد بدأت اتحدث مثله. إن اقتضى الأمر! ضحكت وهي ما زالت نصف واقعة في حبه. "حسنًا، حسنًا"، وافقته، "كلانا من المجانين. فلنذهب معا لطبيب مجانين" أجفلت، لقد تبنت لغته فقط لتقنعه.

دفع يدها المرفوعة بالسلام بعيدًا. كانت هي المجنونة. فلتتذكر هذا! لا يمكن أن يذهب هو إلى طبيب مجانين.

قبلته في استمالة صامتة، ولكنها أدركت أنه لم يقتنع.

"إنني أحبك. أليس هذا كافيًا؟ أحبك وهذا يضرني".

"هل رأيت! أنت المجنون"! قالت له بنبرة مثيرة.

كانت قد بدأت بالفعل تفقد ثقتها فيه.

لأن أقلامه دائمًا مبرية وثيابه مطوية قبل ممارسة الحب. لأنه يضع سكينه بين أسنان الشوكة بين لقيمات من الأطباق التي تطهوها له، والتي دائمًا ما تكون مختلفة قليلاً عن النكهة المفترضة لها – اللازانيا مثل البيض المقلي، البودينج مثل كريمة تزيين الحلوى. لأنه يتهمها بأنها تأكل راسها من كثرة التفكير فيما قاله الناس. لأنه يؤمن بالعالم الحقيقي أكثر من الكلمات، أكثر من إيمانه بها.

t.me/qurssan

ولكن هذه المرة لأنه يكتب قوائم بمميزات وعيوب اي شيء قبل فعله، وهي اكتشفت قائمة بمميزاتها وعيوبها كزوجة. رقم واحد في مميزاتها كان: ذكية. رقم واحد في عيوبها كان: ذكية لدرجة تضر بها. رقم اثنين في الميزات كان: مثيرة للاهتمام. رقم اثنين في العيوب كان مجنونة، وبجوارها علامة استفهام.

قابلته عند الباب باللائحة في يدها: "ما الذي يعنيه هذا"؟ "ما هذا يا فايوليت"؟ كان قد بدأ يطلق عليها فايوليت على اسم البنفسجة الإنجليزية المتوارية بعد أن بدأت تذهب إلى دكتور باين[٣]. قال جون في أول مرة ساخرًا في أول مرة سمع فيها اسم الطبيب وأجره. "إنّه ألم في الجيب حقًّا"! أصبح اسمه نكتةً فيما بينهما، ولكن في السر أطلقت عليه يو اسم باين دوك، التماسًا للحظّ.

"لماذا بحق الجحيم تضطر إلى أن تضع قائمة بمميزات وعيوب الزواج مني"؟ تبعته يو إلى غرفة نومهما، حيث بدأ في خلع ملابسه.

"أرجوك يا فايوليت".

"كفاك من اسم فايوليت! أكره أن تفعل ذلك".

---

٣ يتشابه اسم الطبيب بالإنجليزية Payne رسمًا مع فعل Pay الذي يعني دفع (النقود) ولفظًا مع كلمة Pain التي تعني "ألم". ومن هنا تأتي دعابة الزوج "إنه ألم في الجيب" وهي تستدعي تعبيرًا امريكيًا دارجًا يقول "إنه ألم في المؤخرة" للدلالة على امر ملح بسخافة كما نقول في العربية "إنه صداع في الراس".

t.me/qurssan

اخذ يتلو "الورود حمراء، البنفسجات زرقاء" بدلاً من العد إلى عشرة كي لا يجتمع مزاجان متفجران في الغرفة.

"اكان حقًا عليك أن تقرر إن كنت تحبني"؟ قرأت قائمة المميزات ثم قائمة العيوب بصوت عالٍ، هازة رأسها وهي تراوغ كلما حاول چون ان ينتزع القائمة "يبدو لي أن العيوب ربحت. لماذا تزوجتني"؟

"طريقتي هي عمل قوائم. أستطيع أن أقول إنك تفعلين نفس الشيء مع الكلمات".

"كلمات"؟ ضربته بورقته، "كلمات؟ ألم أقل لك دائمًا لا تقُل هذا ولا تقُل ذاك؟ كنت أنا من حاول أن أتجنب دخول الكلمات بيننا".

"صنعت قائمةً لأنني كنت مرتبكًا. نعم أنا، مرتبك"!

مد جون يده إلى يدها لاختبار مدى عصبيتها أكثر من كونها لمسة رغبة. واستطاعت تمييز الفرق فدفعت يده بعيدًا.

"بالله عليكِ يا چو" قال وصوته يلين. طوى ربطة عنق في مستطيل صغير وألبس سترته لظهر الكرسي.

"لاااا"! قالتها بعذوبة كأنها تقول نعم، تضمُ شفتيها شهيتين وناضجتين وجاهزتين كي يقضمهما.

"هيا يل حلوتي، قولي لي ماذا على العشاء"؟ قال ملاطفًا وهو يجذبها نحوه.

"سباجتي مسكّر مع كُرات اللحم المسقية بالعسل وسبانخ الشهد" سخرت منتزعة نفسها بتلاعب.

t.me/qurssan

سحبها نحوه بملاعبة وضغط شفتيه على شفتيها.

زمّت شفتيها. واطبقت صفيّ أسنانها، الأعلى على الأسفل، حصنًا من الكالسيوم.

جذبها إلى الأمام. فتحت فمها كي تصرخ. لا، لا! دفع لسانه بين شفتيها دافعًا كلماتها إلى داخل حلقها.

بلعتها: لا، لا. ارتطمت بمعدتها: لا، لا. نقرت ضلوعها: لا، لا.

"لا"! صاحت.

"إنّها مجرد قبلة بحق المسيح"! هزها جون "سيطري على نفسك"!

"لاااااااااااااا"! صرخت، ودفعته عن كل شيء تعرفه.

تركها تذهب.

****

كان جون ويو مستلقيين على السرير والأضواء مطفأة، فحرارة الجو لا تحتمل إنارتها ولا أن يقفا على أقدامهما. انزلقت يد جون تربّت على ردفيها بإيقاع.

"الجو حار جدًّا" قالت يو كي تُسكته.

حاول مجاراتها متلاعبًا على اسم تدليل جديد "ليس الليلة يا جوزفين"؟ واستدار على جانبه ليواجهها فتبيّن ملامحها في الظلام. رسم شكل قلب بإصبعه على وجهها من ذقنها حتى الجبين ثم نزولاً إلى الذقن مرة أخرى. قبّل ذقنها كمن يختم بطاقة عيد الحب. "يا لك من جميلة! هل تعرفين أن لوجهك شكل قلب كامل"؟ كان يكتشف ذلك كل مرة يريد أن يمارس الحب معها.

t.me/qurssan

كانت في يوم الفلانتاين تشعر بحر شديد. تنهدت "أنا أتعرّق. لا تفعل ذلك".

لم تسمع اليد الكلام. تابعت الإصبع الوسطى شكل قلب على شفتيها. رسمت الإصبع الصغيرة قلبًا على الجزء الملحم أعلى ثديها الأيمن.

"من فضلك يا جون"! كانت تشعر أن أطراف أصابعه مثل قطرات العرق.

"جون من فضلك" ردد محاكيًا لها. كتب (ج و ن) على ثديها الأيمن بإصبع دبقة كما لو كان يسمها بختم ملكيته.

"جون! الحر شديد جدًّا" استأنفت دفاعها مخاطبةً عقله.
تنهّد "جون الحر شديد". امتزاج الحرارة بالرغبة المرفوضة أحبطه.

سدّت فمه بيدها. تجاهل عنف الإيماءة وقبل كفّها الرطبة. استدار باتجاهها وعيناه مثقلتان بالأمل فأحدثت حركة جسده صوتًا لتفريغ الهواء وهو ينتزع نفسه من المرتبة العارية. كانت الملاءات قد انفكت من طيتها المحكمة في الأركان وتهاوت على الأرضية. عزفت يد جون اليمنى على البيانو فوق أضلعها ونفخ فمه الناي على ثديها.

"اللعنة"! صرخت فيه قافزة من السرير. "يا للخراء"! لقد أجبرها على قول أكثر كلمة تكرهها في الحياة. لن تغفر له هذا أبدًا.

"نهائيًا"؟ قال غاضبًا محاولاً القبض على ذراعها في الظلام. "نهائيًا"؟

t.me/qurssan

تسارعت دقات قلبها حتى شعرت انه ارتفع في اتجاه غيوم السماء وكررت، "أبدًا"! صفعته بكلماتها "نهائيًا... نهائيًا"! تمنت لو كانت مرتدية ملابسها، فمن الغريب أن يدلي المرء بتصريحات حاسمة وهو عارٍ.

عاد إلى المنزل بباقة من الزهور، كانت تعرف أنه دفع في مقابلها مبلغًا مبالغًا فيه. كانت زرقاء، فخمنت أنها سوسنات. السوسن كان أحب الزهور إليها؛ لذا فلا بد أنها سوسنات. ولكن بينما هو يعطيها لها لم تستطِع تبيُّن كلماته.

كانت أصواتًا نقيّة ومشرقة ولكنها لم تعنِ لها شيئًا.

ظلت تسأل: "ما الذي تحاول أن تقوله"؟ تحدث برقة ولكن بلغة لم تسمعها مطلقًا من قبل.

ادعت أنّها فهمت. استنشقت نفسًا طويلاً من رائحة الزهور "شكرًا يا حبيبي". عند كلمة حبيبي شعرت بحكّة شديدة في يدها حتى إنها خشيت أن تسقط الزهور.

قال شيئًا بسعادة، ومرة أخرى لم تستطِع أن تتبين معناه.

"أخبرني يا حبيبي"، كانت تسأل عينيه. ثم سألته كأنها تتحدث مع أجنبي أو طفل عنيد. "چون هل تستطيع أن تفهمني"؟ هزت رأسها كي تخبره أن يجاوبها بهزة من رأسه إذا خانته الكلمات. هز رأسه بلا.

t.me/qurssan

قبضت عليه بكلتا يديها كأنها تحاول أن تثبته إلى عالمها. ترجته "جون. من فضلك يا حبيبي"!

أشار إلى أذنيه وهز رأسه. لم يكن مستوى الصوت هو المشكلة. كان يستطيع أن يسمعها، لكنها كانت لا تسمع منه سوى أصوات مبهمة وترى شفتيه تتحركان ببطء مع كل مقطع.

اعتقدت أنه يقول لها "أحبك" فقلدت الصوت الذي سمعته منه، وحينما قال شيئًا آخر ظنت أنه ربما يقول "أنا أيضًا أحبك" أيًا كانت اللغة التي يتحدثها.

أشار إليها وإلى نفسه مرددًا نفس الأصوات المبهمة...

هزت رأسها بجنون. التمع وجهها الذي يتخذ شكل قلب، والقلب الذي في ضلوعها وكل القلوب التي على أكمامها، مثل مخالب عقرب في السماء. ربما يستطيعان الآن أن يبدآ من جديد في صمت.

عندما تركت يو زوجها كتبت رسالة. "أنا ذاهبة إلى أهلي حتى يصفو رأسي/ قلبي. ثم راجعت الرسالة، أحتاج إلى بعض المساحة وبعض الوقت حتى يصفو رأسي/ قلبي/ روحي. لا لا لا..." لم تعد تريد أن تقسِّم نفسها بعد الآن. ثلاثة أشخاص داخل يو واحدة.

جون. بدأت ثم رسمت ثلاثة مثلثات صغيرة قبل جون. كتبت "عزيزي" بشكل مائل. كانت قد قرأت في كتاب لتحليل الخط أن هذا هو أسلوب الواثقين من أنفسهم. "عزيزي جون، اسمع. كلانا يعرف أن الأمر لا طائل منه".

t.me/qurssan

"الأمر"؟ سيسألها "ما الذي تعنينه بالأمر"؟

شطبت يو الكلمة المُبهمة.

"نحن لا نصلح. أنت تعرف ذلك وأنا أعرفه. كلانا يعرفه. اوه جون جون جون". ظلت يدها تكتب اسم جون بشكل آلي حتى امتلأت الصفحة بحبر أسود يشكّل اسمه. مزقت الرسالة ونثرتها فوق رأسها مطرًا من جون. كتبت له مذكرة قصيرة تقول: "ذهبت..."، ثم أضافت: "إلى أهلي". فكرت في توقيعها بيولاندا ولكن اسمها الحقيقي لم يعد يبدو خاصًّا بها، لذا بدلاً من ذلك خربشت الاسم الذي يطلقه عليها... جو.

كان والداها قلقين. لقد تحدثت كثيرًا. كانت تثرثر طول الوقت. تحدثت في نومها، وتحدثت وهي تأكل على الرغم من تعليمها طوال سبعة وعشرين عامًا أن تغلق فمها وهي تمضغ. أخذت تعقد مقارنات غامضة وتتحدث بكلمات مبهمة.

قالت أمها لأبيها إنّها تهذي. سعل أبوها منزعجًا. كانت تقتبس سطورًا من الشعر ومن افتتاحيات الروايات الكلاسيكية. "كيف يمكن لشخص أن يتذكر كلّ هذا الكم"؟ سألت أمّها أباها المكفهر. وشخصت أمّها الأمر أنها تنداعي خلف صوتها.

اقتبست من فروست، وأخطأت في الاقتباس من والاس ستيفنس، وأعادت صياغة وصف ريلكة للحب.

"هل تسمعينني"! رفع دكتور باين يديه إلى فمه على شكل بوق ومثّل أنه يصرخ عن بعد "هل تسمعينني"؟

t.me/qurssan

اقتبست له من الرومي وغنت ما تعرفه من أغنية الأطفال "ماري لديها حمل صغير" وخلطت بينها وبين أغنية "الخروف الأسود".

رأى الطبيب أنه من الأفضل أن يودعها مصحّة صغيرة خاصة؛ حيث يمكن أن يراقبها. رعاية على مدار اليوم من أجل مصلحتها، وحدائق جميلة، ودروس فن وحِرف وملاعب تنس، وممرضون ودودون لا يرهبون أحدًا ولا يرتدون زيًّا رسميًّا. وقَّعَ والداها على الأوراق: "لمصلحتك". اقتبسا لأجلها كلام الطبيب اللطيف. حضنتها أمها بينما ملأت ممرضة متخفية في ملابس عادية حقنة. اقتبست يو من النسخة الأصلية من دون كيشوت، وترجمت المقطع الذي يتحدّث عن السجناء إلى الإنجليزية فورًا.

شكّتها الممرضة بالحقنة. هدأت يو لأول مرة منذ شهور ثم انفجرت دموعها. دلّكت الممرضة غيمة ضئيلة على ذراعها. "أرجوكِ يا حبيبتي لا تبكي" توسلت إليها أمها.

"دعوها تبكي" نصح الطبيب "إنها علامة طيبة. علامة طيبة جدًّا".

"دموع، دموع"! قالت جو وهي تتلو مرة أخرى "دموع من أعماق يأس بليغ".

"لا تقلقا"، قال الطبيب وهو يُطمئن الأبوين المنزعجين "إنّها مجرد قصيدة".

"ولكن الرجال يموتون دومًا من أجل ما يوجد هناك" اقتبست يو وأخطأت في الاقتباس غارقة في التيارات الجارفة لوعيها.

t.me/qurssan

تحسنت الأعراض. استغرقت يو في أحلامها عن دوك طبيبها الذي سينقذ جسدها وعقلها وروحها، ويداوي تمزّقها ويجعلها يولاندا واحدة مكتملة مرة أخرى. تحدثت معه عن النمو والخوف والنفس في مراحل تحولها والسعي الروحي للمرأة. حكت له كلّ شيء ما عدا أنها بدأت تحبه هو.

"هل أنت مستعدة لوالديك"؟ سألها.
"مستعدة لوالديك"، رددت خلفه كالصدى.

دخل والداها الغرفة يتظاهران بالسعادة، واختبراها بأسئلة حول الطعام والطبيب والجو، ومنفضة السجائر التي صنعتها من الفخار في جلسة العلاج بالفنّ والحرف اليدوية.

عرضتها على أمها.
بكت أمها: "لا يجب أن أبكي".

"إنها علامة جيدة"، قالت يو وهي تقتبس من الطبيب، ثم تداركت نفسها. الاقتباس من الآخرين مرة أخرى. علامة سيئة.

تحرّك والدها نحو الشباك وتفحّص السماء "متى ستعودين إلى المنزل"؟ سألها وظهره لها.

"حينما تكون مستعدة"، ردت الأم وهي تفرق الشعر فوق جبين يو فظهر شكل القلب مرة أخرى.

"أنا أحبكم يا جماعة" ارتجلت يو. ما الذي يهم إن أتت أولى كلماتها الأصيلة دون اقتباس منذ شهور مبتذلة.

t.me/qurssan

"احبكما حقًا"، قالتها بنغمة موسيقية فبدت أمها قلقة نوعًا ما، وكأنها تذوقت طعامًا كانت تظنه حلوًا فوجدته لاذعًا.

"ما الذي حدث يا يو"؟ سألت أمها اليد التي كانت تربت عليها منذ وقت قصير. "كنا نظن أنك وجون سعيدين جدًا".

"إننا فقط لم نكن نتحدث اللغة نفسها" قالت يو في تبسيط.

"آه يا يولاندا"! نطقت أمها اسمها بالإسبانية... اسمها النقي الأصلي... يولاندا. ولكن كان الأمر حتميًا مثل الجاذبية، مثل الليل والنهار، مثل تناول التفاحة المحرمة. كان اسمها يفقد معناه وينقسم لنصف درزينة من أسماء التدليل حتى أصبحت "يوسيتا المسكينة". "نحن نحبك"، قالتها أمها بصوت عالٍ يكفي لاثنين. "أليس كذلك يا بابي"؟

"أليس ماذا يا مامي"؟ استدار والد يو.

"نحبها"، ردت زوجته بحدة.

"لا يوجد شك في ذلك إطلاقًا" تقدم بابي نحو مامي، أو يو.

"ما هو الحب"؟ تسأل يو الدكتور باين، جلد رقبتها يلتهب كأنها أصيبت بحساسية عشوائية نحو كلمات معينة. هي لا تعرف أي كلمات حتى تصبح على طرف لسانها ثم يصبح الوقت متأخرًا. ينتفخ لسانها وتصاب بشرتها بالحكّة وتدمع عيناها. يفحصها الطبيب ويشم ظهر أصابعه. "ماذا تظنينه يا جو؟ الحب".

"لا أعرف"! تحاول النظر في عينيه ولكنها خائفة أن يعرف إن فعلت، هو سيعرف.

t.me/qurssan

"أوه يا جو"! يواسيها "نحتاج دائمًا أن نعيد توصيف الأشياء المهمة بالنسبة لنا. لا بأس ألّا نعرف. عندما تجدين نفسك واقعة في الحب مرة أخرى ستعرفين ما هو".

"حب"! تهمهم يو، كاختبار. وبالفعل يداهم التهاب قبيح جلد يدها. "أظن أنّك على حق" تشعر بالحكة "إنه فقط مخيف ألا أعرف ما تعنيه أهم كلمة في مفرداتي"!

"ألا تظنين أن هذا هو التحدي للبقاء قيد الحياة"؟

"قيد الحياة"! ترجع الصدى كما لو كانت تعود إلى أيام اقتباساتها القديمة. تحرقها شفتاها. حياة، حب، كلمات تستطيع الآن أن تستخدمها ولكنها ستدفع ثمن ذلك.

يرسم إصبع يو جسم دوك على الشاشة المعدنية للشباك، كما لو كانت تخترعه. ربما ستحاول الكتابة مرة أخرى، لا شيء شديد الطموح، قصيدة مرحة لمريكة. ستسميها "مضرب دينيس" لاعبة على المعنى المزدوج لكلمة مضرب، كما على اسم عائلة الدكتور باين.

في أعماقها شيء ما يتحرك، حكّة لا تستطيع الوصول إليها.

"عسر هضم"، تتمتم وهي تربت على بطنها. تفكر أنها ربما لا تكون كذلك. ربما هي ظاهرة مرتبطة بالشخصية: يعاد بعث يولاندا الحقيقية في ظهيرة في أغسطس (في ظهيرة أحد أيام أغسطس) فوق المروج الخضراء لهذه المصحّة الخاصة.

t.me/qurssan

تؤلمها بطنها. تمسِّدها في حركة دائرية من فوق رداء المستشفى واسعة توحي بالجوع. ولكن الخبط داخلها أكثر إلحاحًا من الجوع، فراشة هائجة داخل غطاء مصباح.

ترتفع، بضربات جناح، في حلقها، حتى تكاد تتقيأ. كم هو مأساوي! في عمرها هذا تموت من كسرة القلب. تحاول ان تضحك، ولكن بدلاً من الضحك تشعر بالجناحات تدغدغها وهي تنفرج، مثل مروحة في قاع حلقها. ويفتحان فمها كما لو كانت تنادي احدهم عبر مسافة كبيرة.. طائر كبير أسود يقفز من فمها خارجًا ويحطّ على مكتبها متأملاً كما فعل الغراب في أول كتاب شعر إنجليزي اقتنته يو.

تمد يدها لتلاعب الطائر الداكن.

يتجاهلها وينظر بتفلسف خارج النافذة نحو السماء التي تظلم. يرتفع جناحاه ويهبطان ببطء كأقواس ضخمة ترتفع وتتهاوى وترتفع وتتهاوى إلى الأعلى وإلى الأسفل. يطير شعرها فوق وجهها. يسرع الغبار إلى الأركان. تبحر الستائر من النوافذ.

يطير نحو النافذة. "يا إلهي! الزجاج"! تتذكر يو في لحظة من كسر الإيهام. "فليكن لديك القليل من الإيمان"، تقول لنفسها، بينما يخترق الجسد الداكن الزجاج بسهولة، مثل دخان أو غيم أو خيال. يطير إلى الخارج مبتهجًا بالحرية التي وجدها لتوِّه، بينما يتدلى رأسه الضئيل ومنقاره الداكن بين جناحيه.

t.me/qurssan

فجأة يتوقف في الهواء. الابتهاج والدهشة باديان بطول ابتسامة جناحيه. يهوي إلى الأسفل نحو الرجل الذي يتشمَّس في الحديقة. يتجه بمنقاره للأسفل. ثم يهوي وكأنه قد أطلق بسقوطه ضربًا من الجنون على العالم أجمع! "أوه لا" تنتحب يو. "لا، إلا هو"! كانت تظن أنها وهي وحدها عند شباكها بعد ظهر يوم في أغسطس ستكون بعيدة عن فعل أي أذى. والآن ها هو يستهدف الرجل الوحيد الذي تريد أن تحصِّنه من كلماتها.

تصرخ يو بينما يمزق المنقار المقوَّس قميص الرجل وصدره، الهيئة القابعة في الحديقة تصبح كتلةً حمراء.

يرتفع الطائر الداكن متخمًا، وينضم إلى كتلة متدحرجة من الغيوم الممطرة في السماء الشمالية.

تطرق يو زجاج النافذة. ينظر الرجل إلى أعلى محاولاً تخمين النافذة "من هناك"؟

"هل أنت بخير"؟ تصيح معجبةً بدورها كصوت غامض يأتي من السماء.

"من هذا"؟ يقف ويجذب منشفته. يتجلط الدم في مستطيل طويل أحمر من قماش المناشف. "من هذا"؟ يصيح مترعجًا من لعبة التخمين التي طالت.

"معجب خفي" ترتجف. "الله".
أأنتِ "هيذر"؟ يخمن.

"يولاندا" تتمتم لنفسها. "يو" تصرخ نحوه. تتساءل من بحق الجحيم تكون هيذر.

t.me/qurssan

"أوه. جو"! يضحك ملوّحا بمضربه.

تنمّل شفتاها وتتجعدان. تقول لنفسها "يا إلهي"! وقد تعرّفت على أولى علامات الحساسية: "ليس من اسمي نفسه أيضًا"!

***

الحديقة خضراء ونظيفة وهادئة.

"حب" تنطق يو ساحمة للكلمة بكامل قوتها أن تنطلق في فمها مصممةً على التغلب على هذه الحساسية. ستبني مناعة ضد الكلمات المسيئة. تهيئ نفسها لجرعة مزدوجة. "حب، حب" تقول الكلمات بسرعة ووجهها على هيئة قلب كامل مصاب بالحكة. حتى بالإسبانية فإن كلمة حب "Amor" تجعل الحكة تنفجر على ظهر كفيها.

قلبها عش مهجور داخل ضلوعها.

"حبٌّ" تلفظ الكلمة مضمومة مستديرة كأنها بيضة تضعها، ثم تضع كلمة أخرى: "يولاندا". تنظر إلى السحب الرعدية. ستؤجل الأمطار مباراة التنس الخاصة به إذًا. لم تعد هناك بقعة زرقاء واحدة لتذكرها بالسماء. فتقول "أزرق"، ثم تبحث عن الكلمة الملائمة لتلفظها بعد شجن الأزرق: "بكاء... سماء..." تسترد إيمانها، بينما تنطق كل كلمة وتتجرأ أكثر. "عالم... سنجاب... خشن... قاسٍ... حب... كفى".

تلك الكلمات تتدحرج إلى الخارج صانعة صوتًا مثل هدير رعد بعيد يتخذ شكلاً وعمقًا ومضمونًا. تستمر يو: "دوك، صخرة،

t.me/qurssan

جلباب، حظ" العديد من الكلمات. لا توجد نهاية لما يمكن أن يقال عن العالم.

t.me/qurssan

قصة رودي إلمنهرست

يولاندا

كان لكل منا فترات جموح... واحدة تلو الأخرى. كنا نعترف بذنوبنا لبعضنا البعض في ليالي العُطلة بعد أن يأوي والدانا إلى الفراش، وبعد أن نتفحَّص الصالة لنتأكد أنه "لا يوجد موريون على الشاطئ" وهو تعبير من الجزيرة يعني أن المكان آمن.. احتفظت آخر العنقود فيفي باللقب للمدة الأطول، مع أن ساندي بملامحها الجميلة وفرصها المتعددة نافستها بعض الشيء. ارتكبت كارلا الكبرى المسؤولة بعض الحماقات في عدد من المرات، ولكنها كانت دائمًا ما تدَّعي أنها تفعل ما تفعله لتكسب أرضًا لنا جميعًا. لذا فإن أخطاءها كان بها مسحة من حسن النية، ولم تكن قط فاضحة بقدر طاء فيفي. وفي مقابل "واو يا فيفي كيف قدرتِ على ذلك"؟! كانت فيفي تمنحنا ابتسامة البنت الشقية وتردد الجملة المأثورة من إعلان دواء ألكا - سلتزر المضاد للحموضة: "جرِّبوها، ستُعجبكم"!

ولسنوات قصيرة جامحة كنتُ أنا صاحبة سمعة الطيش بين أخواتي. أظن أن كل ذلك بدأ في المدرسة الداخلية، عندما أصبح لدي الكثير من المعجبين، ومع أن أحدًا من هؤلاء لم يستمرَّ لوقت يكفي حتى لتسميتها علاقة، إلا أن أخواتي اعتدن الخلط بين عدد الفتيان ودرجة الحميمية.

t.me/qurssan

في تلك الأيام كنت اتميز بما أطلق عليه أحد المدرسين "شخصية حيوية". توجّب عليَّ البحث عن هذا التعبير في القاموس، وشعرت بالارتياح عندما عرفت انه لا يعني أن لدي عيب ما. كانت الإنجليزية في ذلك الوقت لا تزال مصدر مفاجآت بالنسبة لي؛ أفتح القاموس كلما وُجِّهت لي كلمة لأعرف إن كانت إهانة أم مديحًا أم توبيخًا أو انتقادًا. كنت قادرة على إضحاك طلاب المدارس الثانوية الخجولين ذوي الأذرع الطويلة والبشرة التي تغلبها حمرة الخجل في حفلات التعارف. أستطيع أن أجعلهم يعتقدون أنهم نجحوا في جذب فتاة للتحدث معهم.. لم يمر مساء يوم سبت أو صباح أحد بعد القدّاس دُون قدوم المعجبين. كانت مجموعة من الفتيان من مدرسة البنين التابعة لمدرستنا تهبط التل، ليضيعوا الوقت خارج سكنهم في قاعة الزيارات بمدرستنا، وربما يسترقون سيجارةً أو يختلسون رشفة من الخمر خلال التمشية. عند مكتب الاستقبال كان عليهم أن يذكروا اسم فتاة، وعدد لا بأس به منهم كانوا يذكرون اسمي. لم يكن لذلك علاقة بكوني شديدة الجاذبية، لكنها تلك الحيوية التي يتحدثون عنها.

عندما دخلت الجامعة انقلبت حيويتي ضدي بشكل كامل. كنت أتعرّف إلى شخص، وقد يسير الحوار بيننا بسلاسة، ويأتون للزيارة، ولكن سريعًا، وعندما يبدأ قلبي يرمي بخيوط تعلقه كانوا يرحلون. لم أكن أستطيع الحفاظ على اهتمامهم بي. السبب وراء أني لم أكن أستطيع أن أبقيهم مهتمين بسيط: لم أكن أوافق على أن أضاجعهم. دخلت الكلية في نهاية الستينيات وكان الجميع يتضاجعون كمبدأ. في ذلك الوقت كنت كاثوليكية رجعية. كنتُ وأخواتي قد تأمركنا جيدًا منذ وصولنا إلى تلك البلاد قبل عقد من الزمان، لذا ففي الحقيقة كانت حجتي واهيةً. الحب

t.me/qurssan

اني لم امارس الجنس مع شخص لحوح مثل رودي إلمنهرست لغز أحاول استكشافه الآن بتحليله، كما تعلمنا أن نفعل في قصائد وقصص بعضنا البعض في درس الأدب الإنجليزي؛ حيث التقيت برودلف برودرمان إلمنهرست، الثالث.

لم يظهر رودلف برودرمان ألمنهرست الثالث إلا بعد مرور عشر دقائق تقريبًا على بداية الدرس. أما أنا فكنت أول من وصل، واخترت مكانًا على مائدة السمينار قريبًا من الباب، ولكن لسوء الحظ كان مكشوفًا بشكل مساوٍ للأماكن الأخرى؛ لأن الطاولة كانت مستديرة. بدأ الآخرون في الدخول... هم نجوم اللغة الإنجليزية في الكلية. كنت أميزهم من سراويلهم الجينز وقمصانهم ونظرتهم العارفة الساخرة عندما تتم الإشارة إلى أعمال أدبية مجهولة. لم تكن الفتيات يمارسن الحياكة جميعًا خلال الدرس مثلما يحدث في تخصصات التربية وعلم الاجتماع. كنت قد بدأت أكتب وحدي منذ فترة، ولكن هذا كان أول درس لغة إنجليزية لي منذ أقنعت والديّ بأن يسمحا لي بالتحويل إلى هذه الكلية المختلطة في الخريف الماضي.

من مكاني على طاولة السمينار أخرجت دفتري وكل النصوص المطلوبة والمقترحة التي كنت قد اشتريتها بالفعل، وكوّمتها أمامي كأنّها أوراق اعتمادي. أغلب الطلاب الآخرين كانوا أكثر ثقة في أنفسهم من أن يهرعوا لشراء الكتب للمادة. دخل الأستاذ، شاب في كنزة ذات رقبة عالية وجاكيت: الزي الرسمي لأستاذ اليوم العارف بأحدث المجريات. كان لديه حدة أستاذ لم يُعين بعد، حماس زائد والكثير من الأوراق الموزعة والكثير من الحرية المطلقة للطلبة في خطة المنهج، ورقم هاتف المنزل بالإضافة إلى رقم هاتف المكتب. نادى أسماء الحضور مشيرًا إلى

t.me/qurssan

أغلب الطلاب بأسماء تدليل ونكات وملاحظات، ومتعثرًا في اسمي، ومُلقيًا ابتسامة مزيفة في اتجاهي، ابتسامة كنت قد ميّزت بأنها تُلقى إلى "الطلاب الأجانب" لتريهم أن السكان الأصليين ودودون. احسست بشعور بالغ بالاغتراب عن المكان، والشخص الوحيد الذي بدا انني أشترك معه في أي شيء كان رودولف برودرمان المنهرست الثالث، الغائب عن المحاضرة، والذي كان يحمل اسمًا غريبًا أيضًا، وبدا غيابه كأنه دال على عدم انتمائه لهذا المكان هو الآخر.

كنا نناقش لوجستيات إعداد نسخ لورش العمل عندما دخل شاب متأخرًا. كان أحد هؤلاء الأشخاص الذين خرجوا بالكاد من مرحلة حَبُّ الشباب إلى الوجه الذكوري الممتلئ بالندوب لولد شقي. شخص ستتجاوزه جميلات فصلنا في بحثهن عن حبيب. ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة، وكان لديه -وهو تعبيرٌ لم أفكر فيه من قبل- عينا غرفة النوم. هو ذلك الشخص الذي سيكسر قلبك. ولكنك لن تعرفي كل هذا إن اعتمدت على وقع اسمه، وهذا هو ما فعلت تحديدًا؛ حيث وقعت في الفخ الذي يقع فيه كل المهاجرين... الحرفية. تخيلت أنّه تأخر لأنه هبط داخل الغرفة رأسًا من إمارته الصغيرة في مكان ما بالنمسا.

أوقف الأستاذ الدرس. "أتصور أنك رودلف برودرمان المنهرست الثالث"؟ ضحك الجميع وضحك الشاب نفسه. أعجبني هذا منذ البداية، أن تكون قادرًا على أن تدخل إلى المشهد بدون أن تحمر خجلاً أو تتعثر وتبعثر كتبك على الأرض مع محتويات محفظتك. يمكنه تحمل مزحة وإبداء مثل هذا الوجه الساخر الواثق من نفسه، حتى إن أحدًا لم يشعر بالذنب للضحك. نظر الشاب حوله، وكانت هناك مسافة بجوار المنطقة التي اقتطعتها لنفسي على الطاولة بكومة كتبي. أتى وجلس. كنت مدركة

t.me/qurssan

انه يتفحصني في الأغلب متسائلاً من انا بحق الجحيم، تلك المتطفلة على حرم المتخصصين في الإنجليزية.

استُكمل الدرس. بدأ الأستاذ يشرح مرة أخرى ما يتوقعه منا في المادة. لاحقًا طلب منا أن نكتب انطباعًا عن قصيدة قصيرة مررها علينا. هذا الشاب الذي يحمل اسمًا يشبه عنوانًا، مال عليّ وسألني ان اعيره ورقة وقلمًا. شعرت بالفخر أن أكون أنا الشخص الذي يسأله. مزقت بعض أوراق من كراستي ونقّبت في محفظتي عن قلم آخر. نظرت إلى الأعلى بتعبير أسف في عيني. همست: "ليس معي قلم زائد". كنت اهمس بجمل كاملة، وهذا ما يكشف لك أني كنت ما زلت غريرة في هذه الثقافة. نظر إليّ ذلك الشخص وكأنّه لا يعنيه القلم، وانني حمقاء لأظن ذلك. كانت نظرة مكثفة حتى أنني شعرت بأن وجهي يتلون. شكّل بشفتيه عبارة "لا يهم" بدون أن يستخدم صوته في الحقيقة، فكان عليَّ أن أقرأ شفتيه، شفتيه المكتنزتين المضمومتين كأنه يلقي لي بقبلات صغيرة. إن كنت أعرف ما تكون عليه المشاعر الجنسية في وقتها، لكنت قد ميزت الرعشة التي تهبط عبر مركز ظهري وإلى ساقي. استدار إلى جاره الآخر والذي لم يكن معه قلم أيضًا. انتشر الخبر. هل لدى أي شخص قلم زائد؟ لا احد. كان هناك قحط في الأقلام في ذلك اليوم في الفصل.

أغرقت يدي في محفظتي مرة أخرى. كنت نموذج الطالبة المستعدة بشكل زائد عن اللزوم. كان لا بد أن يكون معي أدوات كتابة احتياطية. شعرت بشيء مبشر في قاع المحفظة فسحبته إلى أعلى: كان قلم رصاص صغير ضمن مجموعة أعطتها لي أمي كهدية في الكريسماس... صندوق من الأقلام الحمراء ـوهو لوني منذ الطفولةـ محفور على كل منها اسمي المزعوم بحروف ذهبية... جوليندا. حاولت أمي ان تحصل على اسم

t.me/qurssan

يولاندا، ولكن الشركة استبدلته بذلك الاسم المألوف في الولايات المتحدة. جيولاندا. هذا ما كان مكتوبًا على القلم. بل إنه كان قد بُري حتى إنه لم يبقَ ظاهرًا عليه سوى قوس حرف الجيم. لم نكن نتخلص من الأشياء في عائلتنا. كنت أكتب على وجهيّ الورقة مثلاً. سلمت ما وجدته لهذا الشخص. أخذه ورفعه كما لو كان يقول "ما هذا"؟ ضحك أصدقاؤه من حولنا. شعرت بأني رثة لأني احتفظت بقلم بعد كل مرات البري تلك. في نهاية الحصة هربت قبل أن يستطيع أن يستدير ويعطيني إياه.

تلك الليلة كان هناك طرق على باب غرفتي. كنت قد ارتديت قميص نومي وأكتب الواجب الدراسي، قصيدة حب في شكلّ السوناتا. كنت أقرؤها بصوت عالٍ وبشكل درامي محاولةً تصحيح نطقي؛ لذا فقد شعرت بالحرج أن أحدًا بالخارج قد سمعني. سألت من الطارق. لم أتعرف على الاسم. رودي؟ "الشخص الذي استعار قلمك"، قال الصوت عبر الباب المغلق. فكرت أن ذلك غريب، الساعة العاشرة والنصف ليلاً. لم أكن قد وعيت بعد لبعض الإستراتيجيات. "هل أيقظتك"؟ أراد أن يعرف عندما فتحت الباب. "لا، لا" قلت وأنا أضحك باعتذار. كنت قد حلفت ألا أتحدث مع هذا الشخص أبدًا بعد أن أحرجني في الفصل، ولكن الأدب عندي كان يعمل أتوماتيكيًا. اعتذرت عن عدم دعوته للدخول "أنا أكتب فروضي" لم تكن تلك حجة في الدوائر التي كان يختلط بها. وقف بالباب للحظة طويلة، نظر من فوق كتفي إلى الغرفة باحثًا عن دعوة "لقد أتيت لأعيد قلمك فقط" أمسك به، عقب أحمر في كفه "فقط كي تعيد هذا"؟ قلت كاشفة خدعته. ابتسم لتصنع الغمازات قوسين على طرفي فمه كما لو كانت ابتسامته سرًا بيننا. "نعم" قال وكانت لديه

t.me/qurssan

تلك النظرة المصممة في عينيه مرة أخرى، ومرة أخرى نظر خلف كتفي. التقطت القلم من كفه، وكنت سعيدة بأنه قد بري حتى صار عقبًا كي لا يرى اسمي محفورًا بحروف ذهبية على جانبه. "شكرًا" قلت له وأنا أنقل ثقلي على قدمي وألمس مقبض الباب. حركات صغيرة، مقدمات مهذبة كي أغلق الباب.

تكلم: "هل يمكن أن نتناول الغداء في وقت ما"؟

"بالطبع، يمكننا أن نتناول الغداء في وقت ما". الطريقة التي أكدت بها على وقت ما كانت خالية من أمل. لم أثق في هذا الشخص. لم أكن أعرف كيف أقرؤه. لم يكن لدي شيء في مفردات التصرفات الإنسانية الخاصة بي تفسره. يأتي متأخرًا عشر دقائق عن أول اجتماع للفصل. أعذّب نفسي كي أجد له قلمًا ثم يسخر مني. يظهر عند باب غرفتي في العاشرة والنصف مساءً كي يعيده ويطلب مني أن أتناول الغداء معه.

"ما رأيك بغداء قبل المحاضرة"؟ يقول رودي.

"ليس لدينا محاضرة غدًا".

"هذا يعطينا وقتًا طويلاً للغداء"! يجيب بسرعة بديهة. لم يسعني سوى أن انبهر. "حسنًا" قلت وأنا أهز رأسي "غدًا الغداء".

تناولنا الغداء في اليوم التالي، وتحدثنا حتى العشاء، ثم تناولنا العشاء. تلك هي الطريقة التي أذكر أن العلاقات كانت تبدأ بها في الكلية: تلك البدايات الماراثونية المهووسة. كان من الصعب أن تعودي إلى غرفة سكنك الصغيرة لتنهي فروضك بعد أن كنت منغمسة بهذا القدر في شخص آخر. ولكن هذا تحديدًا هو ما فعلته. عدت وعملت على سوناتا

t.me/qurssan

خاصة بي. كانت رسالة من أربعة عشر بيتًا عن طبيعة الحب. ولكن طوال الوقت وأنا اكتب ملخصاتي كنت أفكر في كيف ينصت رودي وهو ينظر إلى فمي، حتى إنه كان من الصعب عليَّ أن أنتبه إلى ما أقوله. كيف كان يضم شفتيه كأنه يقبل كل كلمة قبلة الوداع. كيف تلمس يده أسفل ظهري كي تقودني عبر تجمهر من شباب الأخوية الصاخبين في غرفة الطعام. إن كنا نعجب ببعض الناس بسبب استخدامهم الفريد للكلمات، وآخرين بسبب ذهنهم الغريب والمثير للاهتمام، فإن رودي كان يجب أن يثير الإعجاب لطريقته المثيرة جنسيًّا والفريدة في استخدام جسده. كان من نوع الأشخاص الذين يمكنهم تقبيلك خلف أذنك وإشعارك بأنك قد مارستِ جنسًا جامحًا.

في اليوم التالي لم يسلم رودي السوناتا الخاصة به. بعد الدرس، وبينما ألملم حمولتي من الكتب الدراسية، إذ سمعته يقول للأستاذ إنه كان معطّلاً غير قادر على التفكير في أي شيء. كانت الستينيات، وكان الأستاذ لطيفًا، وكان من المتفهِّم ألا تتدفق إبداعاتك. يُمكن لرودي أن يؤجل تسليم السوناتا حتى يوم الإثنين. أمضينا أغلب عطلة نهاية الأسبوع معًا، نكتبها، في الحقيقة أنا أكتب أسطرًا ثم أشطبه عندما لا ينضبط بحره أو قافيته (في الحقيقة كنت أنا من يكتب الأسطر ويمحوها حين لا ينضبط بحرها أو قافيتها). بينما كان رودي يأتي بالأفكار. كانت أول قصيدة بورنوجرافية أشترك في كتابتها على الإطلاق، وبالطبع لم أعرف أنها بورنوجرافية حتى شرح لي رودي كل اللعب بالكلمات والمعاني المزدوجة. كان السطر الأخير "يأتي الربيع على الأغصان". كان ذلك يعني أن الربيع يقذف منيّه أوراقًا خضراء على الشجر. الزعفران الجديد يقف منتصبًا على العشب على أساس أنه مستثار جنسيًّا. كنت مذهولة من كل هذه

t.me/qurssan

الأشياء. كنت عذراء، ولم اكن واثقة مئة بالمئة من الكيفية التي يحدث بها الجنس. ان شخصًا يمكن أن يضع كل ذلك في قصيدة، وهي المكان الذي حفظته للعواطف العميقة والمشاعر المترفعة! لم أعرف (أتساءل الآن) اي قدر من هذه القصيدة كان موجهًا لي، فقد كنت حينها أنشغل فقط بالكلمات ومعانيها. لم أكن قد تعلمت الكثير من الحيل في ذلك الوقت، لكنني كنت في طريقي للتعلم.

أتذكر ختام كل واحدة من عطلات نهاية الأسبوع تلك على أنها وداع ممتد. كانت تبدأ بملاحظة الوقت، منتصف الليل، الواحدة، الواحدة والنصف، والقول: "حسنًا أنا ذاهبة إلى الفراش"، يوافق رودي "وأنا أيضًا"، ولكنه لا يتحرك من مكانه عند حافة السرير بجوار مكتبي حيث أجلس وأكتب. كانت غرفتي في سكن الطلاب صغيرة. إن وقفت كي تفتح الخزانة كان يجب أن تناور المكتب كي لا ينتهي بك الحال مكومًا على السرير. "وأنا أيضًا"، ابتسم ابتسامته الساخرة التي طالما جعلتني أشعر بأني حمقاء جدًا. وأخيرًا أقول سريعًا "يجب أن ترحل يا رودي". لا يقول نعم أو لا أو آسف لأني بقيت كل هذا الوقت. كان فقط ينظر إليّ بعيون غرفة النوم تلك، ويقف كما لو لم يكن خارجًا من الباب وإنما آتيًا-في المعنى القديم للكلمة والمعنى الجديد كما عرفته للتو- آتيًا من البرد في الخارج إلى ليلة من ممارسة الحب مع سيدة سريره. وقف عند الباب. ثم مال وقبلني خلف الأذن قبلة وداع.

في عطلة نهاية الأسبوع تلك نفسها، في أحد وداعاتنا المتلكئة، عرفت من أين حصل على اسمه الغريب المنمق. كان لديه جد ألماني فج، لم يقابله قط، ترك لحفيده ـالذي لم يكن قد ولد بعدـ أموالاً معلقة بشرط

t.me/qurssan

أن يسمى على اسمه. تساءلت: "وما الذي سيكون عليه الحال لو كنت قد ولدت بنتًا"؟

قال رودي: "لم أكن سأحصل على كل هذه التسلية". في ذلك الوقت كانت القبلات قد هاجرت من خلف أذني إلى رقبتي. ارتعشت عندما وضع سلسلة منها حولي قبل أن يرحل.

في ورشة العمل التالية لم يفهم أي شخص ما الذي تعنيه سوناتا الحب المتسامية الخاصة بي، ولكن رودي أشعل الجماهير. فجأة بدا لي، ليس فقط أن العالم مليء بالمتخصصين في الأدب الإنجليزي، ولكن بناس لديهم خبرة أكبر مني بكثير. للمرة المئة لعنت أصولي المهاجرة. لو كنت فقط مولودة في كونكتيكت أو فرجينيا كنت سأفهم النكات التي يلقيها الجميع على الرقمين الأخيرين من العام ١٩٦٩. كنت أيضًا سأمارس الجنس وأدخن الحشيش. كان سيكون لي أيضًا أبوان لوحتهما الشمس يأخذاني للتزلج على الجليد في كلورادو في عطلة الكريسماس، وسأقول أشياء مثل "بلا خرا" بدون أن أشعر بأني أقلد شخصًا آخر.

بدأنا أنا ورودي نتواعد بشكل منتظم ذلك الربيع. وإلى جانب الفصل كنا نتناول جميع وجباتنا معًا، وفي عطلة نهاية الأسبوع كان يدعوني إلى سكنه لحفلات في البهو. كان سكنه مجاورًا لسكني، يتصل المبنيان عبر صالة تحت الأرض تمتلئ في عطلة نهاية الأسبوع بحفلات جيدة الطبع ونظيفة يراقبها الأمن بكثافة. الحفلات الحقيقية كانت تحدث في سكن الشباب. في الأغلب يتنقل الشباب من غرفة إلى أخرى وهم يدخنون بعض الحشيش ويشربون كثيرًا. كانت هناك الغرف الثقيلة لتعاطي الأسيد أو المشروم. تلتمع الشموع ويحترق البخور في محاولة غير

ناجحة لمداراة الرائحة النفاذة للماريجوانا، ويصدح البيتلز أو بوب ديلون أو زا ماماز آند زا باباز من الستريو. كان جوًا متهتكًا بالنسبة لي، وكل تجربتي السابقة في المواعدة كانت الحفلات المختلطة وزيارات في غرفة الجلوس من أولاد في المدرسة الثانوية. كنت أذهب إلى رودي ولكني كنت أشرب رشفة أو اثنتين فقط من الكوب الورقي الذي يعرضه علي، ولم أكن أجرؤ على لمس المخدرات. كنت أقل خوفًا مما ستفعله برأسي عن خوفي مما سيفعله رودي بجسدي، بينما أنا تحت تأثير المخدرات.

استخفَّ بمخاوفي. قال لي إنه أولاً لا يستطيع فعل أي شيء بدون موافقتي. "ماذا عن الاغتصاب"؟ سألته، فلم أكن ساذجة تمامًا. "يا إلهي"! قال هازًّا رأسه غير مصدق. "لن أغتصب دين أهلك"! جُرحت. لم يكن قد تحدث مع أي شخص هكذا. لو سمع أبي رجلاً يستخدم مثل تلك البذاءات أمام بناته كان سيطلب منه أن يلاقيه في الخارج؛ حيث كان سيدافع عن شرفي. بالطبع كان عليّ وقتها أن أقوم بالكثير من الشرح فيما بعد، عما كنت أفعله في منتصف ليلة سبت في غرفة سكن رجل بسيجارة في يد وكوب ورقي من النبيذ الرخيص في اليد الأخرى. بعد بعض الوقت في غرف أصحابي جالسين في تجمعات من الشباب مع فتياتهم كنا نرحل أنا ورودي إلى غرفته. كان سريره مرتبة على الأرض والعلم الأمريكي ملقى فوقها كغطاء سرير، وهو ما اعتبرته حتى أنا - كوني من غير الأمريكيين الحقيقيين- مهينًا لأقصى حد. كنا نستلقي جنبًا إلى جنب نتبادل العناق والقبلات. كانت يد رودي تستكشف ما تحت بلوزتي، ولكن ما إن تجول أسفل ذلك كنت أسحب نفسي بعيدًا "لا" أقول "لا تفعل". "لِمَ لا"؟ يقول متحديًا أو بسخرية أو بإغواء أو بنفاد صبر، حسب ما شربه أو دخنه أو تناوله من المخدرات. إجابتي كانت

t.me/qurssan

تختلف اعتمادًا على طبيعة مخاوفي في ذلك الوقت. كان رودي يسمي رفضي هوسًا. كنتُ خائفةً من الحمل غالبًا. "حمل عن طريق التحسيس"؟ يقول رودي بسخرية. " يا رودي" أتوسل إليه "لا تقُلها بهذه الطريقة".

"ما الذي تعنينه بلا تقُلها بهذه الطريقة؟ التحسيس هو التحسيس، لسنا في درس شعر لعين".

ربما لو كان رودي قد تصرف قليلاً على أن ممارسة الحب هي ورشة تدريب من نوع ما، فربما كانت الأمور قد تحركت أسرع نحو غايته المنشودة. ولكن الشاب لم يكن لديه أي إحساس بانتقاء الألفاظ في السرير. كانت مفرداته تنفرني حتى وأنا أبدأ في اكتشاف متعة جسدي. لو كان رودي قد قال "أيتها السيدة اللطيفة استلقي فوق فراشي ودعيني ألمس جسدك العزيز الرائع"، فلربما كنت قد شعرت بالاستعداد أن يتلمسني. ولكني لم أكن أريد أن أكون في السرير في أول مرة لي مع رجل كي أُضاجَع، أُنكح، أُتناك.

كان رودي صبورًا للغاية في البداية. لا بد أنه أدرك، بسبب حاجته أن يشرح لي العديد من الإحالات في السوناتا الخاصة به، أني لم أعرف أي "خراء" كما قال. بالنسبة لي كان المهبل وعنق الرحم والمبايض مترادفات. قدم لي عبر رسم توضيحي تعريفًا بتشريح جسدي. رسم بيضة صغيرة تنزل عبر ساعة رملية نحو جيب الرحم اللزج. حسب آخر مرة أتتني فيها الدورة الشهرية، ومتى كنتُ في مرحلة التبويض، وأي ليال تعتبرُ توقيتًا آمنًا في الشهر، لتنتهي جميع دروسه بالنقطة نفسها: "لن تحملي". ولكني لم أكن أرغب في أن أنام معه.

t.me/qurssan

"لماذا؟ ما خطبك. هل أنت باردة أو شيء من هذا القبيل"؟ هنا بدأت أشعر بالقلق. كنت قد تغلبت لتوّي على خوفي من الحمل عن طريق المداعبة، أو من أن يلعنني الله وأموت في تلك اللحظة، بدأت أتساءل الآن إن كانت تربيتي قد نزعت أعصابًا حيوية ما. "فقط لا أرى أنه الوقت الصحيح بعد".

"يا إلهي! نحن معًا منذ شهر" قال رودي: "متى سيصبح الأمر صالحًا"؟

"قريبًا" وعدته كما لو كنت أعرف.

ولكن القريب لم يحدث قريبًا بما يكفي. تطورنا إلى أني كنت أبقى طوال الليل، ولكني أستيقظ مبكرًا في النهار ولا أجرؤ أن أتحرك لخوفي من أن أوقظ رودي في مزاج غرامي، وينتهي بنا الأمر إلى محادثة في الصباح الباكر عن لماذا لا يحدث الآن. مسحت الغرفة بنظري. إنها صغيرة مثل غرفتي. بجوار سريره يمكن أن أرى دفترًا عليه أشكال الساعة الرملية. لمست بطني لأتأكد أني ما زلت قطعة واحدة. على الحائط المصنوع من الطوب الأسمنتي المقابل للسرير وضع لوحة إعلانات. كانت هناك أعلام مثلثة لفرق التزلج وصور لعائلته يصطفون جميعًا استعدادًا للتزلج على قمة جبل. كان والداه يبدوان شابَّين جدًّا وغير متكلفين، كما لو كانا زملاء دراسة. كان أبواي الآتيان من العالم القديم لا يزالان مصدر إحراج لي في فاعلية نهاية الأسبوع المخصصة للآباء. أبي بشاربه الكثّ وبذلته ذات القطع الثلاث وقبعته الصغيرة، وأمي بأحد أزيائها التي اشترتها خصيصًا من أجل زيارتنا في المدرسة، وكل شيء متوافق بشكل مبالغ فيه: الحقيبة والحذاء ذو الكعب العالي المصنوع من الجلد اللامع الذي سيعود فور رجوعها إلى المنزل إلى أكياس التخزين البلاستيكية في خزانتها.

t.me/qurssan

اندهشت من أبويه الشابين. لا عجب أن رودي لم يكن لديه أي مخاوف، ولا عجب أن حبّ الشباب في مرحلة الدراسة الثانوية لم يتركه مثقلاً بالشك في نفسه، وأن اسمه لم يرهبه. شجعه والداه على أن تكون له تجارب مع الفتيات، ولكن أن يكون حريصًا. كان قد قال لهما إنه يواعد "فتاة إسبانية"، وأبلغني أنهم قالوا إن معرفة أشخاص من ثقافات مختلفة سيكون مثيرًا للاهتمام بالنسبة له. كان يضايقني أن يتعاملوا معي وكأني درس في الجغرافيا لولدهما. ولكن لم يكن لدي مفردات في ذلك الوقت أفسر بها حتى لنفسي ما الذي ضايقني في ملحوظتهما.

قابلتهما مرة واحدة فقط قبل عطلة الربيع مباشرة، وللسخرية كان ذلك عند نهاية علاقتي برودي. الذي حدث هو أنه في الليلة السابقة على بداية العطلة دار بيني وبين رودي واحدة أخرى من مواجهاتنا في السرير. أضاء رودي الضوء وجلس على مرتبته بظهره مستندًا إلى الحائط. كان عاريًا، وأنا في قميص نومي القطني بأكمامه الطويلة، والذي يسميه رودي قميص الراهبات. على ضوء القمر وأضواء الشارع القادمة عبر النافذة رأيت جسمه ينحته الضوء والظل بجمال. كنت أتوق إليه، ولكني كنت أتوق إلى الكثير بالإضافة إلى جسمه، والذي لا بد أني شعرت بأن رودي لن يمنحني إياه أبدًا. قال إنه مجهد من الإحباط. كنت قاسية. لم أفهم أنه على عكس الفتيات كان مؤلمًا عضويًا للرجل ألا يمارس الجنس. كان يظنّ أنه حان الوقت أن ننهي علاقتنا. كنت أبكي وأتوسل: كنت أريد أن أشعر بأننا جادان بخصوص بعضنا البعض قبل أن نمارس الحب. "جادان"! جعد وجهه "ما خطب المرح؟ المرح، هل تعرفينه"؟ تساءلت ما علاقة ذلك بفعل تمزيق الحجاب الجلل هذا. "هل تعنين أن ممارسة الجنس ليست مرحة"؟ واجهني رودي كما لو كان يرى جذر المشكلة أخيرًا.

t.me/qurssan

"بالطبع" كذبت. "إنها مرحة بالطبع" ولكنه هز راسه. كان قد استشف حقيقة كلامي. قال: "أتعرفين، كنت أظن ان دمك سيكون حاميًا كونك إسبانية وما إلى ذلك، وأن تحت كل هذا الهراء الكاثوليكي ستكونين حرة حقًا ولست معطلة بالمخاوف، مثل فتيات رقص الصالونات في المدارس الثانوية. ولكن يا الله أنت أسوأ من البروتستانت التطهيريين اللعينين"! شعرت بأنه قد لسعني. قمت وألقيت بمعطفي فوق قميص نومي ولملمت ملابسي وتركت الغرفة، نصف متمنية أنه سيلحق بي ويقول إنه يحبني حقًا وإنه سينتظر الفترة التي أحتاجها في النهاية.

ولكنه لم يتسلل إلى غرفتي وتحت أغطيتي ليحتضنني بقوة في مواجهة الليل الفارغ اللا نهائي. لم أنم تقريبًا. رأيت الحياة الباردة الوحيدة التي تنتظرني في هذا البلد. لن أجد أبدًا شخصًا يفهم خلطتي الخاصة من الكاثوليكية واللا أدرية. الأساليب الإسبانية والأمريكية. لو كنت قد تربيت مع تقاليد دمى الأطفال المحشوة، ربما كنت قد احتضنت دُبي الصوفي أو دمية الكلب أو الأرنب وأملّح الفرو الرث بدموعي طوال الليل. بدلاً من ذلك فعلت شيئًا كنت لا أزال أفعله لجلب الحظ في الليلة السابقة على الامتحانات. فتحت درجي وأخرجت الصليب الذي أخبئه تحت ملابسي ووضعته تحت وسادتي ليلتها. كان الصليب الكبير "غطاء أمان" آخذه معي إلى السرير لسنوات بعد أن أتيت إلى هذه البلد. لقد نمت معه لياليَ كثيرة حتى إن المسيح سقط وكان علي أن أعيد تثبيته على صليبه بشريط مطاطي. لم يأتِ رودي سائلاً عني في اليوم التالي. اصطدمت به بينما كان يغادر مع أبويه، وكنت أنا أترك غرفة السكن كي آخذ تاكسي حتى الباص الذي سيقلني إلى أبويّ في نيويورك. كنت نعسانة وباكية ولم أنظر خلفي عندما شعرت بعيني رودي علي. قام أبواه بأغلب الحديث

t.me/qurssan

متحدثين معي ببطء شديد كما لو أني لن أفهم أصحاب اللغة الأصليين. هنآني على إنجليزيتي "الخالية من اللكنة" وأبديا ملاحظة أن أبويّ فخوران بي قطعًا. عندما تودعنا نظرت إلى رودي وفكرت أني في الخارج في البرد وانه لا يزال في غرفة النوم بالنظرة نفسها في عينه.

بعد العطلة لم أرَ رودي كثيرًا. لم يجلس بجواري في الفصل، وقصائده في ورش العمل أصبحت مباشرة وودودًا بشكل غير مفسَّر. صارت عن الحب علانية. هل كان يريد أن يقول إنه قد أحبني حقًا؟ لماذا إذًا لم يعد يمرّ بغرفتي؟ بدأت ألتمس له أعذارًا في رأسي. لقد مر ولكني لم أكن موجودة ثم خاف أن يترك رسالة. منعه خجله من أن يجلس بجواري في الفصل. خائفًا وخجولاً! رودلف برودرمان إلمنهرست الثالث! كيف نكذب على انفسنا عندما نقع في حب الرجل الخطأ.

بالطبع كان من الممكن أن أبحث عنه وأخبره بشعوري نحوه. كيف أني خائفة من ممارسة الجنس مع رجل يسميه المضاجعة. ولكني كنت لا أزال في مرحلة النمط الذي ينتظر أن يقوم الشاب بكل المغازلة والسعي. كنت أبقى مترفعةً وأنتظر متوهمةً. كانت هناك ملحوظات قصيرة تافهة على نسخ قصائدي التي أعادها رودي، قرأتها وأعدت قراءتها بحثًا عن معانٍ مزدوجة. "جيد" أو "لا أفهم هذا السطر" أو "تفصيلة جيدة". عادت إليه نسخي من قصائده بملحوظات طويلة مجاملة. أصبحتُ منعزلة بشكل متزايد متفادية أماكننا القديمة خوفًا من الالتقاء به. ولكننا نادرًا ما صادفنا بعضنا، وعندما كنا نفعل كان دائمًا يحدق بي بابتسامته الباردة الساخرة يحييني بلا مبالاة "كيف حالك"؟، أنا على الجانب الآخر كنت متحفزة بالكثير من المشاعر حتى إني كنت أدَّعي أنه لم أره.

t.me/qurssan

اقتربت حفلة الربيع الراقصة. لا ادري لماذا ظللت افكر في ان رودي سيذهب معي في النهاية. كان هذا هو ذروة الأحداث الرومانسية في السنة الدراسية في حرم الجامعة، وبدا لي في حالة الوهم التي كنت فيها أنها الوسيط المثالي لمصالحتنا. مررت الأحداث في رأسي. سنرقص طوال الليل. سنتحدث ونعترف كم اشتاق أحدنا إلى الآخر! سأعود إلى غرفته معه. سنمارس الحب. مرتي الأولى. ثم سنتضاجع، ونتناكح، وننيك – جميع المرادفات التي يفضلها رودي عندما يشير إلى الجنس.

في الحياة الحقيقية اقترب اليوم ثم الليلة وكنت ما زلت آمل. كانت الحفلة الراقصة في البهو بين السكنين الطلابيين، وبالتالي عندما سمعت الفرق الموسيقية تبدأ، تسكّعت نازلة السلم إلى بسطةٍ أستطيع منها أن أشاهد المحتفلين دون أن يلمحني أحد. كانوا مجموعة متنوعة: شباب الأخوية المحافظون في بزاتهم التاكسيدو وفتياتهم في فساتين حفلات نهاية العام الدراسي الفاخرة، الهيبيون الجدد في قمصان بنقشة كشمير الهندية وجينز وحذاء رياضي، وربما للقليل من التألق پاپيون متنافرة مع بقية الملابس. رأيت أجسادًا ترقص بإغواء وأضواء تلمع والفرقة مستمرة في العزف. بدا أنهم جميعهم مشتبكون مع إيقاع لم أشعر بأنني جزء منه. ثم رأيت رودي يدخل إلى الغرفة بكأس في يده لا بد أنها ممتلئة بشيء مخلوط بالكحول أو مخدر الأسيد. كان قلبي ليخفق، لولا رأيت في نفس اللحظة تلك الفتاة المصاحبة له. لم أستطع التعرف عليها لكنني عرفت من تلامسهما وطريقة اقتراب جسديهما أنها الحبيبة في قصائده، وثانيًا أنّها حبيبة سريره. بعد أسابيع فقط من انفصاله عني! تحطمتُ. لثاني مرة خلال علاقتنا، وكإطار يغلق لقاءنا الأول الذي انتهى بهروبي من الفصل، هربت صاعدة السلالم.

t.me/qurssan

لم تنتهِ هذه القصة عند هذا الحدّ. هناك دائمًا المزيد في القصص الحقيقية. بعد نحو خمس سنوات كنت أحضّر للدراسات العليا في شمال ولاية نيويورك. كنت شاعرة وبوهيمية وما إلى ذلك. كان لدي حبيبان. وكنت أتناول حبوب منع الحمل. وظننت أنني قد حللت موضوع الروح والخطيئة بالتراجع عن خلفيتي الكاثوليكية العتيدة والتخلي عن روحي الخالدة في مقابل نوع من الروح المتسمة بالشجن، غير تقليدية وحكيمة، من النوع المستوحى من قراءة الكثير من كارلوس كستنيدا وريلكة وروبرت بلاي، وتعاطي مخدر الأسيد مع شاب يدَّعي أنه كان رفيقي الكوني في حياة سابقة. تلقيت مكالمة ذات ليلة من رودي. والداه يقيمان في نهاية الشارع، وكان قد قرأ في نشرة الخريجين أنّي في الجامعة المجاورة. هل يستطيع أن يأتي ليراني؟ قلت له بالطبع. متى؟ قال الليلة. كانت الساعة التاسعة والنصف ليلاً. عاد إلى حيله القديمة نفسها. ولكني كنت مأخوذة بإصرار الشاب. قلت بالطبع مر بي.

أتى جالبًا زجاجة غالية من النبيذ. عند الباب منحته حضنًا ودودًا ولكنه تمسك بي لمدة أطول. توترت وأصبحت ثرثارة. كان هذا الولد الشقي يدفعني دائمًا إلى أن أصبح الفتاة المهذبة المفعمة بالحيوية. أجلسته في أحد مقاعدي وبدأت أسأله عن السنوات الخمس منذ التخرج. تنهد كثيرًا وفرد ساقيه وطقطق مفاصل أصابعه. أخيرًا قاطعني قائلاً، "هاي" يا إلهي! لقد انتظرت خمس سنوات، وتبدين كأنك قد تخلصتِ من كل مخاوفك. دعينا نمارس الجنس". طردته. ما زلت أشعر بالإهانة أنه لا يريد سوى أن يضاجعني وكأنها مهمة يريد أن يتخلص منها. وسواء أكنت كاثوليكية أم لا فأنا ما زلتُ أعتبر أن ظهور شاب في غرفتي بعد خمس سنوات وقد أحضر لي زجاجة نبيذ ثمينة ظنًّا منه أنني سأفعل ما يريد هو،

t.me/qurssan

الخطيئة ذاتها. شاب كان قد تخلى عني، وتسبب في فقدان ثقتي بنفسي أثناء تفتحي الجنسي. للحظة بينما أراقبه وهو يدخل إلى سيارته شعرت بلمحة سريعة من فقداني القديم لثقتي في ذاتي.

كان قد ترك زجاجة النبيذ على الرف. كانت لدي فتاحة نبيذ من النوع الرخيص والرديء. في تلك الأيام كنا نشتري غالونات النبيذ ماركة غابو بالفلين الذي يسحب باليد أو بأغطية تفتح يدويًا. ضغطت سدادة الفلين إلى أقصى حد لها. لم أكن ماهرة في تلك الأشياء. في كل مرة كنت أشد فيها الفتاحة إلى الخارج كنت أنزع جزءًا من الفلين، ولكن العقب بقي داخل عنق الزجاجة. أخيرًا راوغتها إلى الداخل حتى استطعت أن أرى الحد المدبب لفتاحة الزجاجات عبر عنق الزجاجة عند نهاية الفلينة. وضعت الزجاجة بين ساقيّ وسحبتها بقوة حتى إني لم أنزع الفلينة المقطعة إلى الخارج فقط، بل رششت نفسي بنبيذ البوردو الثمين. "تبًّا" فكرت "لن يزول هذا في الغسيل". رفعت الزجاجة إلى فمي كما لو كنت امرأة متهتكة أزاحت جانبًا للتو رجلاً لم يكن يشبع رغباتها.

t.me/qurssan

(٢)

١٩٦٠ ـ ١٩٧٠

t.me/qurssan

ثورة اعتيادية

كارلا، ساندي، يويو، فيفي

لثلاث سنوات وأكثر كان مامي وبابي في الولايات المتحدة على ذمة الجرين كارد، وكان أربعتنا ننتظر العودة إلى الوطن بنفاد صبر. ثم ذهب بابي في زيارة للتجربة، واندلعت ثورة، ثورة صغيرة، ولكنها ثورة على كل حال.

عاد إلى نيويورك يردد قسم الولاء للولايات المتحدة ويقول لأمي: "لقد يئست! فقدت الأمل في هذه الجزيرة. من الآن سأصبح دومينيكيًا-نيويوركي". ثم رفع يده وأقسم أن يدافع عن دستور الولايات المتحدة وأصبحنا هنا للأبد.

تستطيع أن تصدق أننا، الفتيات، تذمّرنا وانتحبنا وشحبنا كي نعود إلى الوطن. لم نكن نشعر بأننا نحصل على أفضل ما تملك الولايات المتحدة تقديمه. كان لدينا أشياء مستعملة فقط. بيوت مؤجرة في حي تلو الآخر من أحياء الطبقة العاملة الكاثوليكية. ملابس بالتبادل وتلفاز أبيض وأسود مصاب بخطوط مموجة. كنا حبيسات تلك المنازل الصغيرة بالضواحي، وتُطبق علينا نفس القواعد الصارمة التي تطبق على الفتيات بالجزيرة، لكن بدون جزيرة لتعوضنا. ثم حدثت بعض الأمور الغريبة.

t.me/qurssan

التقت كارلا بشخص منحرف. وفي المدرسة كان الطلبة يطلقون علينا ألفاظًا تحقيرية، كـ"حثالة الإسبان" و"كرات الشحم". وقامت إحدى صديقات ساندي بحثّها على تجربة السدادة القطنية الخاصة بالدورة الشهرية، واكتشفت مامي مثل تلك الأشياء، مما دفعها إلى الكتابة لمدارس ثانوية (للفتيات فقط)! حيث يمكن أن نختلط "بالنوع الصحيح" من الأمريكيات.

انتهى بنا الأمر في المدرسة مع زبدة الأمريكيين. فتاة هوفر والتوأم هانس وفتيات سكوت وابنة ريس، الذين كانت تصلهم طرود هدايا مذهلة مرة كل أسبوع. لن تكونَ فجًّا لدرجة أن تسأل "هل تقربين للرجل الذي يصنع المكانس الكهربائية"؟ (كنت تستطيع أن ترى كل تلك الصلات لمجرد الطريقة التي تزدريك بها مادلين هوفر). على أي حال فقد قابلنا النوع الصحيح من الأمريكيين بالفعل، ولكنّهم لم يرغبوا في الاختلاط بنا.

كان لدينا نوع خاص من الشهرة، يرتكز في الأغلب على تصورات الفتيات الأغنياء وعلى صمتنا. "جارسيا دي لا تور" لم تعنِ أي شيء بالنسبة لهم، ولكن أولئك الجميلات اللواتي يحملن أسماء علامات تجارية تخيلن أننا -مثل جميع الطلاب الأجانب من العالم الثالث في المدارس الداخلية- فاحشو الثراء أو من أقارب دكتاتور ما. كنا من ذوي الحظوة المحاطة بالشر والغموض، بينما كانت حظوتهم تأتي في شكل عبوات جوارب حريرية مألوفة ولفائف حلوى وأكياس مكانس كهربائية وعلب مناديل.

t.me/qurssan

ولكن قد نكون بالفعل سمكًا خارج الماء، ولكن على الأقل تمكننا من استغلال الموقف لصالحنا كما كانت مامي ستقول. كانت رحلة القطار حتى مدرستنا الثانوية في بوسطن طويلة، وكان هناك فتيان في القطار. تعلمنا أن نزوِّر توقيع مامي وذهبنا إلى كل مكان تقريبًا. إلى حفلات رقص ومباريات كرة قدم وتجمعات تحت في الجليد في نهايات الأسبوع، كنا نستطيع أن نقبل الفتيان ولا نحبل. كنا نستطيع أن ندخن دون أن تشم رائحة الدخان عمة كبيرة فتكشف سرّنا. بدأنا في التأقلم على حياة المراهقين الأمريكيين، وفي وقت قصير أصبحت الجزيرة جزءًا من الماضي. صارت الجزيرة هي مجموعة تقليم الأظافر وتصفيف الشعر، والصبية الذين يرافقون فتيات العائلة أينما ذهبن... هؤلاء الذكوريون ذوو القمصان محلولة الأزرار الكاشفة عن صدورهم كثيفة الشعر والسلاسل الذهبية المتدلي منها صلبان صغيرة. بعد عامين بعيدًا عن الوطن صرنا في شدة الاندماج.

وبالطبع فور أن تأقلمنا بدأ پاپي ومامي يقلقان من أنهما قد يفقدان بناتهما في أمريكا. كانت الأمور قد هدأت على الجزيرة، وبدأ پاپي في كسب أموال لا بأس بها من عيادته في منطقة البرونكس بنيويورك. كان القرار التالي بديهيًّا: سيتم إرسالنا، نحن البنات الأربع، إلى الجزيرة في الصيف؛ حتى لا نفقد اتصالنا بالفاميليا. بينما الأجندة غير المعلنة هي الزواج من أبناء الوطن، بما أن الجميع كان يعرف أنه عندما تتزوج الفتاة بأمريكي فإنهم ينجبن أحفادًا يبعبعون بالإنجليزية، ويظنون أن الجزيرة هي مجرد مكان تذهب إليه لتنال سمرة من الشمس.

قوبلت خطة الصيف بمقاومة من أربعتنا جميعًا. لم نكن نمانع في اسبوعين، ولكن صيف كامل! تساءلت مامي: "هل لديكن شيء أفضل

t.me/qurssan

تفعلنه"؟ مثلاً نعم كان لدينا، إن سمحت لنا هي وبابي فقط أن نفعله. ولكن العمل كان خطأً أحمر (المدير الذي يوظف فتاة صغيرة له هدف واحد فقط. ولا علينا إن كان اسمه هوفر) كان وقت الصيف هو وقت العائلة. الوقت الكبير للعائلة الكبيرة، جزيرة بكاملها من أفراد العائلة، ابن عم هنا وابنة عم، وهناك ابن عم وفي كل مكان نلتفت باتجاهه كان هناك أبناء عمومة ينهالون علينا بالقبلات.

في الشتاء، عندما تحيد إحدانا عن الصف، كان مامي وبابي يخرجان بالعبارة المعتادة "ربما يكون ما تحتَجنه فورًا هو بعض الوقت في الوطن كي تستقِمن". كنا نعتدل فورًا أو ندّعي ذلك. أحيانا كان الأبوان يزايدان: لن تكون الابنة السيئة فقط هي من ستُشحن إلى الجزيرة، ولكن البنات الأربع جميعًا.

بحلول الوقت الذي أصبح فيه البنات الثلاثة الكبار في الجامعة -بدأنا جميعًا في الكلية نفسها المخصصة للبنات بالطبع- كنا قد ابتدعنا شفرة ونظامًا سريًّا متطورًا ومعقدًا بقدر النظام نفسه الذي ابتدعه بابي ومجموعته وهم يخططون ضد الدكتاتور. كانت عادة الوالدين هي أن يتصلا بنا يوم الجمعة أو السبت في حدود العاشرة قبل إغلاق سويتش المكالمات. كنا نتناوب "الورديات" لتلقي تلك المكالمات. ولكن بابي ومامي كانا وكأنهما وسطاء روحانيون. كانا دائما ما يوجهان المكالمة الأولى للابنة الغائبة، وعندما لا تكون موجودة يطلبان التحدث مع ابنة أخرى غائبة. الابنة الثالثة التي عليها الدور في الوردية كانت تتلقى المكالمة الثالثة، والتي يكون السؤال الأول فيها "أين أخواتك"؟ في المكتبة يذاكرن، أو في غرفة فلانة يتلقين درسًا في التفاضل والتكامل. كنا نبعد أغلب الأشياء عن الكبار، ولكنهم أحيانًا كانوا يلقطون ما يحدث ونتبادل موقع المساءلة.

t.me/qurssan

افتضح أمر تدخين فيفي في الحمام (كانت دائما تدير الدش كما لو كان التدخين فعلاً يحدث ضجيجًا ويستدعي أن يطغى شيء على صخبه). كارلا افتضحت في تجربتها لكريم إزالة الشعر (مامي ثارت قائلة إننا ما إن نبدأ في هذا الطريق فلا توقف – ستنمو الشعيرات مرة أخرى أسمك وأكثر قبحا في كل مرة. جعلت الأمر يبدو وكأنه تعاطٍ للخمر أو للمخدرات). وكانت فضيحة يويو أنها أدخلت كتابا إلى المترل بعنوان "أجسادنا أنفسنا". (لم تستطع مامي أن تحدد ما الذي ضايقها في الكتاب. أعني أنه لم يتضمن أي رجال. كانت الصور كلها لنساء مشهورات وأجسادهن لذا فلم يكن تقنيًّا عن الجنس كما كانت قد فهمت حتى ذلك الوقت. ولكن كان فيه نساء يستكشفن "ما معنى أجسادهن" وفصل كامل عن السحاقيات. هي أشياء يجب أن نخجل منها كما قالت مامي وهي تتفحص الصور).

وافتضح أمر ساندي عندما مرت خالة وزوجها في زيارة إلى الكلية في وقت مبكر من يوم أحد (ولم تكن قد عادت من درس ليلة السبت في التفاضل والتكامل).

كانت ثورة اعتيادية: احتكاكات مستمرة. حتى المرة التي صوبنا فيها طلقاتنا علنًا وربحنا وأصبح صيفنا –إن لم تكن حياتنا كلها– ملكًا لنا.

الصيف الأخير الذي تم شحننا فيه إلى الوطن بدأ مثل كل صيف آخر. في الليلة السابقة على الرحلة بقينا، نحن الأخوات مستيقظات حتى وقت متأخر نحزم أمتعتنا ونثرثر. اتصلت ساندي بصديقها في مكالمة لخارج الولاية، وظهرها مدار لنا وهي تهمس أشياء مثل "وأنا أيضًا". ترنحنا ونحن نقلد الخالات والأعمام وأبناء العمومة الذين سنقابلهم في اليوم التالي. ربما كانت هذه هي الطريقة التي نقتص بها من الأشخاص

t.me/qurssan

الذين سيكون لهم سلطة علينا طوال الصيف. كنا نلعب بأسمائهم، نترجمها حرفيًا إلى الإنجليزية كي تبدو سخيفة. الخالة كونشا أصبحت الخالة صدفة، والخالة أسونسيون أصبحت الخالة صعود، والخال موندو أصبح الخال دنيا، بالوما ابنة خالتنا المثالية تحولت إلى حمامة وعلى سبيل الازدراء منحناها كنية أبي إصبع.

عند منتصف الليل أتت مامي محدثة جلبة عبر البهو إلى غرف نومنا، في خفيها الناعمين وجواربها القصيرة وطاقية من بكر الشعر على رأسها. قالت: "كفى يا بنات. لديكن طوال النهار في الغد. تحتَجن نومًا هادئًا".

أدرنا نحوها وجوهًا كئيبة لإعادة تأكيد الطبيعة القسرية لتلك الرحلة.

وهي أعطتنا المحاضرة التحفيزية الصغيرة عن العائلة وأهمية الجذور. أخيرا عدنا إلى الأسرَّة كي ننام، أو هكذا ظننا. ولكننا أخفضنا الصوت وبقينا نتحدث.

رفعت فيفي كيسًا صغيرًا به رواسب من الماريجوانا الخضراء مائلة إلى البني. قالت "حسنا، وقت التصويت. هل آخذه أم لا"؟

"لا تفعلي" قالت كارلا. كان لباس نومها نقيضًا لذلك الخاص بمامي، بل إن كارلا بدت وكأنها ترتدي ملابس كاملة بقميص نومها القطني المتكلِّف. شدت شعرها بعيدا عن وجهها من شريطته الصفراء: "إن أمسكوا بك في الجمارك فسنواجه عاصفةً من المشاكل، وتذكري أن بما أن الخال دنيا في الحكومة الآن فستمتلئ الصحف بالخبر".

t.me/qurssan

"كارلا، يا لك من متزمتة"ا شاكستها ساندي "أولاً حيث إن الخال شخصية مهمة جدًا الآن فلن نمر بالجمارك. سيصطحبنا الأمن (الآنسات جارسياس دي لا تور)" لوحت بيدها بتباه كأنها تقدمنا لبلاط الملك آرثر.

اقترحت يويو: "يمكن أن تجربي حيلة فوط الكوتكس الصحية"، وهي تفكر أنه سيكون لطيفا أن يكون لدينا القليل من الماريجوانا لندخنها عندما يصيبنا الملل في الجزيرة. نصحها أبناء العمومة في الجزيرة في إحدى المرات أن تكوم طبقة من فوط الكوتكس الصحية فوق أي شيء تريد إخفاءه وسيخجل الضباط من التدقيق.

سألت فيفي: "ومن يستخدم الفوط الصحيّة الآن؟ هل تصلح سدادات التامبكس"؟

"هؤلاء الناس في الأغلب لن يعرفوا ما هو"، سحبت ساندي واحدة من العلبة التي ستأخذها معها وقامت ببانتومايم للتحقيق، شقت الغلاف الورقي وحاولت تمزيق الطرف بأسنانها كما يفعل الأعمام مع السيجار.

انفجرنا في الضحك الصاخب الذي كتمناه منذ خرجت مامي. سريعا كانت هناك خطوات تمر بالبهو. وقبل أن يتطوح الباب منفتحا رمت فيفي كيس الماريجوانا الذي كانت لا تزال تحمله وراء المكتب؛ حيث نسيناه أثناء استعجالنا في حزم حقائبنا في النهار التالي قبل طائرة الظهيرة.

لم تمر ثلاثة أسابيع لنا على الجزيرة حتى اتصلت مامي. أتت الخالة كارمن تجر أرجلها إلى حمام السباحة كي تقول لنا إن أمنا في طريقها من نيويورك، وإنها تنوي أن يكون لها حديث طويل معنا. اعترفت الخالة بأن

t.me/qurssan

هناك مشكلة ما ولكنها وعدت أمنا بألا تقول ما الأمر. كانت الخالة شديدة التدين وكنا نعرف أننا لن نستطيع انتزاع الأمر منها إن كانت قد أعطت كلمتها. نصحتنا على سبيل التعزية أن "افحصوا ضمائركم".

راجعنا خطايانا الحديثة مع بنات أعمامنا حتى وقت متأخر من تلك الليلة.

عرضت يويو: "كل ما أستطيع التفكير فيه هو أنهم فتحوا بريدنا".

اقترحت فيفي: "ربما تكون درجاتنا الدراسية قد وصلت".

أضافت ساندي: "أو فاتورة هاتفنا" كان صديقها يعيش في باولو ألتو بكاليفورنيا.

"أعتقد أنه من الظلم أن تتركنا معلقات" كان رأس كارلا مطرزًا بمشابك ودبابيس الشعر كأنه موصل بأسلاك من أجل تجربة. يصبح شعرها أشعثَ في الجزيرة، فتكويه كل ليلة ثم تلفه في أسطوانة ضخمة مستخدمة رأسها كبكرة لف ضخمة.

"تفحصي ضميرك" قالت ساندي بصوت الغول.

"لقد فعلت، لقد فعلت"، تمزح فيفي: "والمشكلة ليست أني لا أستطيع أن أجد شيئًا يقلقني، ولكن أني أجد الكثير جدًّا". قضينا بقية الأمسية نعترف لبنات عمومتنا المقهقهات والموضوعات تحت رقابة زائدة عن الحد دائما عن المشاغبات التي اقترفناها هناك في وطن الشجعان وأرض الأحرار.

t.me/qurssan

لم يخطر ببالنا قط كيس الماريجوانا الصغير خلف المكتبة. كان لدى مامي خادمة من الجزيرة تعيش معنا في الولايات المتحدة تدعى بريميتيفا (وتعني البدائية بالإسبانية)، وهي التي عثرت عليه. كانت بريمي نفسها تستخدم أكياسًا صغيرة كجزء من ممارستها لديانة السانتيرية فتضع فيها أنواعًا مختلفة من المساحيق والخلطات تستخدمها لتعالج ألمًا أو تتخلص من امرأة منافسة، ولكن إبقاء البنات أكياسًا صغيرة من الزعتر في غرفتهن هو لغز أحالته إلى سيدتها كي تحله.

وكان أول رد فعل لمامي كما أعدنا بناءه مما قالته بريمي هو الغضب أننا قد كسرنا قاعدتها التي تمنع الأكل في غرف نومنا. (الزعتر يعتبر طعامًا)؟ ولكن عندما فتحت الكيس الصغير واستنشقت ثم أدخلت إصبعها بداخله وتذوقت القليل ثم جعلت بريميتيفا تفعل الشيء نفسه صعقتا. الماريجوانا المرعبة والمحظورة والتي ظهرت مؤخرًا في الأخبار كثيرًا! كانت مامي متأكدة من ذلك. كانت منشغلةً بقلقها العصابي حول حماية عذريتنا منذ وصلنا لأعتاب البلوغ في أرض الأمريكيين الجامحين والمنفلتين، ثم ها هي الرذيلة تتسرب من فتحة غير محمية في الجهة الأخرى.

قامت فورًا بالاتصال بالعم بيدرو، وهو طبيب نفسي لديه عيادة في جاكسون هايتس وهو بمثابة عمّ لنا. كان العم بيدرو يستشار دائما عندما نقع، نحن البنات، في أي متاعب. ميز أن الزعتر هو بالتأكيد أعشاب مخدرة، وجعل مامي تسترسل في أفكارها حول ما يمكن أن نكون نفعله أيضًا. عندما خطت على الجزيرة بعد ثمانٍ وأربعين ساعة من اكتشافها للكيس كنّا جميعًا مدمنات ونساء ساقطات بعشاق متزوجين وأبناء غير شرعيين في الطريق. كان هناك أمل ضئيل تتمسك به وهو أن عاملاً ما أو

t.me/qurssan

ضيفًا في المنزل هو من ترك الماريجوانا هناك. أتت كي تكتشف الحقيقة وتحمي بابي من الخبر ومن الأزمة القلبية التي سيموت جراءها بالتأكيد إن عرف.

لم تكن لدينا خطة، حيث إننا تفاجأنا. في البداية قامت كارلا بمحاولة مبهمة كي تُفقد العم بيدرو مصداقيته بأن تكشف كيف كان ينهي جلساتنا بأحضان مطوَّلة وتربيت على المؤخرة. اتهمته "إنه متحرش، وإلى جانب ذلك ما الذي يعرفه القديس بطرس عن الحشيش"؟

"حشيش"؟ صاحت مامي "هذه ماريجوانا".

أمسكت كارلا لسانها.

وقبل أن نفكر في توجه أفضل فاجأتنا فيفي باعترافها بأن الكيس يخصّها. وفورا انضممنا جميعا لها في الجرم. "إنه يخصّني أيضًا" ادعت يويو، "ولي" أقرّت كارلا وساندي.

انتقلت عينا مامي من ابنة إلى الأخرى، وكانت كل صيحة "لي" تؤكد على ابنة سيئة أخرى. كانت تتحلى بالنظرة المأساوية للسيدة العذراء تجاه أبناء ضالين. "جميعكن"؟ سألت بصوت منخفض مصدوم.

تقدمت فيفي "أقول لك إني أنا من وضعته هناك، أنا فعلت ذلك وهن..." أشارت إلينا "لم يكن لهن صلة بالأمر".

فعليًا كان ما تقول صحيحًا فقد كان كيسها. أما بقيتنا فلم نتعاط المخدر إلا عندما كان أحد أحبابنا يعد لفافة، أو عندما تدور في حفلة للأصدقاء سيجارة يسحب الكل منها نفسًا. كان شيئًا غير متوقع أن

t.me/qurssan

تلقى فيفي كل اللوم؛ حيث إن عادتنا كانت أن نتقاسم الخير والشر الذي نصادفه. منحت مامي اعتذارًا وجدلاً جياشًا - لا يجب أن تعاقب أخواتها معها. الغريب أن مامي وافقت ولكنها طلبت منا ألا نقول لپاپي إلا إن كنا نرغب في حبس جماعي في الجزيرة.

ربما كانت مامي نفسها تخطط لثورتها الصغيرة ولم تكن تريد أن تشي بناتها كي لا تجذب الانتباه لنفسها.

كانت مامي قد أصبحت أكثر استقلالاً مؤخرًا وبدأت في تلقي دورات تدريبية للكبار في التسويق العقاري والاقتصاد الدولي وإدارة الأعمال، حالمة لنفسها بما هو أكثر من حياة على مقاس العائلة. بينما لا تزال تبدي احترامًا كاذبًا للأساليب القديمة، تقضم هي نفسها من الفاكهة المحرمة.

على كل حال، وافقت على أن تعود الثلاث الكبيرات منا إلى مدارسنا في نهاية الصيف. خيرت فيفي بين البقاء على الجزيرة لمدة عام عند الخالة كارمن أو العودة إلى الولايات المتحدة ولكن ليس إلى مدرستها الداخلية. سيتوجب عليها أن تعيش في المنزل مع مامي وپاپي وتذهب إلى المدرسة الكاثوليكية المحلية. اختارت فيفي أن تبقى. خمنت أنها ستكون أفضل حالا كواحدة من دزينة من بنات العمومة المصحوبات دائما بمرافق على عيشها في المنزل وحدها بينما مامي وپاپي يراقبانها عن كثب، حتى لا يضع بيتر بان يده على مؤخرتها. "بالإضافة إلى أني أريد تجربة البقاء هنا. ربما تعجبني"! قالت فيفي مدافعة أمامنا عن اختيارها. بصفتها الصغرى بين البنات الأربعة كانت أقلنا حظًا في الارتباط بالجزيرة قبل

t.me/qurssan

نفينا المفاجئ منذ عقد تقريبا. "وبالإضافة إلى ذلك فإني لا أشعر بالسعادة في الولايات المتحدة".

"أنت في منتصف مراهقتك بحق السماء"! كانت كارلا قد قررت أن تتخصص في علم النفس، وكانت تعطينا جميعا تحليلات نفسية مجانية "طبيعي أن تكوني غير سعيدة ومشوشة. إن ذلك يعني أنك طبيعية ومتأقلمة جيدا. بقاؤك سيجعل الأمر أسوأ، إني أضمن لك ذلك"!

قالت فيفي: "ربما لن يحدث. ربما أفاجئك".

"ستتسلقين هذه الحوائط قبل نهاية العام" حذرت كارلا.

نظرنا خلف حمام السباحة نحو الحائط الحجري العالي. كانت إحدى الخادمات قد علقت ملابسها الداخلية على الحائط. ومن إحدى استدارتي حمالة الصدر برز رأس سحلية صغيرة، وكانت تنفخ حلقها كما لو كانت قد سحبت لتوها نفسًا من سيجارة، وتحبسه لتتأكد من وصول تأثيره لخلايا مخها الصغيرة.

بحلول عيد الميلاد كنّا متلهفات لأخبار عن منفى فيفي. كنا نسمع من مامي أن أختنا قد تكيفت جيدًا مع الحياة على الجزيرة، وهي تتلقى دروسا في الاختزال والطباعة على الآلة الكاتبة في مدرسة التجارة التابعة لمؤسسة فورد. وهي أيضا تواعد شخصًا لطيفًا.

بالطبع كان ذلك خطرا على بقيتنا. فمع وجود ابنة واحدة أعيد توطينها بنجاح قد ينتزعنا بابي جميعا من كلياتنا ويعيدنا إلى هناك. وغني عن الذكر أنّه من المريب أن فيفي الجانحة تغيرت إلى هذا الحد. تقول كارلا إن ذلك رد فعل على الانتزاع الثقافي الصادم الذي يقود إلى حد الفصام.

t.me/qurssan

في اللحظة التي غادرنا فيها الطائرة رأينا أن مامي لم تكن تبالغ. كانت فيفي هناك في استقبالنا في المطار، ضجة من الأساور وشلال من الضفائر الآتية من صالون التجميل والمربوطة على جانب واحد بأناقة شديدة بمشبك شعر ذهبي كبير. كانت قد غمقت رموشها بمسكارا سوداء حتى تبرز عينيها كما لو كانت مندهشة بعض الشيء من حظها الحسن. فيفي - التي كانت تصفف شعرها في ضفيرتين هنديتين مميزتين تعقصهما في الحر كبائعة الألبان النمساوية، فيفي – التي كانت حريصة دائما على عدم وضع المكياج أو التأنق. تبدو الآن كصورة في إحدى مجلات الأناقة التي تعرض صور النساء "قبل" و"بعد". كانت هذه فيفي "بعد".. "أنيقة" قالت مامي عن أسلوب فيفي الجديد. ولكن كانت هناك صفات أخرى على طرف لساننا.

"لقد تحولت إلى..." تلعثمت يويو. "إلى أميرة إسبانية-أمريكية".

نحييها ونحن نتفحصها: "يا إلهي يا فيفي"!

"أين الحفلة"؟ تغيظها ساندي.

تبدأ فيفي بشكل دفاعي: "إن لم تستطعن قول شيء لطيف..." محفظتها من الجلد اللامع تليق بشكل تعيس مع حذائها ذي الكعب. "هاي، هاي"! نعطيها أحد أحضاننا الجماعية "لا تفقدي حس الدعابة بيننا! تبدين رائعة".

"لا تفسدن شعري" تحتج فيفي مربتة عليه كما لو كان قبعة. ولكنها تبتسم. "خمنوا يا جماعة"! تنظر من واحدة منا إلى الأخرى.

نرد كما الكورال "تواعدين شخصًا لطيفًا".

t.me/qurssan

تتعجب فيفي ثم تضحك. "وكالة الأنباء قامت بدورها، أليس كذلك"؟ نهز رؤوسنا موافقات. تسترسل شارحة أن ذلك الشخص اللطيف هو احد أبناء العمومة. إنه مانويل جوستافو. "ابن عم لطيف"، تضيف مسرعة.

"ابن عم"؟ نحن نعرف أغلب أبناء عمومتنا، ومانويل جوستافو جديد علينا.

"ابن عم خفي" تقول فيفي باحثة في محفظتها عن صورة. "أحد الأبناء غير الشرعيين".

"فعلاً"! نرفع علامات النصر لبعضنا البعض. إنها لا تزال ثوريةً في نهاية الأمر! كنا خائفات أن تكون فيفي قد تنازلت تحت ضغط العائلة لتصبح فتاة عالم ثالث ظريفة. ولكن، هيهات. إنها لا تزال فيفي التي نعرفها.

تقول لنا فيفي قصة مانويل جوستافو كاملة. أبوه هو شقيق أبينا العم أورلاندو الذي لديه نصف دزينة من الأبناء من امرأة من الريف المجاور لإحدى مزارعه. بالطبع فإن العمة فيدلينا زوجة عمنا، وهي لطيفة ومكرسة للعذراء، "لا تعرف شيئًا" عن خيانات العم أورلاندو. ولكن بما أن مانويل بدأ يظهر في حياتهم كان عليه أن يأتي بتفسير عن هويته. تريد العمة فيدلينا أن تعرف من ذلك الشاب الذي تواعده ابنة أخي زوجها. من أين أتى؟ ما اسم عائلته؟ عرض عم آخر وهو إجناسيو أن ينسب مانويل جوستافو كابن غير شرعي له. هو لم يتزوج قط ويتم تعنيفه دائمًا لأن العائلة تشك أنه مثلي. لذا أتى ابن غير شرعي واحد ليحل مأزق

t.me/qurssan

الرجلين. وفقًا لفيفي فإن سيدات المجتمع الراقي للطبقة الحاكمة ممن يكوّنّ ما يشبه النادي الريفي قد سرتهن كثيرا تلك المادة الدسمة للنميمة.

علقت فيفي وهي تومئ برفع ذقنها لأعلى كنوع من التعالي: "ليس لديهن شيء أفضل يفعلنه".

ستتبنَّى مانويل كابن عمنا المفضل.

يبدو مثل بديل وسيم وشاب لپاپي ويشبهنا كثيرا. حواجب العائلة وعظام الخد المرتفعة نفسها والفم الممتلئ الكريم نفسه. باختصار يمكن ان يكون الأخ الذي لم نحصل عليه قط. عندما يزأر داخلا إلى المجمع السكني بسيارته النقل الصغيرة نركض أربعتنا نحو المدخل لنرحب به بالقبلات والأحضان.

"بنات" تقول الخالة كارمن عابسة، "ليست هذه هي الطريقة التي تحيين بها رجلاً".

"نعم يا جماعة" توافق فيفي "حلوا عنه إنه يخصني"!

نضحك ولكننا نبقى منشغلات به، قائمات على خدمته كما لو كنا لم نذهب إلى الولايات المتحدة قط أو نقرأ سيمون دي بفوار أو نخطط لحياة خاصة بنا.

ولكن بمرور الأيام أصبحت فيفي أكثر انطواء وترقبا.

يوميًا كانت هناك مواجهات صغيرة. تبرُّم وبرود لأن إحدانا وضعت ذراعها حول مانويل أو اشتبكت في حوار أطول من اللازم معه عن إنتاج القصب.

t.me/qurssan

لطمأنتها كنا نهدئ من انفسنا، وأصبحنا متحفظات أكثر مع مانويل.
من تلك المسافة الجديدة بدأنا نرى الصورة الأشمل. ولم تكن جميلة.
مانويل المحبوب مستبد. إنه صورة مصغرة من مامي وبابي معجونين في
كيان واحد. لا يمكن لفيفي أن ترتدي البنطلون علنا. لا يمكن لفيفي ان
تخاطب رجلاً آخر. والأكثر إزعاجا هو أن فيفي المشاكسة، فيفي
المتوهجة، تترك ذلك الرجل ينهاها ويأمرها.

وفي أحد الأيام كانت فيفي، التي لم تعد تقرأ تقريبا، منغمسةً في
إحدى الروايات التي جئنا بها معنا، ولم تكن رواية تافهةً كالعادة، وصل
مانويل جوستافو، وعندما لم يجب أحد جرس الباب، أتى من المدخل
الخلفي. في حين كنّا جميعا مستلقيات في الفناء على كراسي الحديقة نقرأ.
ورأته فيفي فتهلل وجهها. كانت توشك على وضع الكتاب جانبا عندما
مال مانويل جوستافو وأخذه من بين يديها.

يقول مانويل جوستافو وهو ممسك بالكتاب كما لو كان حفاضة
متسخة "هذه قمامة تحشين بها رأسك. لديك أشياء أفضل تفعلينها" وألقى
بالكتاب على الطاولة.

بهتت فيفي، مع أن خديها اللذين يحملان جرعة مضاعفة من أحمر
الخدود استمرا في الاحمرار. وقفت سريعا واضعة يديها على ردفيها
وضيّقت عينيها، تلك فيفي التي نعرفها ونحبها. "ليس لك الحق في أن
تقول لي ما أستطيع ولا أستطيع فعله".

"حقًا"؟ يقول مانويل بتحدٍّ.
"لا"! تؤكد فيفي.

t.me/qurssan

نخرج نحن الأخوات الثلاث واحدة تلو الأخرى، مشجعات فيفي من بين أنفاسنا. بعد دقائق نسمع صوت سيارته تهدر في الممشى وفيفي تدخل إلى غرفة النوم باكية.

نقول: "يا فيفي لقد نال ما يستحق. لا تجعليه يتحكم بك. أنت روح حرة" نذكرها.

ولكن في خلال ساعة تكون فيفي على التليفون مع مانويل تترجاه أن يسامحها.

أسميناه م. ج. وهو نوع سيارة كنا نعتبرها رديئة نوعا ما. سيارة قد يدفع واحد من أبناء عمومتنا الأكبر سنًّا أباه لأن يشتريها له كي يدهش فتيات الجزيرة. نقلد صوت محركات وهمية عند ذكر اسمه. يا له من مستبد! فووووم. إنّه يحطم فيفي فووووم فوووووووم.

بعد بضعة أيام من واقعة الكتاب جاء مانويل لتناول الغداء، كانت فيفي لا تزال في درس الإسبانية، فقررنا أن نتحدث معه قليلا.

تبدأ يويو بسؤاله إن كان قد سمع بماري ولستونكرافت؟ ماذا عن سوزان ب. أنطوني؟ أو فرجينيا وولف؟ يسأل: "هل هن صديقاتكن"؟

من أجل الأخوة النسائية غير المرئية، وبما أن خالاتنا وبنات خالاتنا يعتبرن تظاهر المرأة من أجل حقوقها شيئًا غير أنثوي، تنهدت يويو وأدرنا جميعًا عيوننا تذمرًا. لم نعد لمجرد محاولة رفع الوعي هنا. يبدو الأمر كأن تتوقع سقف كاتدرائية داخل نفق. في إحدى المرات تجادلنا مع العمة فلور، فأشارت إلى بيتها الضخم، والحدائق المعتنى بها، وتمثال كيوبيد الذي تم تعديله كي يخرج الماء من فمه وردت: "انظروا إلي، أنا ملكة.

t.me/qurssan

على زوجي أن يذهب إلى العمل كل يوم، بينما أستطيع أنا أن أنام حتى الظهيرة إن أردت. فلم أقم بالاحتجاج من أجل حقوقي؟"

تحيل يويو المقابلة مع مانويل إلى كارلا الماهرة في عقد الصداقات عن طريق الثرثرة العابرة. تسميه يويو أسلوب "التليين من أجل الإفصاح" الخاص بالمعالجين النفسيين. "لماذا تشعر بالضيق يا مانويل عندما تكون فيفي وحدها؟" أسلوب كارلا يأتي مباشرة من كتب مقدمة في علم النفس.

"لا تفعل النساء هذا هنا"، تهتز قدم مانويل جوستاف الموضوعة على ركبته صعودا ونزولا، "ربما تفعلن الأشياء بشكل مختلف في الولايات المتحدة الأمريكية"، نبرته في مكان ما بين الإغاظة والاستهزاء. "ولكن ما الذي تجنيه الأمريكيات البيض من هذا؟ أغلبهن يظللن يبقين عوانس لا يفعلن شيئًا سوى تعاطي المخدرات وممارسة الجنس مع أي شخص".

تنطلق ساندي "فووووم فووووم".

"مانويل!"، تقول كارلا بتوبيخ، "للنساء حقوق هنا أيضًا. ألم تعلم ذلك؟! حتى القانون الدومينيكي يضمن حقوقهن".

"نعم للنساء حقوق" يوافق مانويل. تمتد ابتسامة منحرفة على وجهه كأنه على وشك قول شيء حاذق. "ولكن الرجال يرتدون السراويل".

الثورة قامت. لدينا أسبوع كي نربح المعركة من أجل قلب أمي وعقلها.

t.me/qurssan

نخرج ليلاً في الجزيرة، مع عصابة أبناء العمومة، إلى الكورنيش. إنها النزهة الأساسية، مزدحمة بمرح السيارات والعربات التي تجرها الأحصنة من أجل السياح الذين يريدون ركوبها في ضوء القمر بجوار شاطئ البحر. تفيض الفنادق والملاهي الليلية على السماء بأضواء كثيرة حتى إنك تستطيع أن تميز وجوه الناس وأنت تمر بهم، وهنا تبدأ طاحونة النميمة في الدوران: تركت ماريانيلا أوتشو من أجل كلاوديو، مارجريتا تبدو حاملاً في ما هو أكثر من شهري عمر زواجها... ترتدي بيلار تنورة قصيرة على الرغم من ضخامة ساقيها... يبدو أن بعضهم قد توقف عن النظر لنفسه في المرآة... يا إلهي!

نوزع أنفسنا على عدة سيارات يقود كل منها ابن عم من الصبيان. لا نريد سائقين مخبرين ينقلون أخبارنا. نحن ذاهبون إلى السينما أو إلى كابري لتناول الآيس كريم والتسكع. الصبيان متحمسون بشدة للعناية بالآنسات. يتوجب على كارلا "بما أنها الكبرى" أن تركب مع فيفي في عربة مانويل البيك أب كمرافقة، أو على الأقل حتى نخرج من نطاق المجمع السكني. ثم ينزلانها في كابري كي تنضم لبقيتنا. يسرق فيفي ومانويل بعض الوقت الخاص بعيدًا عن الأعين المتفحصة للعائلة الممتدة. في تلك الرحلات ينتهي بهما الأمر بإيقاف سيارتهما كي يقبلا بعضهما، وما إلى ذلك حسب قول فيفي. هي اعترفت بأن الـ"ما إلى ذلك" يقترب من هدفه، والمشكلة أنها لا تملك موانع حمل. أي شخص تلجأ له على الجزيرة من أجل حبوب منع حمل أو واقٍ نسائي سيعرف من هي، وسيقوم بالوشاية عنها للعائلة بلا شك. ولن يرتدي مانويل واقيًا ذكريًّا.

تقول فيفي وهي تبتسم بلطف شاعرة بمعزة نحو جهله الذكوري المحبب "يعتقد أنه يسبب العجز الجنسي".

t.me/qurssan

تتنهد ساندي "يا إلهي يا فيفي! قولي له إن عدم استخدام الواقي سيؤدي بالتأكيد إلى الحمل". إن فيفي الحامل ستضطر لأن تفعل ما يفعل عادة في تلك الأحوال في الجزيرة - الزواج فورًا والاستعداد للنميمة عندما يأتي طفلها المولود مبكرًا إلى الحياة سمينًا ومكتمل النمو.

نواصل تحذيرها قلقين حتى إننا هددناها: "سنشي بك، سنفعل ذلك"!- فتعدنا بأنها لن تمارس الجنس مع مانويل حتى تحصل على نوع من الحماية أولا. وهو شيء غير متوقع، فمن أين تأتي به في حوض أسماك الزينة الذي هو هذه الجزيرة؟

ولكن وعودها لا تعني الكثير بعد ما حدث في إحدى الليالي.

كنا نجلس في كابري تلك الليلة، نشعر بالملل. فيفي ومانويل قد رحلا بالفعل، ولدينا ساعتان نضيعهما حتى يرجعا ونستطيع جميعا أن نعود إلى المجمع السكني. نبدأ في التفكير في ما نفعله: يمكننا أن نذهب بالسيارة حتى شاطئ السفارة ونقفز عرايا في الماء. يمكن أن نبحث عن خورخي ابن عم ابن عمنا الذي يمكنه أن يجلب لنا الماريجوانا، كما أنه يعرف كاهن فُودو يمكن أن يتنبأ بمستقبلنا بعد القيام بطقس مخيف نضحي فيه بحيوان ما.

يعترض مرافقنا الرسمي ابن العم موندين على الفكرتين، فلديه فكرة أفضل. نتكوم داخل سيارته، بنات عمته الأمريكيات الثلاث وأخته لوسيندا، نلح عليه أن يقول ما يدور في ذهنه. يبتسم بشرٍّ ويقودنا خارج المدينة قليلاً إلى موتيل يدعى لوس إنكانتوس. وتستخدم كلمة "موتيل" في الجزيرة كمجاز عن بيت الدعارة. يتوقف أمام المكان كمن يعرفه جيدًا، ويطلق نفير سيارته، ويطلب من الحارس غرفةً، ثم يتجه إلى الشاليه الذي خصصه له. يفتح باب الجراج صبي يعمل بالفناء ويقف

t.me/qurssan

منتظرًا. فور أن ننزل من السيارة يسحب الصبي باب الجراج مغلقًا إياه، ويعطي موندين مفتاح الشاليه المتصل به. "بهذه الطريقة لا يمكن لأحد التعرف على هوية مرتادي المكان"، يشرح موندين بالإنجليزية. "هذا موتيل راقٍ لا ترتاده سوى صفوة الصفوة للحفاظ على ماء الوجه؛ حيث إن الجميع قد يتعرفون على سيارات بعضهم البعض". يفتح موندين باب الشاليه ويقف جانبًا كي يدع الفتيات يدخلن. يتوسط الغرفة تمامًا سرير كبير بلا حياء بغطاء منقوش بالزهور.

ووسادتان أسطوانيتين مغطاتان بنفس قماش غطاء السرير وتتدلى من جانبي كل منهما شرابة. تستدعي الوسادتان إلى الذهن مهندسًا عربيًا أكثر مما تستدعي سيدًا آمرًا على الحريم.

"هل هذا هو كل شيء"؟ نقول محبطات.

"ما الذي كنتن تتوقعنه"؟ لا يبالي موندين بأن حماسنا لم يتقد بشكل كافٍ. فقد خاطر بالكثير من المشاكل كي يرينا الوجه المشاغب للجزيرة. فتيات لطيفات في بيت دعارة! ستقتله أمه!

تضع ساندي ذراعها حول موندين وتخبط ردفه. تقوم بتقليد ماي وست في لحظة دخول صبي الفناء بصينية عليها كؤوس الروم الممزوج بالكولا. يبقي الصبي عينيه على الأرض وهو ينتقل من واحدة إلى الأخرى، مقدمًا المرطبات كما لو كان يؤكد لنا أنه لن يكون هناك شهود. فور أن يخرج نضحك "أتساءل عما يفكر فيه"؟ تهز كارلا رأسها لمجرد الفكرة. يرقص موندين حواجبه في كم المحرمات التي يمكن أن نرتكبها هنا؟ "دعوني أرى" يعدد: "زنا المحارم، الجنس الجماعي، الجنس السحاقي، الجنس مع العذراوات".

t.me/qurssan

"جنس مع العذراوات؟ عمن تتحدث"؟ تتحدى أخته لوسيندا بيد على ردفها.

"نعم" نؤكد، بأيدينا على أردافنا، نواجهه كصف من النسويات.

رمش موندين مرتين. مع كل تعليمه الليبرالي في الولايات المتحدة، وكل ممارسته للجنس هنا وهناك، وكل الضحك المرحب عندما تسرد بنات عمه المتأمركات مغامراتهن، إلا أن أخته هو يجب أن تظلّ طاهرة. "دعونا نغادر" يسرع بنا بعد أن ننتهي من الروم والكولا. بينما نخرج من الجراج تمر خلفنا سيارة نصف نقل عند مدخل الموتيل.

"إيه"! تصيح يويو "هل هذان فيفي ومانويل"؟

يضحك موندين "أحسنا صنعًا"!.

"أحسنا صنعا؟! يا لها من حماقة"! تنفجر ساندي، "هذه أختنا الطفلة تأتي إلى هنا مع رجل يظن أن الواقي الذكري يسبب العجز الجنسي". تأمر كارلا موندين: "ارجع إلى هناك وراءهما"!

"هي أيضًا لها حقوقها" يضحك موندين بينما يقود السيارة عبر البوابة التي يقوم الولد بإغلاقها وراء أضوائنا الخلفية مباشرة.

"هذا ليس مضحكًا" تحذر كارلا بينما نتشاور في دورة المياه بعد عودتنا إلى كابري. " لن تعود إلى الوطن من تلقاء ذاتها. لقد خضعت لعملية غسيل مخ".

تؤكد ساندي: "لن يحتاجا إلى غرفة في موتيل إلا إذا كانا سيمارسان الجنس معًا".

t.me/qurssan

"ذلك بعد ان وعدتنا"! تقول كارلا هازة راسها في انزعاج. هناك بين طاولات الزينة وردية اللون مع سلال الفوط الصغيرة وبودرة التلك وفرش الشعر، بلورنا خطتنا. نمد أيدينا ونتعاهد. تقودنا يويو ب"تحيا الثورة"! بالإضافة إلى الروم والكولا فقد تناولنا بعضا من الديكاري المثلج الذي تشتهر به كابري. الخادمة الشابة التي كانت تستمع إلى رطانتنا الإنجليزية تقدم لنا فوطة يد وردية معطرة تقبلها ساندي وتلوح بها كعلم لنا.

كان يوم السبت الأخير لنا في الجزيرة، وقاطنو المجمع السكني جالسون في شرفة الخالة كارمن يستعيدون الذكريات، بينما يمر أفراد من العائلة لتوديع والدينا وإعطائهما طرودًا وخطابات يريدون إرسالها إلى الولايات المتحدة. بما أن الخال موندو في الحكومة الآن، فهناك دائما أعضاء آخرون من الوزارة وأصدقاء قدامى يأتون للحديث عن العمل السياسي ويطلبون خدمات. الشرفة مقسمة حسب الجنس: يجلس الرجال على أحد جانبيها يدخنون السيجار ويقرعون كؤوس الروم. تستلقي النساء على كراسي البامبو بجوار مصابيح الحائط، مبديات دهشتهن من كل ما يمكن الاندهاش منه.

ينطلق الشباب إلى الكورنيش مع وعد بالعودة مبكرا إلى المنزل. ذهبت المجموعة المعتادة تلك الليلة، لوسيندا وموندين وفيفي وثلاثتنا بالطبع. تقوم كارلا كالعادة بواجبها كمرافقة في العربة نصف النقل ثم تتركهما في كابري. "إنهما يتشاجران مشاجرة كبيرة" تقول عندما تنضم إلينا.

"وما السبب هذه المرة"؟ تسأل ساندي.

t.me/qurssan

"الأشياء المعتادة نفسها" تتنهد كارلا. "فيفي قضت وقتا أطول من اللازم تتحدث مع يورج، وتنورتها أقصر من اللازم، وسترتها ضيقة، بلا بلا بلا".

"فوووم فوووم" تهدر ساندي ويويو.

يضحك مونديس "هذا ما تستحققنه يا بنات".

نعبس وننظر إليه بغضب. عندما يكون في الولايات المتحدة؛ حيث ذهب إلى المدرسة الثانوية وحيث هو الآن في الكلية يكون مثلنا وصديقنا. لكن في الجزيرة يتحول إلى ذكوري يتباهى بالميزات غير العادلة التي يحصل عليها.

وكما هي العادة، كان علينا أن ننتظر المحبين في كابري. قبل عشرين دقيقة من موعد عودتنا إلى المنزل يأخذان كارلا، ونتجه جميعا إلى المنزل مرة أخرى مثل مجموعة كبيرة سعيدة من القريبات العذراوات. ولكننا قررنا الليلة أننا سنقوم بانقلاب على الجادة نفسها التي حوصر فيها الدكتاتور قبل عقد، وجرح في طريقه إلى مواعدة عشيقته. كانت خطة ساعد والدنا في إعدادها، ولكن لم يكملها لأنه في ذلك الوقت كان قد هرب إلى الولايات المتحدة. الليلة سنفضح ستر العاشقين. الخطوة الأولى هي أن نجعل مونديس يوصلنا بالسيارة إلى المنزل. الولاء الذكوري هو ما يُبقي النظام الذكوري مستمرًا، لذا فسيكون مونديس راغبا في حماية مانويل.

t.me/qurssan

تعد لوسيندا خطة تبدو مستوحاة من تلك الخاصة بالفوط الصحية في المطارات. تشكو لأخيها أن الدورة الشهرية قد فاجأتها وتحتاج للذهاب إلى المنزل فورًا. "أعاني من تقلصات رهيبة"، تئن لوسيندا.

"الا يمكنك تناول مسكن للألم"؟ يسأل موندين منزعجًا وشاعرًا بالهيبة أمام غموض الجسد الأنثوي.

تهز لوسيندا رأسها. "ولكنه في المنزل".

يهز موندين رأسه باتجاه أخته. فهو حاميها. كان يراقبها عن كثب منذ مزحتها في الموتيل. "حسنا حسنا سآخذك" يستدير إلينا نحن بنات عمته "عليكن أن تبقين هنا وتغطين على مانويل".

"لا نستطيع أن نبقى هنا بدونك" نذكّره: القاعدة رقم واحد: البنات لا يقفين في الخارج بدون مرافق. "سنقع في مشاكل يا موندين".

يتجهم موندين. ذلك تشدد غير متوقع منا. "حسنا سأقول لهم إني تركتكن هنا مع بعض أبناء العم الذين ظهروا. ثم سأعود من أجلكن. عندها ستكون فيفي ومانويل قد انتهيا مما يفعلان".

انتهيا مما يفعلان! صعقنا تعبيره. لا وقت للمزيد من التأخير. نبتسم ثلاث ابتسامات جافة مثل ابتسامة تشي جيفارا ونقول بحسم: "سنذهب معك".

"ولكن ماذا عن فيفي ومانويل"؟ يسأل موندين مشدوهًا. إذا ظهر الجميع في المجمع السكني ما عدا فيفي ومانويل فسيقع العاشقان في مشكلة كبيرة. القاعدة الثانية: لا تترك الفتاة مع حبيبها دون مرافق.

t.me/qurssan

"اتينا معك وسنعود معك. لا نريد أن نقع في مشاكل" لا تقنع اصوات البنات المهذبات التي تصدر منا ابن عمنا تماما.

يعقد موندين ذراعه على الطاولة "لن أفعل ذلك".

نذكره بنزهة ليلة أمس إلى الموتيل. هل نذكر ذلك لوالده؟ نحن نعرف كيف نهدده، فالمدرسة العسكرية تنتظره دومًا. كما نهدد نحن بنات عمومته الأمريكيات بالحبس في الجزيرة، فالمدرسة العسكرية هي ما ينتظر موندين إن تجاوز الحدود.

ينظر إلينا في عيوننا مباشرة ويطلق كلماته "ما الذي ستفعلنه يا بنات"؟ نقابل نظراته بابتسامات مضادة للرصاص ووجوه حجرية لا يستطيع قصر نظره الذكوري أن يسبر أغوارها.

يبدو ممر المجمع السكني مثل جراج للسيارات المرسيدس. تقول سيارة جيب وحيدة وسيارتان يابانيتان إن هناك بعضا من أفراد الجيل الأصغر أيضا. تلمح لوسيندا سيارة الخالة فيدلينا والعم أورلاندو المرسيدس ذات اللون البرتقالي الباهت، فتهمس "يبدو أننا بصدد مشهد مثير للغاية".

الشرفة مليئة بالأقارب. يسرع موندين إلى ناحية الرجال، عارفًا بأن أول قنبلة ستنفجر بين النساء. نقوم نحن الأخوات بجولتنا المعتادة فنقبل جميع الخالات. يبدو من عيني الخالة فيدلينا المبيضة الغائمة أنها لا ترى تقريبا. "واي واحدة هي الخطيبة"؟ تسأل مضيقة عينيها نحو بنات الأخوات.

"صحيح" تقول مامي "أين فيفي"؟

t.me/qurssan

"مع مانويل" تقول ساندي بنعومة، وبنبرة توحي بأن الأمر اعتيادي بالنسبة لنا.

"وأين هما"؟ تسأل مامي بنبرة حادة.

تهز كارلا كتفيها "كيف لنا أن نعرف"؟

يسود صمت محرج يتردد فيه صدى غير مسموع عن ما سيصيب سمعة فيفي جراء هذا الأمر. تنهدت الخالة كارمن وبسطت الخالة فيدلينا مروحتها ذات الورود فائقة الروعة، بينما ابتسمت لنا الخالة فلورا ابتسامة جامحة سألتنا إن كنا قد قضينا وقتًا لطيفًا. نظرت مامي خلف الجمع إلى پاپي الذي كان يتبادل قصص الدكتاتورية بسعادة مع الرجال الآخرين.

تقف مامي بوجه صلب وتومئ لنا أن نتبعها. نتحرك ثلاثتنا في طابور واحد خلف مامي إلى غرفة نوم الخالة كارمن، حيث تنصب المحكمة الخاصة بها. تأتي الخالة كارمن معنا وتنصحنا بضبط النفس..

فور غلق الباب تفقد مامي أعصابها. أولا توبخ كارلا لأنها بصفتها الأخت الكبرى فهي المسؤولة، وكان لديها أوامر بالبقاء لصيقة بمانويل وفيفي كمرافقة لهما في السيارة. ثم تلقي علينا محاضرة عن كوننا بنات سيئات. أخيرا تقسم أمام خالتنا أن فيفي ستعود معنا. "إذا عرف أبوكن..." تهز أمنا رأسها بينما تفكر في العواقب ثم تقول: "هذا عار على العائلة"..

"رويدًا رويدًا" ترفع الخالة كارمن يدها كي تتوقف أخت زوجها. "لقد عاشت تلك الفتيات في الخارج لوقت طويل فاكتسبن عادات أمريكية".

t.me/qurssan

"عادات أمريكية"! تصيح مامي "إن فيفي تعيش هنا منذ ستة أشهر. هذا ليس عذرًا".

"لا بد أن هناك تفسيرًا"، تقول الخالة كارمن ثم تقرر تغيير المسار. "دعونا لا نتوقع المصائب قبل حدوثها".

تهز مامي رأسها بشكل حاسم: "إن كانت لا تستطيع احترام نفسها هنا فستعود معنا. نقطة! لن أرسلهن بعد الآن ليتسببن في المشاكل"!

تضع الخالة كارمن ذراعيها حولنا "لا تنسي أنهن بناتي أيضا. وهن بنات طيبات لا يثرن المشاكل. لا أتصور ألا أنعم برؤيتهن كل عام".

ننظر إلى بعضنا البعض ونخفض نظرنا لنخفي حيرتنا. نحن أحرار أخيرا، ولكن هنا، وفي اللحظة التي تتأرجح فيها الأبواب منفتحة ونستطيع أن نطير بعيدا عن العش، تنعش محبة الخالة كارمن حنيننا إلى الوطن. إنها مثل تلك التجربة على القرود التي قرأت كارلا عنها في فصل علم النفس الإكلينيكي. تم حبس صغار القرود في القفص لوقت طويل فلم يغادروه عندما تركت الأبواب مفتوحة أخيرا، بل بقوا بالداخل وأخرجوا أذرعتهم عبر القضبان نحو طعامهم الذي يبعد لمسافة قصيرة عن متناولهم.

قرب منتصف الليل نسمع صوت السيارة النصف نقل تجاهد في تسلق الممر. على الشرفة كان الأقارب الزائرون قد رحلوا وبقي سكان المجمع فقط يتحدثون بأصوات منخفضة ومنشغلة. في غرفة نومنا كنا ندافع عن أنفسنا أمام بعضنا. كنا جميعًا نعرف أن فيفي في طريقها إلى المشاكل مع مانويل، ظللنا نصيح "إنها في السادسة عشرة فقط". كانت

t.me/qurssan

تظن أن يمكنها التأقلم على الجزيرة بشكل كامل، أما نحن فكنا ندرك أن هذا غير ممكن.

ولكن مع ذلك كان شعورنا سيئًا جدا عندما اجتاحت فيفي الشاحبة غرفتنا بعد وقت قليل، وبعد تحقيق مضنٍ في غرفة نوم الخالة كارمن. لم تقل شيئًا، ولكنها فتحت الخزانة وبدأت في حزم حقائبها. للحظة شعرنا بالرعب. هل ستهرب مع مانويل؟

سألتها يويو "ما الذي تفعلينه يا فيفي"؟

تستمر فيفي في حزم الملابس من الكومة التي أفرغتها من أحد الأدراج في صمت.

"فيفي"؟ تلمس كارلا كتفها "ماذا حدث"؟ كانت كارلا تسأل عما حدث في الشرفة لكن تلك النظرة الشاردة على وجه فيفي جعلتها تريد أن تعرف ما حدث قبل ذلك أيضًا.. تستدير فيفي نحونا وعيونها حمراء وباكية. تقول "خونة". صوت حقيبة ملابسها وهي تنغلق يضفي على الاتهام شعورًا نهائيًّا مخيفًا. عند الباب ترفع ذقنها بعزة ثم نسمعها تخطو في البهو نحو غرفة ابنة عمنا كارمنشيتا.

ننظر إلى بعضنا البعض كما لو كنا نقول "ستتجاوزه" قاصدات مانويل، قاصدات غضبها منا، قاصدات خوفها من حياتها نفسها التي تمتد أمامها كما هو الحال بالنسبة لنا جميعًا، مثل منطقة موحشة قبل أن يطأ أول مستكشف بقدمه على الرمال العذراء.

t.me/qurssan

ابنة الاختراع

مامي، پاپي، يويو

حاولت لاورا جارسيا لفترة بعد أن وصلت إلى هذه البلاد أن تخترع شيئًا ما. كانت أفكارها تأتي دائمًا بَعْد رحلات استطلاعية تقوم بها مع بناتها إلى المتاجر الكبرى؛ كي ترى عجائب هذا البلد الجديد. في أيام الأحد التي لا يعمل فيها، كان كارلوس يشحن البنات نحو تمثال الحرية أو جسر بروكلين أو مركز روكفلر، ولكن من وجهة نظر لاورا كانت تلك عجائب خاصة بالرجال. كانت الكنوز الحقيقية التي تسعى خلفها النساء بالأسفل في أقسام الأدوات المنزلية.

تأخذ لاورا وبناتها إلى السلم الكهربائي مندهشات من كون السلم يتحرك. كانت تمازحهن بأن هذا قد يكون السلم الذي رآه يعقوب يصعد ويهبط بالملائكة إلى السماء. فور أن تتريث أمام عرض، تظهر فتاة مبيعات مرحة، تفكر بدون شك أن أمًّا شابة تقطر خلفها أربع بنات هي النموذج المثالي المناسب للثلاجة الجديدة التي تذيب الثلج المتراكم تلقائيًّا أو غسالة الملابس ذات الجهد العالي ودورة النقع قبل الغسيل. كانت لاورا تنتبه بشدة خلال الشرح وتسأل أسئلة ذكية، ولكن وفي اللحظة الأخيرة تقول إنها تود مراجعة الأمر مع زوجها أولاً. في الطريق إلى المنزل

t.me/qurssan

تفشل الفتيات مهما حاولن في جعل امهن تشتبك معهن في حوار، لأنها، وبوحي مما سمعته لتوها، كانت قد بدأت في الاختراع.

لم تكن تضع أي شيء فعلي على الورق حتى تشرف على استقرار بيتها ليلاً. على جانبه من السرير يكون زوجها مغشيًّا عليه منذ ساعة بجريدته الإسبانية ملقاة على صدره، ونظارته منتصبة على الطاولة المجاورة للسرير، تلقي نظرات مرعبة نحو الغرفة المظلمة كحارس بلا جسد. وفي جانبها المضيء وبوسائدها مرتبة خلف ظهرها، تجلس لاورا وتخترع. على حجرها يستقر واحد من الدفاتر العديدة التي يعود بها زوجها من عيادته، كهدايا من شركات الأدوية التي تعلن عن المهدئات أو المضادات الحيوية أو كريمات البشرة. كانت تعمل على رسم شيء مألوف، ولكنه مرسوم من منظور قريب، كي تستطيع أن تضيف إليه فوهة خاصة أو مقبضًا أكثر ملاءمة، فيبدو الشيء غريبًا. كانت بناتها يضحكن من الشخبطات الغريبة التي يجدنها في أدراج المطبخ أو في الرف الخلفي في حمام الطابق الأسفل. في إحدى المرات كانت يويو على يقين من أن أمها قد رسمت عضوًا ذكريًّا. أرت أخواتها ما وجدته، وبوجوه متكلفة تدعي الخجل سألن أمهن عما تفعله، فشرحت لهن أن تلك كانت إحدى محاولاتها الفاشلة، فقد كانت تنوي اختراع كوب للأطفال بقسمين وماصة ضخمة متصلة به.

تذهب إليها الفتيات في غرفة نومها ليلاً، عندما يبدو أن لديها وقتًا للتحدث معهن. حين يواجهن مشاكل في المدرسة أو يرِدن إقناع أبيهن بأن يسمح لهن بالذهاب إلى المدينة أو المركز التجاري أو السينما، في وضح النهار يا مامي!

t.me/qurssan

كانت لاورا تلوح لهن بأن يخرجن من غرفتها "مشكلتكن يا بنات...". كانت المشكلة دائمًا ما تنحصر في أنهن يردن أن يصبحن امريكيات وابوهن –وامهن أيضًا في البداية– لن يسمح بذلك.

كانت تهددهن: "ستُفقدْنني عقلي يا بنات"! تهددهن إن استمررن في الإلحاح. "عندما ينتهي بي الأمر في مستشفى المجانين ستشعرن بالندم"!

كانت تتحدث بالإنجليزية عندما تجادلهن، وكانت إنجليزيتها مزيجًا من التعابير والأمثال التي تُظهر أنها لا تزال مبتدئة.

إذا أصر زوجها أن تتحدث بالإسبانية مع البنات كي لا ينسين لغتهن الأم تقول منفعلةً: "إذا كنتَ في روما فافعل كما يفعل الرومان".

يويو سليطة اللسان، التي أصبحت المتحدثة باسم أخواتها، صممت على موقفها في غرفة نوم أمها "لن نذهب إلى هذه المدرسة بعد الآن يا مامي"!

"مفروض عليكن الذهاب"، تجيبها الأم، وقد اتسعت عيناها من القلق، "في هذا البلد عدم الذهاب إلى المدرسة مخالف للقانون. هل تريدين أن يطردونا"؟

"وهل تريدين أن نُقتَل؟ كان هؤلاء الأولاد يلقوننا بالحجارة اليوم"!

"العصي والحجارة لا تكسر العظام" أنشدت. كانت يويو تستطيع أن تعرف من التعبير على وجه الأم أن الأمر كان وكأن أحد تلك الأحجار التي تصوب على بناتها قد أصابتها. ولكنها دائما كانت تدعي أنّهن

t.me/qurssan

مخططات. "ما الذي فعلته كي تستفزيهم؟ الشجار يستدعي وجود طرفين كما تعلمين".

"شكرًا، شكرًا جزيلاً يا ماما"! اندفعت يويو خارج الغرفة وإلى غرفتها. لا تناديها بناتها ماما إلا عندما يردن إشعارها بمدى خذلانها لهن في هذه البلد. كانت "مامي" ناجحة، تحدث ضجة وتوبخ وتعطي نصائح، ولكنها كانت شديدة السوء ك"والدة تصادق بناتها"، وفاشلة حقًا ك"أم".

ها قد عادت إلى قلمها، ودفترها وتأتأتها وتمزيقها للأوراق، مستسلمة أخيرًا، وممسكة بجريدة النيويورك تايمز. ولكن في بعض الليالي إذا أتتها فكرة جيدة تسرع إلى غرفة يويو بوجه محمر ودفترها في يدها، وبطرقة باب عابرة تفتح الباب على مصراعيه "لدي شيء هل أريه لكِ يا تشيكيتا"!

كان هذا هو الوقت الذي تقضيه يويو مع نفسها بعد انتهاء فروضها المدرسية، بينما أخواتها لا يزلْن في الطابق الأسفل يشاهدن التليفزيون في القبو. محنية على المكتب الصغير وقد أطفأت مصباح السقف ومصباح مكتبها يلقي ضوءًا شجيًّا على ورقتها فقط، بينما بقية الغرفة في الظلام الدافئ الناعم التلقائي، تكتب قصائدها السرية بلغتها الجديدة.

"ستفسدين عيونك"! بادرت لاورا مضيئة مصباح السقف الساطع، طاردة أي شغف خجول كانت يويو قد بدأت تستدرجه بخيط كتابتها الأزرق من متاهة مشاعرها.

"أوه يا مامي"! صاحت يويو وعيونها ترمش نحو أمها "أنا أكتب".

t.me/qurssan

"نعم يا كوكيتا" كان ذلك اسم التدليل الجماعي لأي واحدة منهن في ساعات الرضا. "يا كوكيتا، عندما أكسب مليونا سأشتري لك آلة كاتبة خاصة بك وحدك" (كانت يويو قد بدأت تلح على أمها من أجل واحدة مثل التي جلبها أبوها ليملأ بها استمارات الطلبات في المنزل) "مسح جوخ" هو ما تقوله عندما يحاول شخص ما تملقها. مسحت لها الجوخ وأمعنت في المسح: "سأؤجر لك كاتبًا خاصًا". استلقت لاورا على الفراش ومدت يدها بالدفتر "خمني يا كوكيتا"! تفحصت يويو الرسم لوهلة. ربما يتدفق الصابون من فوهة دش عندما تدير المقبض بطريقة معينة؟ أو ربما قهوة سريعة التحضير ممزوجة بالمبيّض؟ أو كبسولات تضخ الماء للنباتات في مواعيد محددة حين يكون صاحبها غائبًا؟ أو سلسلة مفاتيح مزودة بمنبه يطلق صافرة عندما يوشك وقت انتظار السيارة على الانتهاء، أو تصدر صوتًا يساعد صاحبها في العثور على مفاتيحه إن فقدها؟ أما الرسم الأشهر على الإطلاق فكان الرجل الذي يجر شكل مربع بحبل... حقيبة سفر على عجل؟ "نعم بالطبع" قالت يويو لتجاريها. "هذا ما يحتاجه كل منزل: دش مثل مغسلة السيارة، سلسلة مفاتيح تدق مثل قنبلة، حقيبة لها مقود"! أصبحنا نتندر عليها: مامي توماس أديسون ومامي بنجامين فرانكلين...

تجهمت مامي. "هيا! فكري وخمني"! بعد تخمين خاطئ واحد آخر، تشير مامي بقلمها نحو المعالم المختلفة لأعجوبتها الجديدة وتبدأ في الشرح. "هل تتذكرين تلك المرة التي ذهبنا فيها بالسيارة إلى بير ماونتين وأدركنا أننا قد نسينا أن نأخذ معنا فتاحة للعلب"؟ عندما حان وقت الطعام لم يكن لدينا وسيلة كي نفتح علب المرطبات"؟ كان ذلك قبل العلب سهلة الفتح، والتي ادعت مامي أنّها كانت على وشك اختراعها كذلك. "هل

t.me/qurssan

تعرفين ما هذه"؟ هزت يويو راسها بالنفي. "إنه مصد سيارة، لكن انظري لهذا الجزء... إنه فتاحة علب يمكن نزعها وإعادتها. بسيط جدًا لكن ضروري، اليس كذلك "؟

"نعم يا مامي. يجب أن تسجلي براءة اختراعه". هزت يويو كتفيها بينما نزعت أمها الورقة من الدفتر وطوتها بحرص من الطرف إلى الطرف كما لو كانت ستحتفظ بها، ولكنها رمتها في سلة المهملات في طريقها خارج الغرفة، واطلقت ضحكة صغيرة وكأنها تخلي مسؤوليتها. "هذا مجرد واحد من عشرات آخرين".

لم تكن أي من بناتها تشجعها كثيرًا. كن يكرهن أن تمضي وقتها في تلك الاختراعات الغبية. كنّ يحاولن الاندماج في أمريكا وسط الأمريكيين، ويحتَجن إلى مساعدة كي يميزن هويّتهن، ولماذا كان يطلق الأولاد الأيرلنديون عليهن لفظ البرابرة، وأجدادهم هم أيضًا كانوا يسمونهم "ميكس" تحقيرًا؟ لماذا أتين إلى هذا البلد من الأصل؟ أشياء مهمة وأساسية وقاطعة، ولا تملك أمهن نفسها لحظة لتعاونهن في الإجابة لانشغالها باختراع أدوات لتسهيل حياة الأمهات الأمريكيات.

احيانا كانت يويو تتحداها. "لماذا يا مامي؟ لماذا تفعلين ذلك؟ لن تحصلي على أي أموال، الأمريكيون فكروا في كل شيء بالفعل. أنت تعرفين ذلك".

"وربما لم يفكروا. ربما، فقط ربما، فاتهم شيء مهم. بالصبر والهدوء يمكن حتى للجحش أن يتسلّق نخلة". كانت هذه المقولة هي أحد أمثالها الدومينيكية الشعبية من الدومينيكان، والتي استوردتها إلى إنجليزيتها المختلطة.

t.me/qurssan

"ولكن ما هو الهدف"! تصرّ يويو.

"الهدف! الهدف! هل يجب أن يكون لكل شيء هدف؟ لماذا تكتبين قصائد"؟

كان على يويو أن تعترف بأن أمها على حق هنا. ومع ذلك في تراتبية الأمور بدت القصيدة أهم بكثير من قصرية تصدر موسيقى عندما يجلس عليها الطفل الذي يتمرّن على التبول.

تحدثت البنات الأربع عن الأمر فيما بينهن، كما يفعلن الآن فيما يخص الأمور الكثيرة المحيرة في هذا البلد الجديد. "من الأفضل أن تعيد اختراع العجلة على أن تتبعنا طوال الوقت"، أشارت الكبرى، كارلا. كانت طاقة أمهن الجبارة قد أصبحت تستنزف قدرتهن على تقرير مصيرهن. دعوها تنشغل بمشروع ما. ما الضرر في ذلك؟ كما أنها تحتاج مثل هذا التقدير. كانت تحصل على ذلك التقدير تلقائيا في البلد القديم لكونها من عائلة دي لا تور. "جارسيا دي لا تور". كانت لاورا تؤكد بحرص في بداية وصولها، وهي تعرف نفسها باسم عائلتها مضافًا إلى اسم عائلة زوجها. ولكن الابتسامات الفارغة لم تكن قد سمعت بهذا الاسم قط. لكنّها ستريهم. ستثبت لهؤلاء الأمريكيين ما تستطيع امرأة ذكية أن تفعله بقلم ودفتر.

فاتها القطار مرةً في اللحظة الأخيرة. كانت تحب أن تقرأ النيويورك تايمز في السرير قبل إطفاء الأنوار كل ليلة؛ كي تعرف فيم يفكر الأمريكيون. في إحدى الليالي أطلقت صيحة أيقظت زوجها النائم بجوارها. نهض مصعوقًا ومد يده إلى نظارته فأطاح بها إلى آخر الحجرة من فزعه. "ما الأمر؟ ما الأمر"؟ ماذا حدث"؟ كان هناك رعب في صوته.

t.me/qurssan

الرعب نفسه الذي سمعته في جمهورية الدومينيكان قبل مغادرتهم. كانوا مراقبين هناك. كان متبعًا. لم يستطيعا الكلام بالطبع مع أنهما كانا يهمسان لبعضهما ليلاً في ظلام فراشهما. الآن، في أمريكا، كان آمنًا، وحتى ناجحًا. كان المركز الطبي الخاص به في البرونكس ممتلئًا بالمرضى والمصابين بالحنين إلى الوطن. ولكن في أحلامه كان يعود إلى تلك الأيام الفظيعة والليالي الطويلة، وقد أكدت صرخة زوجته خوفه السري: هم لم يهربوا وما زالوا هناك، وقد أتت المخابرات العسكرية إليهم أخيرًا.

"أتذكر كوتشو عندما أريتك الحقيبة ذات العجل الصغير كي لا نضطر لأن نحمل حقائب ثقيلة، عندما نسافر؟ سرق أحدهم فكرتي وحصل على مليون دولار"! هزت الصحيفة في وجهه "انظر، انظر! هذا الرجل لم يكن أبله! لم يؤجل عمل اليوم إلى الغد. ظللت أقول لك إنه في أحد الأيام ستبحر السفينة ليلا بدوني"! هزت إصبعها في وجه زوجها وبناتها ضاحكة إحدى تلك الضحكات المخيفة التي يطلقها المجانين في الأفلام. كانت البنات الأربع قد تجمعن في غرفتها. نظرن إلى أمهن وإلى بعضهن البعض. ربما كن جميعا يفكرن في الشيء نفسه. ألن يكون غريبا وحزينا أن ينتهي الأمر بمامي في مستشفى المجانين؟

"نعم! نعم"! لوحت لهن أخيرا أن يخرجن من الغرفة "لا جدوى من البكاء على الحليب المسكوب بالتأكيد".

عجل حقيبة السفر هو ما أوقف لاورا. لقد التقط ذهنها فكرة جيدة، ومع ذلك فقد نال سارق الفكرة كل التقدير وكل المال. ما فائدة منافسة الأمريكيين: سيكون لديهم دائما ميزة مسبقة: إنّها بلدهم في نهاية الأمر. الأفضل البقاء قريبا من البيت. تلفتت حولها لتبحث عمّا توليه

t.me/qurssan

عنايتها -وتفادت بناتها نظراتها- فوجدت أن عيادة زوجها في احتياج لها. لعدة أيام كل اسبوع كانت ترتدي زيًا رسميًا ابيض بدبوس يحمل اسمها مثبتًا على الياقة، وبكيس تسوق ممتلئ بأدوات النظافة والخرق تركب سيارة زوجها معه إلى منطقة البرونكس. في الطريق كانت تنظم درج القفازات أو تنزع بطاقة العنوان البريدي من المجلات التي يشترونها لغرفة الانتظار، لأنها كانت قد قرأت في مكان ما، أن المرضى المدمنين كانوا يعرفون عبر تلك الملصقات أين يسكن الأطباء، ويسرقون بيوتهم بحثًا عن الحقن. كانت تعد الدفاتر ليلاً وتملأ الخانات بمقدار الأموال التي حصلوا عليها في ذلك اليوم. من كان لديه وقت ليخترع أشياء سخيفة؟!

أمسكت بقلمها ودفترها مرة واحدة أخيرة. ولكن ذلك لتساعد إحدى بناتها. في الصف التاسع اختارت الراهبة ماري مدرسة اللغة الإنجليزية يويو كي تلقي خطبة يوم المدرس خلال طابور المدرسة. هناك في جمهورية الدومينيكان عندما كانت يويو صغيرة كانت تلميذة سيئة. لم يكن أي شخص يستطيع جعلها تجلس ممسكة بكتاب، ولكن في نيويورك احتاجت أن تستقر في مكان ما، وبما أن سكان المدينة الأصليين لم يكونوا ودودين، والبلد غير مرحب، فقد تجذرت في اللغة. وعند بلوغها المرحلة الثانوية كانت الراهبات يقرأن قصصها وموضوعات الإنشاء بصوت عالٍ أمام الفصل بأكمله.

ولكن هاجس إلقاء خطاب يتملق المدرسين عطّل مخيلتها. في البداية لم تكن تريد كتابة ذلك الخطاب، ثم بدا أنها غير قادرة على ذلك. كان يجب عليها أن تفكر فيه "كشرف كبير" كما أسماه أبوها. ولكنها كانت مرتعبة. كانت لا تزال تملك لكنة بسيطة ولم تكن تحب التحدث أمام الجمهور معرضة نفسها لسخرية زميلاتها. كما أن الأمر لم يتطلب الكثير

t.me/qurssan

من التخمين لإدراك أن إلقاء ثناء على دير ممتلئ بالراهبات السمينات المجنونات ليس هو الطريقة التي تتودد بها لزملائها.

ولكنها لم تكن تعرف كيف تتخلص من الأمر. ليلة بعد ليلة كانت تجلس إلى مكتبها على أمل أن تنجز خطابًا صغيرًا سريعًا وغير ملزم، ولكنها لم تستطع أن تسطر شيئًا.

في عطلة نهاية الأسبوع السابقة على طابور صباح يوم الإثنين اصيبت يويو بالهلع. يجب على أمها أن تتصل غدا وتقول إن يويو في المستشفى في غيبوبة. حاولت لاورا أن تهدئها: "تذكري كيف لم يجد السيد لينكولن ما يقول في الخطاب الذي ألقاه بمقابر جتيزبرج الوطنية ثم فجأة انهمر الكلام: " منذ سبعة وثمانين عامًا... بدأت في التلاوة. "سيخطر على بالك شيء ما إذا هدأت فقط. سترين، كما يقول الأمريكيون الحاجة أم الاختراع. سأساعدك".

حوّلت أمها كل طاقتها في عطلة نهاية الأسبوع تلك نحو مساعدة يويو في كتابة خطبتها. "من فضلك يا مامي، اتركيني وحدي. من فضلك" توسلت لها يويو. لكن لم تكد يويو تتخلص من مشتت حتى يأتيها الآخر.. ظل أبوها يدخل برأسه من الباب كل فترة فقط كي يرى إن كانت يويو "قد أتمت التزاماتها"، وهي عبارة كان يستخدمها عندما كانت البنات أصغر سنًّا حتى يتأكد من ذهابهن إلى المرحاض قبل القيام برحلة بالسيارة. قام بتلاوة الخطبة التي ألقاها بمناسبة التخرج من المدرسة الثانوية على مائدة العشاء عدة مرات في نهاية الأسبوع تلك. أعطى يويو إرشادات حول الإلقاء وملحوظات عن الخطباء العظام وأساليبهم (التواضع والمديح والصمت المفعم بالانفعالات كانت نصائحه المفضلة).

t.me/qurssan

جلست لاورا على الجانب الآخر من الطاولة، وكانت الوحيدة التي تبدو كأنها تستمع إليه. كانت يويو وأخواتها ينسين إسبانيتهن، وكانت بلاغة أبيهن الرسمية المنمقة عصيّة على فهمهن. ولكن لاورا كانت تبتسم بنعومة لنفسها وتدير الصحن الدوار في منتصف الطاولة مرة بعد الأخرى كما لو كان المحرك الرئيسي، الترس الأول في اهتمامها.

في أمسية الأحد تلك كنت يويو تقرأ بعض الشعر كي تلهم نفسها: قصائد لويتمان من كتاب قديم بغلاف منقوش، كان أبوها قد التقطه من محل للأشياء القديمة بجوار مكتبه.

"إني أحتفي بنفسي وأغني لنفسي...
يبجل شعري من يتعلم منه أن يدمر المعلم".

أدهشتها كلمات الشاعر وأثارتها. كانت قد تعودت على الشعر الذي تقرأه الراهبات عليهن، الأدب الذي يتناول المشاعر الرصينة والقصائد ذات الرسالة والنصوص الخاضعة للرقابة. ولكن ها هو رجل من لحم ودمٍ يتجشأ ويضحك ويعرق في قصائده. من يلمس هذا الكتاب يلمس رجلاً.

تلك الليلة أخيرًا، بدأت تكتب بتهور، ثلاث صفحات، خمس صفحات، ترفع رأسها مرة فقط كي ترى والدها يمر بالبهو على أطراف أصابعه. عندما انتهت يويو قرأت كلماتها مرة أخرى وامتلأت عيناها بالدموع. أخيرا كانت تشبه نفسها بالإنجليزية!

فور أن انتهت من النسخة الأولى، نادت أمها إلى غرفتها. استمعت لاورا بانتباه، بينما يويو تقرأ الخطبة بصوت عالٍ، وفي النهاية كانت

t.me/qurssan

عيناها تلمعان أيضًا. كان وجهها ناعما ودافئا وفخورا. "نعم يوير. ستكونين من تضعين اسمنا تحت الأضواء في هذه البلد! هذه خطبة جميلة جيلة وأريد لأبيكِ أن يسمعها قبل أن يذهب إلى فراشه. ثم سأطبعها لك، حسنا"؟

انطلقتا عبر البهو، الأم وابنتها، بوجوه محتقنة بالإطراء إلى غرفة النوم الرئيسية، حيث كان كارلوس مستندًا على وسائده لا يزال مستيقظًا يقرأ جرائد دومينيكانية صدرت منذ عدة أيام. الآن وبعد سقوط الدكتاتورية أصبح مهتما بمصير بلده مرة أخرى. ستقيم الحكومة الانتقالية أول انتخابات حرة منذ ثلاثين عامًا. كان التاريخ يُصنع، الحرية والأمل في الأجواء مرة أخرى. لا تزال هناك بعض الأسئلة في رأسه حول عودته بأسرته مرة أخرى إلى الجزيرة. ولكن لاورا تعودت على الحياة هنا، ولا تريد أن تعود إلى البلد القديمة؛ حيث كانت مجرد زوجة وأم (فاشلة في ذلك حيث إنها لم تلد الابن المطلوب)، سواء كانت من عائلة دي لا تور أم لا. أن تكون نكرة مستقلة أفضل من عبدة منزل من الطبقة الراقية. لم تصرح مباشرة بمعارضة خطط زوجها. عوضا عن ذلك كانت تحتج على قراءته للصحف في السرير موسخا شراشفهم بتلك الجرائد التابلويد الأجنبية المطبوعة برداءة. ستدعي أن "التايمز ليست بهذا السوء" إذا حاول زوجها المحاججة بأنهما يشتركان في العادة القذرة نفسها.

وضع كارلوس الجريدة لحظة أن رأى زوجته وابنته يدخلان، وأشرق وجهه كما لو أن زوجته قد أتت لتخبره أنها أنجبت ذكرًا. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وهو يقول، "الخطبة"؟.

t.me/qurssan

"إنها جميلة جدًا يا كوكو" قالت لاورا وهي تخفض صوت التلفزيون. جلست على السرير عند قدميه. يويو وقفت أمامهما حاجبة منظر الجنود في المروحية التي تهبط وسط تقارير مكتومة عن طلقات نار وانفجارات. منذ بضعة اسابيع كان ذلك عند شواطئ جمهورية الدومينيكان. الآن هم يفقدون غابات جنوب شرق آسيا. أومأت لها أمها كي تبدأ في القراءة.

لم تكن يويو تحتاج إلى الكثير من التشجيع فبدأت بحماس أو "دخلت في النار بأنفها" كما كانت أمها تردد في إحدى مقولاتها. وبدأت من البداية حتى النهاية بدون أن تنظر إلى أعلى. عندما انتهت كانت خجلة قليلا من فخرها بكلماتها. ادَّعت أنها تتلعثم في عبارة أو اثنتين، ثم نظرت بتساؤل إلى والديها. كان وجه لاورا مشرقا. استدارت يويو لتشارك أباها في فخرها.

صدم التعبير على وجهه كلاً من الأم والابنة. فتح كارلوس فمه الخالي من الأسنان مشكلا دائرة معتمة. أعمل نظراته في يويو ثم ألتفت إلى لاورا، وبإسبانية لا تكاد تسمع كما لو كان هناك أجهزة تنصت أو مخبرون في كل مكان، همس لزوجته: "ستسمحين لها بقراءة هذا"؟ اندفع حاجبا لاورا إلى الأعلى وسقط فمها مفتوحا. في البلد القديمة كان يمكن لأي همسة تحدٍّ للسلطة أن تأتي برجال الشرطة السرية في سياراتهم الفولكس فاجن السوداء، ولكن هذه أمريكا. يمكن للناس أن يقولوا ما يفكرون فيه "ما الخطأ في خطبتها"؟ سألته لاورا.

"ما الخطأ في خطبتها"؟ هز كارلوس رأسه نحوها. كان غضبه دائما مخيفا أكثر بإنجليزيته الركيكة. كما لو كان يشوه اللغة في خضم غضبه – والآن لا شيء يقف بينهم وبين غضبه الفج الغبي. "ما الخطأ؟ سأقول لك ما الخطأ. إنه خطاب لا يظهر أي امتنان. إنه متباهٍ. أحتفي بنفسي. أفضل

t.me/qurssan

الطلاب يتعلم ان يحطم أستاذه"؟ سخر من كلمات يويو المنقولة عن ويتمان. "هذا عصيان. إنه لا يصح. إنه عدم احترام لمعلميكِ"! في غضبه نسي خوفه من الجواسيس المتخيلين، فصار صوته يعلو مع كل إساءة يكتشف أن يويو قد ارتكبتها. واخيرا صاح فيها: "أنا كأبيكِ أمنعك من إلقاء هذه الخطبة"!

قفزت لاورا واقفة، وهي إشارة لأنها على وشك إطلاق خطبة خاصة بها. كانت امرأة صغيرة الحجم، وكانت تلقي جميع منطوقاتها وهي واقفة، إما كي تصل إلى مدى أبعد، وإما لأنها احتفظت بتلك العادة من صباها في مدرسة الدير؛ حيث كان الشخص يُطلب منه حرفيًا يعتلي المنصة كي يتحدث. وقفت بجوار يويو كتفًا بكتف. نظرتا إلى الأسفل نحو كارلوس "هذه ليست نبرة ملائمة للحديث".

كان كارلوس غاضبا بحق الآن. كان من الشر بما يكفي أن تصير ابنته متمردةً، ولكن ها هي زوجته تضم قواها إليها. قريبا سيكون محاطا بمنزل كامل من النساء الأمريكيات المستقلات. قفز هو أيضا من السرير راميا الأغطية. طارت الجريدة الإسبانية عبر الغرفة. انتزع الخطاب من بين يدي يويو وأمسكه أمام عيني الفتاة المتسعة بنظرة انتقامية مجنونة في عينيه، ثم مزقه إلى نتف مرة واثنتين وثلاثًا وعددا لا يُحصى من المرات.

"هل أنت مجنون"؟ اندفعت لاورا نحوه "هل جننت؟ ما مزقته هو خطبتها ليوم الغد"!

"هل جننت أنتِ"؟ أطاح بها جانبًا "ستسمحين لها أن تقرأ هذا، هذه الإهانة لمعلميها"؟

"إهانة لمعلميها"!

t.me/qurssan

"إهانة لمعلميها"! انقبضت قسمات لاورا فأصبح وجهها كورقة مجعدة كتبت عليها رسالة حب لزوجها... ذلك الرجل التعيس الذي تطارده الأشباح. "هذه أمريكا يا بابي، أمريكا! لم تعد تعيش في بلد همجي"!

في تلك الأثناء كانت يويو جاثمة على ركبتيها تبكي بحرقة، تلملم مِزَق الخطبة على أمل أن تستطيع لصقها ببعضها البعض مرة أخرى قبل موعد التجمع صباح الغد. ولكن حتى لو حاولت عرافة أن تستخرج أي منطق من تلك القصاصات الورقية الضئيلة فلن تستطيع. كان كل أمل قد ضاع. "لقد دمرها، لقد دمرها" ناحت يويو وهي تلتقط حفنة من المزق.

في الأغلب لو كانت قد فكرت للحظة في الأمر لما فعلت ما فعلته بعد ذلك. كانت ستدرك أن أباها قد خسر إخوة وأصدقاء بسبب الدكتاتور تروخيو. وحتى نهاية عمره ستظلّ تطارده أشباح الدم في الشوارع والاعتقالات في أواخر الليل. حتى بعد كل تلك السنوات كان ينكمش إذا مرت به سيارة فولكس فاجن سوداء في الطريق. ويخاف من أي شخص في حلة رسمية: حتى مسؤول موقف السيارات وهو يناولهم تذكرة الانتظار، وحارس المتحف، إذ يأتي نحوه ليقول له ألا يقترب بشكل زائد من لوحة جويا المفضلة لديه.

على ركبتيها فكرت يويو في أسوأ شيء يمكن أن تقوله لأبيها. جمعت حفنة من القصاصات، ووقفت وألقتها في وجهه. وفي همس منخفض قبيح نعتته- باللقب الكريه للديكتاتور تروخيو: "تشابيتا! لست سوى تشابيتا آخر"!

t.me/qurssan

لم يستغرق والد يويو اكثر من لحظة قبل أن يستوعب اسم الشهرة الكريه ويتبعها. تسابقا عبر البهو ولكن يويو كانت أسرع منه ووصلت لل غرفتها في الوقت المناسب وأغلقت الباب، بينما أبوها يلقي بثقله عليه. اطلق اللعنات على رأسها وأمرها بسلطته كوالد أن تفتح الباب! اعتصر مقبض الباب بلا جدوى. أنقذ يويو في تلك الليلة حب أمها للأدوات. كانت لاورا قد أتت بصانع اقفال كي يضع أقفالا جيدة على أبواب غرف النوم بعد أن تم اقتحام البيت مرة وهم غائبون. الآن، إذا اقتحم البيت لصوص مرة اخرى وكانت العائلة في المنزل، فسوف يضطر اللصوص للتعامل مع طاقم آخر من الأقفال..

"لولو" قالت وهي تحاول تهدئته. "لا تفسد أقفالي الجديدة".

أخيرًا هدأ بالفعل، بعد أن استهلك غضبه. سمعت يويو خطواتهما تتراجع عبر البهو، ثم بابهما وهو ينغلق. ثم أصوات مكتومة، صوت أمها يرتفع في غضب، ثم في استمالة، وهمهمات أبيها الأكثر عمقا وهو يفسر ويدافع عن نفسه. صمت البيت للحظة قبل أن تسمع يويو عن بعد صوت طلقات البنادق والانفجارات والصوت الجاد والمعتد بنفسه لمذيعين يحكون عن حروبهم التليفزيونية.

بعد وقت قصير كان هناك طرقات هادئة على باب يويو أعقبتها محاولة مترددة مع مقبض الباب. "تشيكيتا"؟ همست أمها "افتحي يا تشيكيتا".

نوحت يويو "اذهبي" ولكن كلتيهما كانتا تعرفان أنها سعيدة؛ لأن أمها جاءت لها، وكانت تحتاج دقيقة من الاحتجاج لإنقاذ ماء وجهها.

t.me/qurssan

لفقنا خطبة معًا من صفحتين مختصرتين من المجاملات الفاترة والمقولات الشائعة المهذبة عن المعلمين. خطبة شكَّلتها الحاجة وبدون الكثير من الابتكار من الأم وابنتها، حتى وقت متأخر من الليل على أحد الدفاتر التي كانت لاورا تستخدمها لاختراعاتها. بعد كتابتها طبعتها لاورا، بينما تقف يويو مصححة أخطاء أمها في الأسماء والأمثال.

عادت يويو إلى المنزل في اليوم التالي بقصة عن نجاح الطابور. شعرت الراهبات بالإطراء ووقف الجمهور تحيةً لـ"معلمينا المخلصين" وهو ما اقترحت لاورا أن يفعلوه في نهاية الخطبة.

صفقت لاورا بيديها بعد أن أعادت يويو تمثيل اللحظة. "سرقت ذلك من خطبة أبيكِ، هل تتذكرين؟ هل تتذكرين كيف وضع ذلك في النهاية"؟ اقتبست لاورا من خطاب الأب بالإسبانية، ثم ترجمت ليويو إلى الإنجليزية.

تلك الليلة راقبت يويو الأب من نافذة البهو بالطابق الأعلى؛ حيث تراجعت لحظة أن سمعت سيارته تصطف أمام المنزل. أتى والدها ببطء عبر المدخل بتعبير متجهم على وجهه، بينما يقبض على صندوق ضخم وثقيل من الكارتون. عند الباب الأمامي وضع الصندوق بحرص وتحسس جميع جيوبه بحثًا عن مفاتيح المنزل (لو فقط كان لديه سلسلة مفاتيح لاورا التي تصدر صوتا!) يويو سمعت طقطقة الأقفال بالأسفل. أنصتت بينما يعافر للمرور بالصندوق من المدخل الضيق. نادى اسمها عدة مرات، ولكنها لم تجاوبه.

"يا ابنتي، أبوكِ يحبكِ كثيرًا"، قال لها من أسفل الدرج، "هو فقط يريد أن يحميكِ"، أخيرًا صعدت أمها وترجت يويو أن تهبط وتتصالح

t.me/qurssan

معه "لم يقصد أبوكِ أي أذى. يجب أن تعذريه. من الأفضل دائمًا أن ندع الذي فات يذهب، أليس كذلك"؟

بالأسفل وجدت يويو أباها يعد آلة كاتبة كهربائية جديدة على طاولة المطبخ. كانت أفضل حتى من تلك الخاصة بأمها، فقد حرص على شرائها بكل المواصفات الإضافية... حامل بلاستيكي بحروف اسم يويو ملصقة تحت المقبض، إبزيم لإبقاء الورقة منتصبة أثناء الكتابة، أسطوانة محو الأخطاء، زر أتوماتيكي للهامش، غطاء بلاستيكي مثل غطاء آلة تحميص الخبز كي تحميها من الغبار. حتى أمها لم تكن تستطيع اختراع مثل تلك الآلة!

ولكن أيام اختراعات لاورا كانت قد انتهت، بينما تبدأ أيام نجاح يويو في أرجاء المدرسة. وبدلاً من حقائب السفر ذات العجلات التي تذكرها العائلة كلّها، تعتقد يويو أن الخطبة هي آخر اختراعات أمها. وكأن الأم قد مررت إلى يويو قلمها ودفترها وقالت: "حسنًا تشيكيتا، ها هي المسؤولية، جربيها".

t.me/qurssan

تعـــدٌ

كارلا

في اليوم الذي أتمت فيه عائلة جارسيا عامًا كاملاً منذ وصولها للولايات المتحدة، أقاموا احتفالاً على العشاء. خبزت مامي كعكة ورشقوا شمعة في منتصفها. "خمنوا ما المناسبة"؟ نظرت حول الطاولة إلى وجوه بناتها المندهشة. بدأ پاپي في إلقاء خطبة: "في مثل هذا اليوم منذ عام وصلنا إلى ضفاف هذا البلد العظيم". عند الانتهاء من اقتباسه الخاطئ من نصيدة تمثال الحرية، سألت فيفي الصغرى إن كانت تستطيع نفخ الشمعة، وقالت مامي إنها تستطيع أن تطفئها بعد أن يتمنى الجميع أمنية.

تساءلت كارلا ما الذي تتمناه في الاحتفال باليوم الذي فقدت فيه كل شيء؟ كان كل شخص آخر حول الطاولة مغمض العينين كما لو أنهم لا يملكون أي صعوبة في التقرير. أغمضت كارلا عينيها أيضا. يجب أن تبذل مجهودا كي لا تتمنى ما تمنته طويلاً في حنينها إلى الوطن. ولكن لهذه المرة الأخيرة فقط ستسمح لنفسها. "عزيزي الله" بدأت. لم تستطع الاعتياد على طقس التمني الأمريكي هذا بدون إقحام الرب في الأمر. "أرجوك اجعلنا نعود إلى الوطن من فضلك". كانت نصف تصلي ونصف تتمنى. ويبدو احتمال رجوعهم أقل مع الوقت، بل إن أبويها

t.me/qurssan

كانا يغرزان جذورا هنا. منذ شهر فقط انتقلا خارج المدينة إلى حي في لونج آيلاند كي يصبح للبنات فناء يلعبن فيه كما قالت مامي. المربعات الخضراء الصغيرة حول البيوت المتشابهة بدت كبساط يجب الحفاظ على نظافته أكثر منها فناء للّعب. لم تكن الأشجار أطول كثيرا من فيفي الصغيرة. فكرت كارلا بحنين في العشب الكث والأشجار عريضة الفروع المثلثة بالعناقيد حول المجمع السكني هناك في الوطن. تحكي هي وأقرب أصدقائها ابنة خالها لوسيندا تحت شجرة الخشخاش كيف عرفت كلٌ منهما كيف يُصنع الأطفال. "ما الذي تفعله لوسيندا في هذه اللحظة"؟ تساءلت كارلا. على الناصية، ينتهي الحي بطريق تسده أرض زراعية كانت مامي قد قرأت في الجريدة المحلية أن المستثمرين العقاريين يتفاوضون لشرائها. لا تزال الأعشاب والأشجار الحقيقية والشجيرات الحقيقية تنمو خلف سور الأسلاك الشائكة المعلقة عليه لافتة كبيرة مكتوب عليها: "خاص، ممنوع التعدي". فاجأت اللافتة كارلا لأنها لم تر كلمة "التعدي" من قبل سوى في الكتاب المقدس في جملة "اغفر لنا تعدينا". أرت مامي اللافتة في إحدى تمشياتهما الأولى إلى محطة الأتوبيس. "أليس ذلك مضحكًا يا مامي؟ لافتة تحثنا على عدم ارتكاب الذنوب". لم تفهم أمها في البداية حتى شرحت كارلا صلاة الرب. الكلمات تعني معنيين أحيانًا في الإنجليزية أيضًا. هذا التعدي يعني أننا يجب ألا ندخل إلى الممتلكات؛ لأنها ليست عامة مثل الحديقة ولكنها خاصة. هزت كارلا رأسها محبطة. لن تفهم أبدا هذا البلد الجديد.

كانت مامي تمشي معها إلى محطة الباص طوال شهرها الأول في مدرستها الجديدة في إيبارشية الحيّ التالي. بل كانت تركب الباص معها متنقلة جيئة وذهابا مرتين يوميا حتى عرفت كارلا الطريق. كان أخواتها

جميعًا قد انتظمن في مدرسة الحيّ الكاثوليكية على بعد ناصية واحدة من المنزل الذي استأجره آل جارسيا في نهاية الصيف. ولكن في ذلك الوقت كان صف كارلا السابع كامل العدد. فاقترحت الراهبة ناظرة المدرسة أن تبقى كارلا في الصف السادس؛ حيث تواجد مكانان شاغران. في سن الثانية عشرة كانت كارلا أكبر بسنة على الأقل من أغلب طلاب الصف السادس، وكانت تفزع من إضاعة عام آخر، فقد تأخرت البنات الأربع جميعًا سنة دراسية واحدة عندما وصلن إلى الولايات المتحدة. بالطبع ستستفيد كارلا من ممارسة الإنجليزية، ولكن ذلك كان يعني أيضًا أنها ستكون في الصف نفسه مع أختها الأصغر ساندي، هي لا تطيق هذا. ترجّت أمها "من فضلك. دعيني أذهب إلى المدرسة الأخرى". كانت المدرسة العامة على بعد ناصيتين من المدرسة الكاثوليكية، ولكن لاورا جارسيا لم تكن لتسمح بذلك مطلقًا. فقد علمت من آباء كاثوليك آخرين أن المدرسة العامة يذهب إليها الصغار المنحرفون، ويدرس فيها المعلمون تلك الأفكار المجنونة الجديدة حول أننا جميعًا أتينا من نسل القرود. لن تدع إحدى بناتها تنسى اسم عائلتها وتتصور أن الأورانجواتان من أبناء عمومتها.

حفظت كارلا طريق المدرسة "عن ظهر قلب"، وهو تعبير ظلّت تستخدمه لأسابيع بعد معرفتها به. أولاً كانت تمشي عبر الناصية ملاحظة الاختلافات الدقيقة بين البيوت المتشابهة: ألوان ستائر مختلفة، شجيرة أزاليا على يسار باب بدلاً من يمينه، صندوق بريد أو باب عليه شيء ما. ثم تمشي غيبًا الميل الطويل الملاصق لقطعة الأرض الزراعية المهجورة ذات اللافتة المضحكة، وأخيرًا يمين حاد نحو الطريق البطيء الموازي للطريق الرئيسي حيث تستقل الباص. "تبدين كسيدة راقية صغيرة" قالت

t.me/qurssan

امها في اول نهار تنطلق فيه كارلا وحدها وقلبها يقرع في صدرها. كان طريقا طويلا ومخيفا، ولكنها كانت ممتنة لتمكنها من تلافي حرج إعادتها لسنة دراسية، فلم تشتكِ.

بمرور الشهور اهملت الشكوى من تطور أكثر إثارة للخوف. كانت تطاردها عصابة من الصبية كل يوم في ملعب المدرسة الجديدة وفي اروقتها. يطلقون عليها نعوتًا تحقيرية سمعت بعضها سابقًا من الجارة العجوز في الشقة التي كانوا قد استأجروها في المدينة. وبعيدًا عن نظر الراهبات كان الأولاد يرجمونَ كارلا بالأحجار، مصوبين على قدميها كي لا يكون هناك اي كدمات. "عودي إلى المكان الذي أتيت منه ايتها البربرية القذرة"! شد أحدهم قميصها وأخرجه من تنورتها وهو يقف خلفها في الصف ورفعها عاليًا. "لا أثداء" وضحك ساخرًا. وسحب آخر جوربيها كاشفا ساقيها اللتين كان قد بدأ ينبت عليهما شعر ناعم داكن، وصاح لرفاقه "ساقا قرد"!.

"توقف"! صاحت كارلا "من فضلك توقف".

"آ توقف"! قلدوها ساخرين "من فاضيلك آ توقف".

لقد نجحوا في فضح خجلها الخفي. كان جسدها يتغير. كانت تبدل جلدها مثلما يقولون في جمهورية الدومينيكان. حلّت محل الفتاة الصغيرة أخرى بالغة ينمو الشعر على جسدها وتبرعم ثدياها، ولن ينجذب لها أحد. كأن لكلمات الصبية القبيحة واستهزائهم بها قوة السحر..

يوميًا كانت كارلا تقوم بالرحلة الطويلة إلى المدرسة بحزمة من المشاعر المختلطة. اولا كان هناك هذا الجسد الذي تلاحظ تغيراته اليومية

t.me/qurssan

في الحمام المغلق حتى تطرق الباب إحدى أخواتها لتخبرها بانتهاء دورها. كم تمنت أن تربط جسدها كما سمعت أن الفتيات الصينيات يربطن أقدامهن كي لا تكبر في الحجم. ستبقى هي نفسها فتاة سريعة نحيلة بعيون بنية وضفيرة منسدلة على ظهرها، فتاة كانت قد بدأت للتو تشعر بأنها تستطيع نيل أشياء في هذا العالم.

ولكن كانت كارلا تشعر أيضًا بالراحة لأنها تنطلق نحو مدرستها في صفها الصحيح بعيدًا عن زحام أخواتها المكون من أربع بنات متقاربات في السن بشكل زائد عن الحد. تستطيع أن تأتي إلى المنزل بقصص عمّا حدث ذلك اليوم، ودون أن يكوِّن لديها كورال من ثلاث معارضات يصححن لها الحكاية. ولكنها تشعر أيضًا بالتخوف. سينتظرونها هناك، في ملعب المدرسة: عصابة من أربعة أو خمسة أولاد شقر بأنوف متسخة ووجوه بها نمش. كانوا يبدون باهتين ويصعب تمييزهم كما هو حال جميع الأمريكيين. لا تكشف وجوههم عن دفء إنساني، وحياد أعينهم لا يسمح بنظرات حميمية. لم تبدُ أجسادهم الشاحبة حقيقيةً: ولكنها كانت مثل أزياء تنكرية يرتدونها، بينما يلعبون دور مضطهديها.

كانت تراقبهم. في الفصل، كانوا ينحنون فوق كتبهم أو يكسون وجوههم بأقنعة خائفة، عندما تؤنبهم الأخت بياتريس، معلمتهم الصارمة التي لا تقبل الهذر وتنهرهم؛ لأنهم نسوا فروضهم. أحيانا كانت كارلا تتلصص عليهم في الملعب وهم ينظرون عبر السياج ويتحدثون عن السيارات المصطفة بجوار الرصيف. لدهشة كارلا كانت لتلك السيارات أسماء غير أسماء ألوانها أو أحجامها. كل ما كانت تعرفه عن سيارة عائلتها على سبيل المثال أنها سيارة كبيرة سوداء؛ حيث يمكن للأخوات الأربعة أن يركبن فيها في الخلف، مع أن فيفي دائما ما تثير ضجةً فيسمح لها

t.me/qurssan

بالركوب في المقعد الأمامي. كانت كارلا قادرة أيضا على تمييز السيارة الفولكس فاجن؛ لأنها كانت سيارة البوليس السري (في لونها الأسود) هناك في الوطن. في كل مرة كانت مامي ترى واحدة منها ترشم الصليب وتقرأ صلاة للخال موندو، الذي لم يكن قد سُمِح له بمغادرة الجزيرة. فيما عدا الفولكس فاجن أو السيارات السوداء الكبيرة لم تكن كارلا قادرة على تمييز سيارة من أخرى.

ولكن الأولاد عند السور كانوا يتحدثون بحماس عن الفورد والفالكون والكورفير والبلايموث فاليانتس. كانوا يتجادلون حول السرعة التي يمكن لكل سيارة أن تبلغها، وأي موديلات أفضل من الأخرى. تتخيل كارلا نفسها أحيانًا في سيارة حمراء فارهة يُعجب بها الأولاد. إلا أنه لا يوجد أحد ليوصلها. أبوها المهاجر بشاربه الأسود ولكنته وبزته ذات القطع الثلاث كان سيجلب لها المزيد من الاستهزاء. وأمها لم تكن قد تعلمت قيادة السيارة بعد. كانت كارلا تستطيع أن تتخيل امتلاك سيارة باهظة ولكنها لم تكن قادرة على تخيل أبويها بأي شكل مختلف. كانا مثل هذا الجسد الجديد الذي تنمو داخله، من المسلّمات.

في أحد الأيام عندما كان قد مضى عليها شهر في مدرسة القلب المقدس تتبعتها سيارة في تمشيتها التي تبلغ ميلا من موقف الأتوبيس. كانت سيارة خضراء بلون الليمون، متوسطة الحجم إلى حد ما ولها بوز طويل نوعا ما. إن كانت شخصًا كانت كارلا ستصفه بأن أنفه طويل. سيارة لونها أخضر ليموني بأنف طويل. كانت تمشي ببطء متتبعة إياها. خمنت كارلا أن السائق يبحث عن عنوان كما كان پاپي يقود سيارته ببطء ويزمرون له، بينما هو يقرأ لافتات المحلات قبل التوقف عند واحد بعينه.

دفقة زمامير من النفير جعلت كارلا تقفز وتستدير نحو السيارة التي توقفت بالكامل الآن أمامها بمسافة قليلة. كانت تستطيع أن ترى السائق بوضوح بدءًا من كتفيه، رجل في قميص أحمر في عمر والديها تقريبًا، مع أنه كان من الصعب على كارلا أن تحكم على عمر الأمريكيين. كانوا بالنسبة لها مثل السيارات، يتميزون بلون ملابسهم ومجموعاتهم العمرية التقريبية: طفل صغير أصغر منها، طفل من عمرها، مراهق في المدرسة الثانوية، ثم المجموعة الواسعة غير المحددة من الأمريكيين البالغين.

هذا الرجل الأمريكي البالغ الذي يقارب والديها في العمر أشار إليها أن تأتي إلى النافذة. كانت كارلا تخاف أن تُسأل عن اتجاه الأماكن؛ حيث إنها كانت قد انتقلت إلى تلك المنطقة قرب بداية الدراسة، وكل ما كانت تعرفه بالتأكيد هو الطريق من موقف الباص إلى المنزل. كما أن إنجليزيتها كانت لا تزال إنجليزية مدرسية، لغة أجنبية. كانت تعرف الأشياء المحايدة والماسخة: كيف تطلب كوبا من الماء، كيف تقول صباح الخير ومساء الخير وتصبحون على خير. كيف تشكر شخصًا وتقول له العفو. ولكن إن سألها أمريكي بالغ من عمر غير محدد عن إرشادات متحدثا لا بد بشكل سريع، كانت تكتفي بهز كتفيها وتبتسم ابتسامة فارغة. تقول بصوت خافت "لا أتحدث الكثير من الإنجليزية" كنوع من الاعتذار. كانت تكره أن تعترف بذلك لأن مثل هذا الاعتراف كان يثبت بلا شك وجهة نظر عصابة الأولاد أنها لا تنتمي إلى هنا.

بينما كارلا تقترب مال السائق وأنزل زجاج السيارة. مالت كارلا كما لو كانت على وشك الحديث مع طفل صغير وألقت نظرة بالداخل. ابتسم الرجل ابتسامة ودودًا ولكن كان بها شيء غير سوي لم تستطع كارلا تحديده: كان لهذه الابتسامة صفة معطوبة متأسية، وكأن الرجل

t.me/qurssan

تعرض للاضطهاد طوال حياته فيهدئ نفسه بهذه الابتسامة.. يرتدي قميصه الأحمر بدون أن يغلق أزراره، وهو ما بدا طبيعيا أخذا في الاعتبار حرارة الموسم المسمى بالصيف الهندي، بل إنه لولا أن شعرًا بدأ في النمو على ساقي كارلا لكانت قد نزعت جوارب المدرسة الخضراء التي تصل حتى ركبتها ومشت إلى المنزل عارية الساقين.

سألها الرجل: "أين تذهبين"؟ وقد أدغم حروف كلماته إلى بعضها البعض كما ينطق الأمريكيون. كانت كارلا كالعادة غير متأكدة بالتحديد إن كان ما سمعته صحيحًا.

"عفوًا"؟ سألت بأدب مائلة نحو السيارة كي تسمع صوت الرجل الهامس بشكل أفضل. لفت نظرها شيء ما، فنظرت إلى الأسفل وحدقت مصعوقة.

كان الرجل قد ربط طرفي قميصه فوق خصره مباشرة، وكان عاريًا من هناك حتى الأسفل. دار خيط حول خصره وكانت أطرافه مربوطة من الأمام ثم ملتفة حول قضيبه. بينما تنظر كارلا تضخم شيئه أملس الرأس حتى إنه ملأ الأنشوطة واحتقن مختنقًا فيها.

"إلى أين تذهبين"؟ أبطأ صوته عندما تحدث هذه المرة ففهمته كارلا بشكل قاطع. قفزت عيناها مرة أخرى نحو عينيه.

"عفوًا"؟ قالت مرة أخرى ببلاهة.

مال نحو باب الكرسي المجاور له وفتحه مصدرًا تكة. "تعالي هنا" هز راسه نحو الكرسي المجاور له. "تعالي" كور كفه حول عضوه، كما لو كان شعلة يخشى عليها من الانطفاء.

t.me/qurssan

ابتهجت كارلا إمساكها بشنطة كتبها في يدها. بقي فمها مقفلًا، لم تحضر لها أي كلمة إنجليزية أو إسبانية. تراجعت عن السيارة الكبيرة الخضراء، بينما بقيت عيونها على الرجل. كان هناك تعبير متألم مهموم على وجهه، مثل رجاء لم تعرف كارلا كيف تجيبه. كانت عيناه تبصران شيئًا لا تستطيع كارلا رؤيته، ثم، وبعد الكثير من الضيق، استراح وجهه فيما يشبه السلام. أحنى الرجل رأسه كمن يصلي. استدارت كارلا وهربت نحو الشارع وحقيبة كتبها تضرب ساقها كسوط يحثها على الركض أسرع وأسرع.

اتصلت أمها بالشرطة بعد أن جمعت الشذرات اللاهثة والغامضة المفككة التي روتها كارلا. أضيف الآن إلى هول ما رأته هول آخر، وهو السماح للشرطة بالتدخل. كانت كارلا وأخواتها يخفن من الشرطة الأمريكية تقريبًا بقدر خوفهن من المخابرات العسكرية هناك في الوطن. كان أبوهن أيضًا يبدو غير مرتاح في حضور رجال الشرطة، وكلما كانت هناك سيارة شرطة خلف سيارتهم كان يظل ينظر في المرآة ويصر على بقائهم في السيارة كي يستطيع التفكير. إذا وقف رجال الشرطة على الرصيف بينما يمر ماشيًا، كان يحني لهم رأسه نحوهم تملقًا. في الوطن كانت الشرطة السرية قد تبعته لشهور، وبالكاد هربوا من الاعتقال آخر يوم لهم على الجزيرة. بالطبع كانت كارلا تعرف أن رجال الشرطة الأمريكية "أشخاص لطيفون" ولكنها مع ذلك ظلت تشعر بعدم الارتياح نحوهم.

دق جرس الباب بعد دقائق من اتصال والدة كارلا بالمخفر. كان ذلك حيًّا للعائلات المسالمة ولا أحد يريد أن يكون هناك شخص بغيض مثل هذا منطلقا بين كل هذا العدد من الأطفال، وبالذات الشرطة. بينما

t.me/qurssan

فتحت أمها الباب بقيت كارلا في المطبخ تستمع بقلب يتسارع لشرح أمها. كان صوت مامي مرتفعا ومترددا ومعتذرًا قليلاً؛ صوت امرأة صغيرة به لكنة بين الأصوات الأمريكية الذكورية الهادرة المحايدة التي تحقق معها.

"ابنتي كانت عائدةً إلى البيت..."

سأل صوت ذكوري: "أين بالتحديد"؟

"الشارع كما تعرف"؟ لا بد أن أم كارلا قد أشارت "ذلك الموازي للطريق السريع، لا أعرف اسمه".

"لا بد أنه طريق الخدمات" عرض عليها صوت ذكوري ألطف.

"نعم نعم، طريق الخدمات" بدا أن صوت أمها المتهلل يصل إلى نتيجة بخصوص ماهية المشكلة.

"من فضلك استمري يا سيدتي".

"حسنًا، ابنتي قالت إن ذاك الرجل المجنون في سيارته...". انخفض صوتها. سمعت كارلا كلامها متقطعا وميزت: "...أن تأتي إلى السيارة..."

"أين ابنتك يا سيدتي"؟ سأل الصوت الذكوري السلطوي.

انكمشت كارلا خلف باب المطبخ. كانت أمها قد وعدت بألا تورِّط كارلا مع الشرطة وأنها ستقوم بكل الحديث بنفسها.

"إنها مجرد فتاة صغيرة" قالت أم كارلا معتذرةً...

"ولكن يا سيدتي إذا كنتِ تريدين تقديم بلاغ فعلينا التحدث معها".

"تقديم بلاغ؟ ما الذي يعنيه هذا، تقديم بلاغ"؟

t.me/qurssan

كانت هناك زفرة تنم عن نفاد الصبر. ثم صوت صبور بشكل مبالغ فيه يتوقف موضحًا بين الكلمات ويشرح الإجراءات القانونية، كما لو كان يعيد درس تاريخ، كان يجب أن تكون والدة كارلا قد تعلمته قبل فترة طويلة من إزعاجها للشرطة أو انتقالها إلى هذا الحي.

"لا اريد اية مشاكل" احتجت أمها "فقط اعتقد انه لا يجب أن يُسمح لهذا الرجل المجنون بالبقاء في الشارع".

"انت محقّة تمامًا يا سيدتي، ولكن أيدينا مغلولة ما لم تساعدينا كمواطنة مسؤولة".

"كلا"! تأوهت كارلا، لقد وقعت في مشكلة. لقد نُطقت الكلمات السحرية. كان لدى آل جارسيا إقامة شرعية في الولايات المتحدة، لكنهم ليسوا مواطنين. ولكن أن تخطئ الشرطة وتتصور أن مامي مواطنة فذلك إطراء أكبر من أن يوفر على طفلة أي انزعاج. "كارلا"! نادت أمها من الباب.

"ما هو اسم البنت"؟ سأل الشرطي صاحب الصوت السلطوي.

كررت أمها اسم كارلا بالكامل وتهجته للشرطي، ثم نادت مرة اخرى بصوتها السلطوي "كارلا أنطونيا"!

استدارت كارلا حول باب المطبخ ببطء وتجهم وأطلت برأسها فقط من الباب نحو البهو، "نعم، مامي"؟ أجابت بصوت مهذب ملتزم كي تترك انطباعًا جيدًا على الشرطة.

t.me/qurssan

"تعالي هنا"، قالت امها وهي تشير، "رجال الشرطة شديدو اللطف يريدون منك ان تشرحي لهم ما شاهدتِه". كان هناك نظرة معتذرة على وجهها "تعالي يا كوكا ولا تخافي".

قال رجل الشرطة بصوته الخشن المخيف: "لا يوجد شيء تخافين منه".

أبقت كارلا رأسها محنيًا، بينما تقترب من الباب الأمامي ناظرة إلى الأعلى سريعا عندما قدم الشرطيان نفسيهما لها. كان أحدهما صغير السن بشكل محرج بوجه ليس أكبر كثيرا من وجه الأولاد في المدرسة فوق جسد ضخم كبير العضلات. الرجل الآخر وهو أيضًا ضخم وذو بشرة شقراء بدا أكبر بسبب ملامحه الأكثر قسوة وحدَّة مثل حيوان في قصة عن الوحوش يعرف الطفل بالنظر إلى الصور ألا يثق فيه. كانت الأحزمة معلقة على ردفيهما وتطل المسدسات من حافظاتها. كانت تلك ذكورتهما نفسها تهين وتهدد. كانا ضخمين جدًّا وقويين جدًّا وذكرين جدًّا وأمريكيين جدًّا.

بعد أن تم تحديد بعض المعلومات عنها، سألها الشرطي ذو الوجه القاسي والصوت الضخم والدفتر، إن كانت ستجيب عن بعض الأسئلة. بدون أن تعرف أن بإمكانها الرفض هزت كارلا رأسها بوداعة وهي على حافة البكاء.

"هل تستطيعين وصف المركبة التي كان يقودها المشتبه فيه"؟

لم تكن متأكدة مما هي المركبة ولا المشتبه فيه أيضًا. ترجمت أمها إلى إنجليزية أكثر بساطة "ما السيارة التي كان يقودها الرجل يا كارلا"؟

t.me/qurssan

"سيارة كبيرة خضراء" همهمت كارلا.

كررت أمها الكلام إلى الضباط كما لو لم تكن تتحدث بالإنجليزية "سيارة كبيرة خضراء".

"من اي نوع"؟ كان الضابط يريد أن يعرف.

"نوع"؟ سألت كارلا.

"فورد، كريزلر، بلايموث، هكذا". أنهى الرجل القائمة وقد نفذ صبره.. كانت كارلا وأمها تضيعان وقته.

"أي مستوى من العربات"؟ سألت أمها بالإسبانية، ولكن بالطبع كانت تعرف أن كارلا لن تعرف نوع السيارة. هزت كارلا رأسها وشرحت أمها للضابط لتساعدها في إنقاذ ماء وجهها، "تقول إنها لا تتذكر".

"ألا تستطيع أن تتكلم"؟ صاح الضابط الخشن. سأل صاحب الوجه الصبياني كارلا سؤالا، "كارلا"، بدأ بلفظ اسمها كي يضفي دفئًا ولطفًا على سؤاله. "كارلا"، استحثها، "هل يمكنك من فضلك أن تصفي الرجل الذي رأيته"؟

هربت كل ذكرى لوجه الرجل. تذكرت الابتسامة المعطوبة وبعض الخصلات من الشعر الأشقر المترب موضوعا بعناية فوق سطح أصلع. ولكنها لم تتذكر كلمة أصلع فقالت "لم يكن لديه شيء على رأسه تقريبًا".

اقترح عليها الضابط اللطيف "تعنين لا قبعة"؟

t.me/qurssan

"لا شعر تقريبًا" شرحت كارلا ناظرة إلى الأعلى كما لو كانت قد ألقت بتخمين وتريد أن تعرف إن كان خاطئًا أم صحيحًا.

"أصلع"؟ أشار الشرطي القاسي أولاً إلى قطعة مشعرة من رسغه تحت كم قميص زيه الرسمي، ثم إلى كفه الوردية الخالية من الشعر.

"أصلع، نعم" هزت كارلا رأسها. كان منظر شعيرات الرجل القليلة الداكنة قد أثار اشمئزازها. فكرت في ساقيها اللتين تنبتان شعيرات داكنة، وفي التغيرات التي تحدث سرًا في جسدها محولةً إياها إلى أحد هؤلاء الأشخاص الكبار. لا عجب أنَّ الصبيان أصحاب الأصوات المرتفعة ناعمي الوجه يكرهونها. كانوا يرون أن جسدها يخونها بالفعل.

استمر التحقيق عبر وصف لشكل الرجل، ثم أتى السؤال الذي تخشاه.

سأل الشرطي صاحب وجه الطفل "ما الذي رأيتِه"؟

نظرت كارلا إلى أقدام الضابطين بالأسفل. كانت الأطراف السوداء لأحذيتهم تطل من تحت أطراف ملابسهم مثل أنف حيوان مراوغ. "كان الرجل عاريا هناك بالأسفل"، أشارت بيدها، "وكان هناك خيط حول خصره".

"خيط"؟ كان صوت الرجل مثل يد تحاول أن ترفع ذقنها وتجعلها تنظر إلى الأعلى وهو تحديدًا ما فعلته أمها عندما كرر الرجل: "خيط"؟

أجبرت كارلا على مواجهة وجه الشرطي. كان بالفعل نسخة بالغة من الوجوه البيضاء السقيمة للأولاد في الملعب. هكذا سيكون شكلهم عندما يكبرون. لم تكن هناك قسوة في وجهه ولا طيبة أيضًا. لا يدركون

t.me/qurssan

الصعوبات التي تمر بها في محاولة وصف ما رأته بمفرداتها الإنجليزية المحدودة. بدا وجه الشرطي لكارلا كأنه وجه شخص تشاهده في أحد الأفلام وهو يسألها، "ما الذي كان يفعله بالخيط"؟

هزت كتفيها ودموعها تكاد تطفر من أطراف عينيها

تدخلت أمها: "كان الخيط يربط الشيء..." .

"من فضلك يا سيدتي"، قال الشرطي الذي كان يكتب، "دعي ابنتك تصف ما رأته".

فكرت كارلا كثيرا فيما عساه يكون اسم العضو الذكري. لقد أتوا إلى تلك البلد قبل أن تصل إلى البلوغ بالإسبانية، لذا فقد فاتها عدد من الكلمات التي كانت ستلتقطها خلال العام الماضي. الآن هي تتعلم الإنجليزية في فصل كاثوليكي؛ حيث لم تذكر أي راهبة قط الكلمات التي تحتاجها. "كان لديه خيط حول خصره" شرحت كارلا. كانت تستطيع أن تعرف بسبب السهولة التي يكتب بها الرجل أنها الآن تقول كلاما مفهوما تمامًا.

"وكان يمتد إلى الأمام"، أرته مشيرة بجسدها، "وهنا كان مربوطًا في..." رفعت أصابعها وأشارت بعلامة الصفر.

"أنشوطة"؟ اقترح الشرطي الطيب.

"أنشوطة وشيئه..." أشارت كارلا إلى ما بين ساقي الشرطي. نغضت كتابة الشرطي "كان شيئه داخل الأنشوطة وكان يكبر ويكبر" انطلقت في القول وصوتها يرتعش.

t.me/qurssan

رفع الشرطي الودود حاجبه ودفع قبعته إلى مؤخرة رأسه. مسحت يده الكبيرة حبيبات العرق الصغيرة التي تجمعت على حاجبه.

كانت كارلا تصلي في سرها ان تنتهي هذه الحادثة الآن. ما بدات تخشاه هو ان تظهر صورتها في الجريدة اليوم التالي فتعذبها عصابة الأولاد القساة بما رأته. ولكن من هنا كان سيلتقط لها صورة؟ تساءلت إن كانت تستطيع شكوتهم الآن لهؤلاء الضباط الشباب. "على فكرة"، تستطيع ان تقول وسيبدأ الأجش في أخذ ملاحظات. سيكون لديها الكلمات التي تصفهم بها: كانت تحفظ وجوههم القاسية الضاحكة بسخرية عن ظهر قلب. اجسادهم المعتلة الباهتة الشبيهة ببعضها. أصواتهم الرفيعة التي تنطلق حادة ومستمتعة عندما تخطئ كارلا نطق بعض الكلمات التي تم حثها على تكرارها.

ولكن المقابلة انتهت سريعًا بعد وصفها للواقعة. أغلق الشرطي دفتره ومنح الشرطيان كارلا ووالدتها تحية وداع. رحلوا بسيارة الدورية وبطول الشارع هبطت الستائر وأُغلقت النوافذ المواربة كعيون لا ترى الشر.

لمدة شهرين تاليين، وقبل أن تنتقل كارلا إلى المدرسة العامة القريبة من المنزل في النصف الثاني من صفها السابع، كانت الأم تصطحبها في الباص إلى المدرسة، وتأتي لتأخذها في نهاية اليوم. انتهى الاستهزاء والملاحقة. لا بد أنّ الأولاد قد ظنوا أن كارلا اشتكت، ولذا جاءت أمها لتدافع عنها. حتى في وقت الدرس عندما لم تكن أمها بالجوار كانوا الآن يتجاهلونها وعيونهم الحادة المحايدة تجول في الفصل بحثًا عن ضحية

t.me/qurssan

اخرى، شخص شديد السمنة أو شديدة القبح أو شديد الفقر او شديد الاختلاف. لقد بهتت كارلا واختفت داخل نقوش الحائط.

ولكن وجوههم لم تبهت من حياة كارلا بالسرعة نفسها. لقد تعدّوا على احلامها ولحظات يقظتها. احيانًا عندما تستيقظ في الظلام يكونون قابعين عند طرف سريرها، جوقة كئيبة من الوجوه الكالحة، اولاد بلا اجساد ينشدون "ارجعي! ارجعي"! كانت كارلا تغمض عينيها كي لا تراهم، وتتمنى رحيلهم. في ذلك الظلام الذي خلقته بإبقاء عينها مغلقة كانت تصلي. لكل هؤلاء الذين كانت تريد من الله أن يعتني بهم بشكل خاص هنا وفي الوطن، بادئة بأسماء أخواتها. كانت القائمة الطويلة من الأسماء المألوفة تلاطفها لتعود إلى النوم مع شعور بالأمان وبعالم لا يزال مسكونًا بمن يحبونها.

t.me/qurssan

ثـلــج

يولاندا

في أول سنة لنا في نيويورك استأجرنا شقة صغيرة بالقرب من مدرسة كاثوليكية تدرس بها راهبات المعونة، نساء بدينات في أردية سوداء وقبعات جعلتهن يبدين غريبات مثل دمى في حالة حداد. أحببتهن كثيرًا خاصة مدرسة الصف الرابع الأخت زوي التي تذكّر بالجدات. كانت تقول إن لدي اسمًا جميلاً وجعلتني أعلّم الفصل كله كيف ينطقونه: يو ـ لان ـ دا. بما أني المهاجرة الوحيدة في فصلي فقد وضعتني في مقعد خاص في أول صف بجوار النافذة منفصلة عن الأولاد الآخرين كي تعلمني الأخت زوي بدون أن تزعجهم. كانت تتلفظ بكل كلمة جديدة ببطء، ويجب علي أن أكررها: مغسلة، كورن فليكس، مترو الأنفاق، ثلج.

سريعًا ما التقطت ما يكفي من الإنجليزية؛ كي أفهم المحرقة الهائمة في الجو. شرحت الأخت زوي لفصل متسع العينين ماذا يحدث في كوبا. الصواريخ الروسية تتجمع مصطفة نحو نيويورك. الرئيس كينيدي وهو يبدو قلقًا أيضًا ظهر على التلفزيون في المنزل شارحًا أننا قد نضطر إلى الذهاب إلى الحرب ضد الشيوعيين. في المدرسة كان لدينا تدريب على الغارات الجوية: ينطلق جرس إنذار فنصطف في البهو، ننبطح على

t.me/qurssan

ونغطي رؤوسنا بمعاطفنا ونتخيل شعرنا وهو يتساقط وعظام الأرض، في المنزل كنتُ ومامي وأخواتي نصلّي من أجل السلام في أيدينا تلين. سمعت مفردات جديدة: قنبلة نووية، الغبار النووي، مخبأ قنابل... العالم. شرحت الأخت زوي كيف سيحدث هذا. رسمت صورة عش غراب على السبورة ونقاطًا بيضاء بالطباشير تمثل انهمار الغبار النووي الذي سيقتلنا جميعًا.

كنت أستيقظ قبل شروق الشمس وأسير إلى المدرسة متتبعة أنفاسي المشبعة بالصقيع. في صباح أحد الأيام، بينما كنت جالسةً في الفصل منغمسة في أحلام يقظتي، رأيت نقاطًا في الهواء، مثل التي رسمتها الأخت زوي على السبورة – متناثرة أولاً ثم الكثير والكثير منها. شهقتُ: "قنبلة! قنبلة"! انتفضت الأخت زوي ملتفتة حولها وتنورتها السوداء الواسعة تنتفخ وهي تسرع بجواري. وبدأت بعض الفتيات في البكاء.

ثم بهتت نظرة الأخت زوي المصعوقة. "ولكن يا عزيزتي يولاندا، هذا ثلج"! ضحكت، "ثلج".

كررت: "ثلج"، نظرت خارج النافذة بحذر. كنت أسمع طوال حياتي عن الندف البيضاء التي تسقط من السماء الأمريكية في الشتاء. تأملت من النافذة المسحوق الناعم، وهو يغطي الرصيف والسيارات المصطفة بالأسفل. قالت الأخت زوي إن كل نديفة ثلج مختلفة عن الأخرى، مثل الأشخاص، فريدة وجميلة.

t.me/qurssan

استعراض

ساندي

"لا للمرفقين، لا مياه غازية، فقط الحليب أو...". توقفت مامي. أي من البنات الأربع تستطيع ملء الفراغات بخصوص ما يجب أن يكون عليه سلوكهن في المطعم مع عائلة فانينج؟

"لا مرفقين على الطاولة" خمنت ساندي.

"لقد قالت ذلك بالفعل" اعترضت كارلا.

"لا شجار يا بنات"! نهرت مامي الجميع واستمرت.

الرسالة. "فقط الحليب أو الماء المثلج. وأنا من أقوم بالطلب لكن. هل هذا واضح"؟

أومأت بالموافقة أربعة رؤوس مضفرة ومزينة. في لحظات مثل تلك حين كن يبدين جميعًا ككائن واحد –البنات الأربع- كانت ساندي تتوق إلى أن تهيم على وجهها في الولايات المتحدة ولا تعود أبدا لدور الأخت الثانية من أربع بنات متقاربات في العمر إلى هذا الحد. إلا أنها في تلك المرة هزت رأسها بالموافقة. لم تكن نبرة صوت مامي تحتمل أية معارضة. شرحت للبنات إجراءات هذا العشاء المهم مع آل فانينج مرات عديدة في

t.me/qurssan

الأيام الماضية وخاصة اليوم، حتى إنه لم يكن هناك أي طائل من المزاح كي يجعلن امهن تصبح اكثر تساهلاً.

استجدتها ساندي "مامي فقط لا تطلي شيئًا لا أحبه، من فضلك".

كانت دائمًا صعبة الإرضاء في الطعام، وبعدما جاءت إلى الولايات المتحدة تضاعف عدد الأطعمة التي لا تأكلها، والتي يمكن أن تتكوّم عاليًا في صحنها.

"لا اسماك يا مامي"، ذكرّتها كارلا، "أنا أشعر بالغثيان حتى تنقلب معدتي".

"ولا شيء عليه مايونيز"، أضافت يويو، "أنا لا أستطيع أن آكل...".

"بنات"! رفعت أمهن يدها مثل شرطي المرور على الجزيرة موقفة طلباتهن. كانت على وجهها النظرة المفزوعة نفسها التي وضعتها عند وصولها إلى نيويورك منذ ثلاثة أشهر، بعد أن هربت بالكاد من الشرطة السرية. كانت تنطلق في البكاء على أقل قدر من الاستفزاز وتفقد أعصابها أو تهدد بأن الأمر سينتهي بها في بيلفو، المكان الذي عرفت أن المجانين يرسَلون إليه في هذه البلد.

"ألا تستطِعن أن تبذلن القليل من الجهد هذه الليلة"؟ كان صوت الأم حزينًا حتى إن الصغرى، فيفي، بدأت تبكي. وقالت منتحبةً "لا أريد أن أذهب... لا أريد أن أذهب".

"ولكن لماذا بحق السماء"؟ سألت مامي ووجهها يشرق. كانت تبدو حائرة من رد فعل ابنتها وكأنها نسيت أنها ظلت ترهبهن لأيام حتى بدا هذا العشاء كأنه معادل للذهاب إلى الطبيب والحقن بالأمصال. "ستكون

t.me/qurssan

ليلة مسلية جدًا. سيأخذنا آل فانينج إلى مطعم إسباني مميز كتبت عنه إحدى المجلات. ستحببنه يا بنات. وسيكون هناك استعراض...".

"ما معنى هذا"؟ التفت ساندي التي كانت قد كفّت عن استجداء قائمة طعام مقبولة وأخذت تعبث بالشرائط في شعرها. "استعراض"؟!

ظهر على وجه أمهن تعبير لعوب. رفعت كتفها وادارت ذراعيها فوق رأسها وصفقت بيديها ثم خبطت بقدمها سريعًا سريعًا سريعًا على الأرض، كما لو كانت تطفئ نارًا. "رقص الفلامنكو! أوليه! هل تتذكرن تلك الراقصات"؟ أومأت ساندي برأسها بالإيجاب. لقد سحرتهن جميعًا راقصات الفلكلور من مدريد في معرض الدومينيكان الدولي العام الماضي. بينما بدأت مامي في شرح أن هذا المطعم به عروض لراقصين إسبان، بالإضافة إلى أكل إسباني لذيذ، سُمعت سلسلة من الدقّات على الأرضية من الأسفل. نظرت البنات إلى بعضهن البعض ونظرن إلى أمهن التي اصطنعت تعبيرًا ممتعضًا.. "إنها تلك الحيزبون... لقد نسيت". كانت السيدة العجوز التي تسكن في الطابق الأسفل صاحبة الشعر المستعار المصبوغ بالأزرق تشتكي لمشرف المبنى، منذ انتقلوا إليه من بضعة شهور. يجب إجلاء عائلة جارسيا. طعامهم له رائحة منفرة. يتحدثون بصوت عالٍ وليس بالإنجليزية. وصوت أطفالهم، مثل قطيع من الجحاش. كان ألفريدو مشرف المبنى البورتوريكي يطرق بابهم يوميًّا تقريبًا. هل يمكن للسيدة جارسيا خفض صوت الراديو قليلاً؟ هل يمكن للسيدة جارسيا أن تجعل الفتيات أكثر التزامًا. لقد أيقظ ضجيج أحذيتهن على الأرضية الجارة بالأسفل.

t.me/qurssan

"كيف اجعلهن اكثر التزامًا من هذا...". قالت الأم، ثم سمعت ساندي صوت امها بتهدج "لا بد لنا ان نمشي على الأرضية ولا بد لنا ان نتنفس".

تفحّص الفريدو بهو الطابق الرابع خلفه ثم تمتم بصوت منخفض، "اتفهّم ذلك، اتفهم ذلك"، ثم هزّ كتفيه بقلة حيلة، "إن هذا البلد يبدو مكانًا صعبًا حتى تتأقلمي معه. يجب الا تأخذي الأمور على محمل شخصي". جعل صوته اكثر إشراقًا في النهاية، ولكن والدة ساندي اكتفت بإيماءة من رأسها.

"وكيف حال آنساتي الصغيرات"؟ نادى ألفريدو خلف كتف السيدة جارسيا. أجبرت البنات أنفسهن على الابتسام كما تعلّمن، ولكن ساندي اصطنعت الحول انتقامًا. لم تكن تحب ألفريدو. كان هناك شيء يشعرها بعدم الراحة في تودده المبالغ فيه وتحدثه معهن بالإنجليزية مع أنهم جميعًا يعرفون الإسبانية. كانت تفكر في أن الساحرة الحيزبون في الطابق الأسفل هي الشيطان، لا بد وأن هناك معنى لوجودها أسفلهم. عندما كانت تلعب ساندي مصارعة الثيران مع يويو بالمنشفة كانت تهتف "أوليه!"! كل مرة تنجو فيها من هجوم الثور وتخبط قدمها انتصارًا رافعة يدها اليمنى إلى الجمهور. كان ضميرها يؤنبها دائما بعد ذلك، ولكنها لم تكن تستطيع أن تمنع نفسها. في أحد الأيام بعد أن انتقلوا إلى المنزل بوقت قصير أوقفت الساحرة أمها والبنات في البهو وبصقت في وجوههن تلك الكلمة القبيحة التي يستخدمها الأولاد في المدرسة أحيانًا "برابرة! عودوا من حيث أتيتم"!

فور عودة بابي من ورديته في المستشفى استحم وهو يغني أغنيته المفضلة من الجزيرة، وهو ما جعل البنات يضحكن وهن يرتدين فساتين الحفلة. كن بالفعل في مزاج جامح، الملهم أن اسم فانينج يشبه كلمة

t.me/qurssan

"مؤخرة" تعلمنها مؤخرًا في فناء المدرسة. "سنتناول طعامنا
ردة تعني . قالت إحدى الأخوات كي تجعل الأخريات يضحكن. خرج
الفانيلز من الحمام وهو يمشط شعره الداكن الجعد ويفرده. نظر إلى الفتيات
"أبوكن رجل ساحر أليس كذلك"؟ توقف امام مرآة البهو ملتفتًا
في تلك الانحناء "البابي الخاص بكن رجل وسيم".

جارته البنات بصيحات "نعم بابي". كانت تلك اول مرة يرين فيها
بابهم في نيويورك في مزاج مرح. كان قلقًا على الأوضاع في الوطن معظم
الوقت. بعض الأقارب كانوا يعانون من مشاكل. أودع الخال موندو في
السجن والعم فيديليو قد يكون ميتًا. لم يكن بابي قد استطاع ان يحصل
على رخصة طبيب أمريكية (وهي عقبة لها علاقة بشهادته الأجنبية)
وكانت النقود تنفد. الدكتور فانينج كان يحاول المساعدة بعرض وظائف
ولكن على بابي أولاً أن يجتاز اختبار الرخصة. كان دكتور فانينج هو من
رتب للزمالة التي مكنتهم جميعًا من الخروج من البلد القديمة. والآن دعا
الطبيب وزوجته العائلة بأكملها إلى مطعم غالٍ في المدينة كهدية.
كانت عائلة فانينج تعلم أن عائلة جارسيا لا تقدر على مثل تلك
الرفاهيات هذه الأيام. قالت مامي إن الحقيقة أنهم ناس لطيفون جدا،
يعطونك أملاً أن الأمريكيين في النهاية أرواح طيبة.

"ولكن عليكن أن تتصرفن بأدب"، قالت مامي عائدة إلى الموعظة
القديمة نفسها. "يجب أن تظهرن لهم أي عائلة طيبة تأتين منها".

بينما بابي ومامي ينهيان ارتداء ملابسهما، راقبتهما البنات وهن
منشغلات بجواربهن الطويلة، وهي قطعة ملابس جديدة غير مريحة.
كانت تلك الأشياء تخنق الكاحل وتتلوى بين الساقين فيشعرن دائما كأن

t.me/qurssan

لباسهن الداخلي على وشك الوقوع، وتشعرهن كأنهن مومياوات فرعونية مقيدة بالأربطة في متحف. تساءلت ساندي وهي تغبش زجاج النافذة بأنفاسها: ماذا سيحدث إذا تم فك أربطة المومياوات؟ هل ستظل بشرة هؤلاء الموتى داكنة مثل المصريين؟ أم بعد كل تلك السنوات خلف الأربطة ستتحول لبشرة شاحبة كبشرة الأمريكيين تحت كل تلك الملابس الثقيلة في الشتاء الذي يوشك على البدء؟

أراحت ساندي كوعيها على طاولة الزينة، وراقبت أمها وهي تمشط شعرها الداكن في المرآة. اليوم تستعيد مامي الفاتنة التي كانتها في الوطن. كان وجهها باهتًا ومأساويًا في ضوء المصباح، وعيناها المضيئتان تبرقان مثل الكهرمان حين يتعرض للضوء. ارتدت فستانًا أسود بظهر عارٍ وأكتاف عريضة، فكان لرقبتها مظهر بجعة تنزلق فوق بحيرة. لمعت حول رقبتها قلادتها الجميلة ذات الماس الحقيقي. كانت مامي تمزح بتجهم "إذا ساءت الأمور كثيرًا فسأبيع القلادة والحلق اللذين أعطاني إياهما پاپيتو" (الجد). كان پاپي ينهرها دائمًا، ويقول لها ألا تتحدث بمثل هذا الهراء.

تفكر ساندي أنه إن ساءت الأمور إلى ذلك الحد فستبيع سوارها اللطيف بتميمته التي على شكل طاحونة، والتي تعلق دائما بملابسها. وقد تقصّ شعرها وتبيعه أيضًا - قالت لها الخادمة هناك في الوطن إن الفتيات صاحبات الشعر الجميل يستطِعن دائمًا فعل ذلك. لم يكن لديها أي فكرة عمّن سيشتريه. لم تجد شعرًا للبيع في المتاجر الكبيرة التي تأخذها إليها مامي أحيانا في نزهات "لنرى هذا البلد الجديد" ولكن ساندي ستقوم بالتضحية اللازمة. فكرت أنها الليلة مع عائلة فانينج الغنية، ستقدم نفسها على أنها الابنة المستعدة للقيام بتلك التضحيات. ربما يتبنونها ويعطونها مصروفا مثل باقي البنات الأمريكيات تمرره ساندي إلى

t.me/qurssan

عائلتها الحقيقية. لن تكون حياتها كطفلة وحيدة لعائلة امريكية ثرية بلا أبناء، حياة سيئة.

بالأسفل وقف البواب، رالف، الذي كان قد أتى هو نفسه عندما كان طفلاً من بلد تدعى أيرلندا، بجوار الباب المفتوح، ومنح كل فتاة انحناءة خاطفة بينما تمر. كان دائمًا يغازل الفتيات مناديًا إياهن بالآنسات جارسيا، كما لو كنّ اطفال عائلة ثرية. كثيرًا ما سخرت مامي أن رالف البوّاب يكسب في الأغلب أكثر من پاپي في زمالته. نشكر الله أن الجد كان يساعدهم.

"بدون پاپيتو" أسرت مامي للبنات، وحلفتهن ألا يكررن ذلك أبدًا أمام أبيهن، "بدون پاپيتو سيكون علينا أن نلجأ للمساعدة الاجتماعية". كن يعرفن أن المساعدة الاجتماعية هي ما يحصل عليه الناس في هذا البلد كي لا يصبحوا متسولين، مثل هؤلاء الموجودين خارج الكاتدرائية في الوطن. كان پاپيتو هو من يدفع الإيجار ويشتري لهن ملابس الشتاء، ودللهن في إحدى المرات بنزهة إلى مركز لينكولن ليرين راقصات الباليه الشبيهات باللعب وهن يرقصن على أطراف أصابعهن.

"هل تحتاج إلى تاكسي هذه الليلة يا دكتور"؟ سأل رالف أباهم كما يفعل في كل مرة تخرج العائلة فيه متأنقة. يقول پاپي عادة "لا، شكرًا يا رالف"، وتمشي العائلة إلى ما وراء الناصية وتركب الباص. مع ذلك فالليلة ولدهشة ساندي، أغدق (تباهى) پاپي. "نعم من فضلك يا رالف، سيارة تشيكر لجميع بناتي". لم تستطِع ساندي تجاهل كم بدا أبوها سعيدًا، فأمسكت بيده، فضغط على يدها سريعًا ثم تركها. لم يكن رجلاً يبدي اي مشاعر علنية على أرض أجنبية.

t.me/qurssan

بينما التاكسي يسرع في طريقه، كان على مامي أن تكرر العنوان للسائق؛ لأن الرجل لم يفهم لكنة بابي. لاحظت ساندي بغصة أحد الأشياء التي كانت مفتقدة في الشهور القليلة الماضية. كان تحديدًا مثل هذا النوع من الاهتمام الخاص الذي يُمنح لهم. في الوطن كان هناك دائمًا سائق يفتح باب السيارة أو بستاني ينحني رافعًا قبعته، ونصف دستة من الخادمات والمربيات يتصرفن كما لو كانت صحة ورفاهية أطفال (دي لا تور)-جارسيا شأنًا عامًّا. بالطبع كان أولاد (دي لا تور) وليس بناتهم هم من يتم مراعاتهم بشكل خاص. ومع ذلك كان يتم إشعار البنات بأهميتهن لمجرد أنهن يحملن اسْمَ دي لا تور.

للمطعم مظلّة بيضاء عليها اسم إل فلامنكو بحروف حمراء فاقعة. فتح لهم باب السيارة حاجب يرتدي زي التشريفة، بوشاح أحمر ملتهب متعامد على قميصه الأبيض المنفوش. قادتهم سجادة على الرصيف إلى صالة الاستقبال، والتي كانوا يستطيعون أن يشاهدوا من خلالها غرفة كبيرة من الطاولات المزينة بالمفارش البيضاء والمناديل المطوية التي تشبه قبعة الأسقف. تلمع أدوات المائدة والكؤوس مثل الزينة. تجمع ندل وسيمون حول الطاولات المشغولة بشعورهم السوداء المعقودة في ذيل حصان يشبه ذلك الخاص بمصارعي الثيران. كانوا يرتدون أحزمة من القماش وقمصانًا بيضاء بكشكشة على الصدر: رجال وسيمون مثل الذي ستتزوجه ساندي في يوم الأيام. أفضل ما في الأمر كانت الروائح الغنية المألوفة للثوم والبصل والإيقاع المرح للإسبانية يتحدثها الندل بعيونهم الداكنة التي تذكر ساندي بأقاربها.

في مدخل غرفة الطعام شرح كبير الندل أن السيدة فانينج قد اتصلت وقالت إنها وزوجها قادمان في الطريق، ودعاهم للجلوس وطلب بعض

t.me/qurssan

المشروبات. قادهم الموكب المكون من ستة أفراد إلى طاولة مجاورة للمسرح. سحب لكل شخص كرسيه وأعطى كلاً منهم قائمة طعام مفتوحة وانحنى ثم انسحب. حط على الطاولة ثلاثة ندل يملؤون أكواب الماء ويعدلون وضع الفضية والأطباق. جلست ساندي ساكنة جدًا ونظرت إلى أصابعهم الجميلة الطويلة وهي تعمل بسرعة.

قال أحدهم: "هل تشرب شيئًا يا سينيور"؟ مخاطبًا بابي.

"هل لي أن أحصل على كوكا"؟ رفعت فيفي صوتها ثم تراجعت عندما نظرت إليها أمها وأخواتها: "سأتناول بعض الحليب بالشوكولاتة".

ضحك أبوهن بروح حلوة ملاحظًا النادل المنتظر. "لا أظن أن لديهم حليبًا بالشوكولاتة. الكوكا لا بأس بها الليلة. أليس كذلك يا مامي"؟

أدارت مامي عيونها وهي تدعي الغضب. كانت أجمل هذه الليلة من أن تكون أمهن وتقوم بفرض القواعد القديمة. همست لبابي عندما رحل النادل بطلبات المشروبات "هل لاحظت". اقتربت البنات كي يسمعن. مامي كانت القائد الآن بعد أن انتقلوا إلى الولايات المتحدة. هي التي ذهبت إلى المدرسة في الولايات المتحدة. هي التي تتحدث الإنجليزية بدون لكنة ثقيلة. "انظر إلى قائمة الطعام. لاحظ كيف لا يوجد عليها أسعار؟ أراهن أن الكوكا هنا بدولارين".

سقط فم ساندي مفتوحًا "دولارين"!

أسكتتها أمها بنظرة غاضبة "لا تحرجينا من فضلك يا ساندي"! قالت ثم ضحكت عندما ذكرها بابي بأن إسبانيتها ليست لغة سرية في هذا المكان.

t.me/qurssan

"نعم يا مامي"، غطى يدها بيده لوهلة، "هذه ليلة خاصة. اريدنا جميعًا ان نقضي وقتًا طيبًا. نحن نحتاج إلى احتفال".

"اظن ذلك"، قالت مامي وهي تتنهد، "وعائلة فانينج ستدفع".

تجهم وجه بابي.

"لا يوجد ما نخجل منه"، ذكرته مامي، "عندما كانوا ضيوفنا في الوطن عاملناهم كالملوك".

كان ذلك حقيقيًا. تذكر ساندي عندما أتى الدكتور فانينج الشهير وزوجته كي يعلما الأطباء البارزين في البلاد الإجراءات الجديدة في جراحة القلب. جاء وقتها الطبيب الطويل الرشيق وزوجته الحمقاء ضيوفًا على المجمع السكني للعائلة. كان هناك حفلات شواء كثيرة وامتلأ الممر بالسيارات المصفوفة وكتيبة من السائقين الذين يتبادلون الأخبار والنميمة تحت أشجار النخيل.

عندما وصلت المشروبات ألقى بابي نخبًا مضحكًا بالإسبانية وبصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه الندل، ولكنهم كانوا محترفين بشدة، وإن كانوا قد سمعوا بالفعل فلم يضحك أحد. بينما رفع الجميع كؤوسهم مالت مامي نحو الطاولة. "إنهم هنا"، استدارت ساندي لترى رئيس الندل يتجه نحوهم مع سيدة طويلة متأنقة، وخلفها رجل فاره الطول يبدو منشغلا. تطلب الأمر دقيقة قبل إدراك أن هؤلاء هم الأشخاص أنفسهم الذين كانوا يلهون حول حمام السباحة في الجزيرة، وهم يبدون سخيفين في نظاراتهم الشمسية وقبعات الشمس وأنوفهم المبقعة بكريم التسمير، يتحدثون بإسبانية غير كافية إطلاقًا مع الخادمات.

t.me/qurssan

تبع ذلك سيل من الترحيبات والاعتذارات. نهض بابي واقفًا، وساندي التي لم تعرف ما الذي يستدعيه السلوك الجيد وقفت أيضًا، نظرت إليها أمها كي تجلس مرة أخرى. تباطأ الدكتور وزوجته عند كل بنت "محاولين تمييزهن" ومتذكرين كيف كان طول كل واحدة منهن "حتى هنا فقط" عندما رأياهن لآخر مرة. "يا لهن من صغيرات جميلات! كارلوس يا لهن من حريم"! مازحه دكتور فانينج. راقبت البنات الأربع ابتسامة أبيهن الشقية تميل على وجهه.

قضى الكبار أول دقائق في تبادل الأخبار. قال لهم دكتور فانينج إنه قد تحدث مع صديق يدير فندقًا مُهمًّا ويحتاج طبيبًا مقيمًا. شرح دكتور فانينج أن الوظيفة سهلة، وهي في أغلبها عبارة عن إبقاء أرامل أثرياء على مهدئ الفاليوم، ولكن ولِمَ لا؟! فالراتب جيد. نظر والد ساندي إلى صحنه ممتنًا، ولكن أيضًا محرجًا لأنه يمرّ بهذه الضائقة والاحتياج.

وصلت مشاريب عائلة فانينج. شربت السيدة فانينج مشروبها في عدة جرعات شرهة، ثم طلبت آخر. كانت هادئة خلال زوبعة الوصول، ولكن أسئلتها تدفقت رافعة حاجبها، وآتية بتعابير حزينة عندما شرحت السيدة جارسيا أنهم لم يستطيعوا الحصول على أي أنباء من العائلة منذ انقطاع الاتصال قبل أسبوعين ماضيين.

تفحصت ساندي المرأة بحرص. لماذا تزوج الدكتور فانينج، الذي كان طويلاً ووسيمًا بعض الشيء، بهذه السيدة عادية الملامح ذات الأسنان البارزة؟ ربما كانت من عائلة طيبة، وهو السبب الذي من أجله يتزوج الرجال في الوطن نساء بملامح عادية وأسنان بارزة. ربما أتت السيدة فانينج مرتدية كل المجوهرات التي تملكها وانجذب الدكتور فانينج

t.me/qurssan

إلى لمعانها كما يحدث للأسماك الصغيرة إذا لففت قطعة من ورق القصدير على صنارة ودلّيتها في الماء الضحل.

فتح الدكتور فانينج قائمة طعامه وسأل: "ماذا تطلبون؟ والبنات"؟ تلك كانت اللحظة التي حضّروا لها بحرص. مامي ستطلب لهن، لن يكن وقحات أو مباشرات فيادرن بتفضيل أو النفور من شيء معين. بالإضافة إلى ذلك، فبينما تحاول ساندي قراءة القائمة بمساعدة إصبع السبابة ناطقة المقاطع إلا أنها لم تعرف أسماء الأطباق المكتوبة.

قالت أمها للدكتور فانينج أنها ستطلب طبقين من البستيلون كي تتقاسمه البنات.

"أوه! ولكن المأكولات البحرية هنا جيدة جدًّا"، ترجّاها الطبيب ناظرًا إليها من فوق نظارته التي انزلقت على أنفه مثل معلم المدرسة، "ما رأيك ببعض البايلا للبنات أو جمبري بصلصة الليمون والزيت"؟

"إنهن لا يأكلن الجمبري" قالت أمهن وامتنّت ساندي لرفض الأم بالنيابة عنهن لهذا الطعام الدودي المخيف. على الجانب الآخر كانت ساندي ستسر لو طلبت شيئًا آخر لها وحدها، ولكنها تذكرت تحذير أمها.

"مامي" همست فيفي "ما هي البستولوني"؟

"بستيلون يا كوكا" شرحت لها أمها أنه طاجن مثل الذي كانت تعده تشوكا في الوطن مع الأرز واللحم المفروم. "إنه لذيذ جدا وأعرف أنكن ستحببنه" ثم منحتهن نظرة حادة فهمن منها أنها تعني "عليكن أن تحببنه".

t.me/qurssan

سألهن الدكتور فانينج إن كان الباستيلون هو ما يردنه بالفعل

راجبن، "اجل".

"اجل ماذا"؟ سألت أمهن.

"اجل شكرًا"! اجَبن كأنهن في كورال. ضحك الدكتور، ثم غمز لهن

في نفهم.

مع وصول الأطباق ومشروبات جديدة إلى الطاولة انخرط الكبار في مهمة من كلام البالغين. مع كل تغيّر في إيقاع الحكي كانت ساندي تميل إلى الأمام وتنصت. في الأحوال الأخرى كانت تجلس في هدوء تلعب بأكياس السكر حتى تجعلها أمها تتوقف. راقبت الطاولات الأخرى حول طاولتهم. كان كل الزبائن الآخرين من البيض، ويتحدثون بأصوات خفيضة غير متحمسة، أمريكيون بالتأكيد. فكرت ساندي في أنهم كانوا يستطيعون أن يأكلوا في أي مكان آخر، ومع ذلك فقد أتوا إلى مطعم إسباني للعشاء. الساحرة الشمطاء أسفلهم كانت مخطئة. الناس يدفعون النقود ليكونوا في أجواء إسبانية.

وقعت عيناها على نادل شاب بدا أن مهمته هي سكب الماء في الكؤوس على كل طاولة عندما تكاد تنفد. في كل مرة تصطدم بعينيه كانت تنظر بعيدًا في حرج، ولكن مع الملل أصبحت أكثر جراءة. بدأت في مغازلة صغيرة، ابتسم وفي كل مرة كانت ترد على ابتسامته كان يقترب ليملأ كأسها من إبريقه الفضي. لاحظت أمها وفي تأنيب مبطن قالت "سيجف بئرهم".

t.me/qurssan

في الحقيقة كانت ساندي قد شربت كثيرًا حتى انها -كما شرحت لمامي- كانت مضطرة إلى الذهاب إلى الحمام. صوبت أمها نحوها نظرة اخرى من نظراتها الغاضبة. كن قد حُذرن من إبداء أي طلبات هذه الليلة خلال العشاء. تلوت ساندي على مقعدها غير مستعدة للذهاب ما لم تنل إذنًا مع ابتسامة.

عرض پاپي ان يصطحبها: "احتاج ان أستخدم حمام الرجال انا نفسي". نهضت السيدة فانينج أيضًا، وقالت إنها يمكنها أن تتخلص من بعض الفضلات. منحها الدكتور فانينج نظرة تحذير لا تختلف كثيرًا عن تلك التي أعطتها أم ساندي لها.

انطلقوا ثلاثتهم إلى مؤخرة المطعم؛ حيث وجههم رئيس الندل إلى درج ضيق تضيئه بكآبة مصابيح صغيرة معلقة في قنطرة. في القبو سيئ الإضاءة ضيقت السيدة فانينج عينيها كي تقرأ الكتابة الإسبانية على البابين.

"سيدات؟ رجال"؟ كتمت ساندي رغبتها في تصحيح نطق السيدة الأمريكية.

"يا كارلوس! ستضطر لأن تترجم لي كي لا ينتهي بي الأمر في الغرفة الخاطئة معك"! لفت السيدة فانينج ردفيها بطريقة هزلية مثل شخص يحاول الحفاظ على حركة طوق الهولا هوب.

نظر پاپي إلى قدميه ولاحظت ساندي فيما قبل أنه لا يكون على طبيعته في حضرة النساء الأمريكيات. كان يقوس كتفيه ويكتسب تهذيبًا متخشبًا مثل خادم. "ساندي ستريكي" قال واضعًا ابنته بينه وبين السيدة فانينج التي ضحكت من ارتباكه. "انطلقي إذًا يا حلوتي" أمسكت ساندي

t.me/qurssan

بالباب الذي كتب عليه سيدات وأبقته مفتوحا للسيدة الأمريكية. بينما تستدير السيدة فانينج لتتبعها، مالت نحو والد ساندي ومسحت شفتيها في شفتيه.

لم تعرف ساندي ما إن كان عليها أن تقف هناك في بلاهة أو تركض إلى الداخل وتترك الباب ينغلق في وجه هذه اللحظة غير المريحة. نظرت إلى قدميها كما يفعل أبوها وانتظرت مرور السيدة الضاحكة. كانت ساندي تستطيع أن ترى وجه أبيها وهو يعتم ويتلون.

وجدت ساندي والسيدة فانينج نفسيهما في ردهة جميلة صغيرة بأريكة ومصابيح وكومة من الفوط المعطرة. تلصصت ساندي على الكبائن في الغرفة المجاورة، وأسرعت إلى واحدة مطلقة مثانتها. شعرت بعد أن استراحت بالوقع الكامل والمذهل لما شهدته للتو. امرأة أمريكية متزوجة قبّلت أباها!

خرجت من كابينتها وسمعت السيدة فانينج لا تزال مستمرة في نشاطها في الكابينة التي دخلتها. انتهت سريعًا من رفع جوربها السخيف، ثم حفت يديها تحت الصنبور وبدأت تجففهما في فستانها ولكنها تذكرت المناشف بعد مسحة مبدئية. أخذت واحدة من الكومة ومسحت يديها وخبطت على وجهها كما رأت مامي تفعل بفرشاة البودرة. عندما نظرت إلى نفسها في المرآة، تفاجأت بوجود فتاة جميلة ترد النظرة إليها. كانت فتاة يمكن أن يُعتقد أنها أمريكية بعيون رقيقة زرقاء وبشرة فاتحة. ملامح يتم إرجاعها في التجمعات العائلية إلى جدة من السويد. رفعت ضفائرها: كان وجهها رقيقًا مثل وجه راقصة باليه. أدهشها بشكل غير شخصي كما لو كان حُكمًا يلقيه شخص آخر. شخص أمريكي ومهم مثل الدكتور

t.me/qurssan

فانينج: "كانت جميلة". لقد سمعت ذلك يقال من قبل، ولكنَّ المديح كان دائمًا مديحًا جماعيًا للأخوات جميعا، لذا كانت ساندي تعتقد أنها مجاملة من أصدقاء أبويها تقال عن البنات كما كانوا يقولون "إنهم كبار جدًا" أو "إنهم أذكياء جدًا" عن الأبناء. كونها جميلة يعني ألا تعود إلى المكان الذي أتت منه. جميلة هنا تتحدث اللغتين. الجميلة تنتمي إلى هذه البلد بالرغم من الساحرة. بينما تتفحص نفسها، انفتح في المرآة باب الكابينة التي تقع خلفها. تركت ساندي ضفائرها تسقط وأسرعت خارج الغرفة.

كان أبوها ينتظر في غرفة الانتظار يتحرك جيئة وذهابا بتوتر، تقلق يداه العملات في جيبه. همس. "أين هي"؟

أشارت ساندي بذقنها إلى الغرفة خلفها.

همس لها: "هذه المرأة سكرانة"، ربض بجوار ساندي، "ولكني لا أستطيع أن أهينها، تخيلي! هذه هي فرصتنا الوحيدة في هذا البلد". كان يتحدث بالصوت الجاد الهامس نفسه الذي كان يستخدمه مع مامي في آخر أيامهم في البلد القديم. "من فضلك يا ساندي. أنت فتاة كبيرة الآن. لا كلمة من هذا كله تصل لأمك. أنتِ تعرفين أحوالها هذه الأيام".

تأملته ساندي. كانت تلك أول مرة يطلب أبوها منها أن تتستر على شيء. قبل أن يكون لديها وقت للرد تأرجح باب الحمام منفتحا. وقف والدها وصاحت السيدة فانينج "إذًا أنت هنا يا سكرة"!

"نعم نحن هنا"! قال والدها بصوت مبالغ في المرح، "ويجب علينا أن نعود إلى الطاولة قبل أن يرسلوا القوات البحرية"! بخبث كما لو كان قد فكر للتو في تلك المزحة التي كان يعدها منذ أسابيع.

t.me/qurssan

ألقت السيدة فانينج برأسها إلى الوراء ضاحكة "أوه كارلوس"!

انضم والدها لضحك السيدة الأمريكية المصطنع، ثم توقف فجأة عندما لاحظ عيون ساندي مثبتةً عليه، وقال لها: "ما الذي تنتظرينه"؟ تحدث بصوت حاسم مشيرا برأسه نحو السلالم. حولت ساندي نظرها بعيدًا، مجروحةً. ضحكت السيدة فانينج مرة أخرى وقادت الطريق صاعدة السلالم الضيقة الملتوية. شعرت ساندي كأنها تصعد من زنزانة في نبو، ستقول ذلك لأخواتها، وتجعلهن يتمنين لو كن قد ذهبن إلى الحمام أيضًا، مع أن ساندي في الحقيقة كانت تتمنى لو لم تشرد بعيدا عن الطاولة أبدًا. لم تكن سترى ما ليس لديها الآن أمل في نسيانه.

عند الطاولة، ضم النادل الشاب كرسيها إلى الطاولة. كان لا يزال رائعًا. بشرته ناعمة بلون خمري ثري ويداه طويلتان ورشيقتان، مثل الملائكة في الرسوم وهم يحملون كتب التراتيل. ولكن هذا الرجل يمكنه بالفعل أن يميل إلى الأمام مثلما فعلت السيدة فانينج في الأسفل. يمكن أن يحاول تقبيلها -هي ساندي- على شفتيها. لم تدع نظرتها تذهب باتجاهه مرة أخرى.

عوضًا عن ذلك أخذت تتفحص آل فانينج بحرص بحثًا عن أدلة لتصرفاتهم الغامضة. أحد الأشياء التي لاحظتها كانت أن السيدة فانينج تشرب الكثير من النبيذ، وفي كل مرة كانت تهز رأسها للنادل كي يملأ لها الكأس كان الدكتور فانينج يقول لها شيئًا من طرف فمه. في لحظة ما عندما مال النادل نحو الكأس الفارغ غطاه الدكتور فانينج بيده. "هذا يكفي"، صاح وسريعًا مال النادل مبتعدًا مرة أخرى.

t.me/qurssan

"يا لك من ضرطة فاضحة"! علقت السيدة فانينج بصوت عالٍ بما يكفي كي تسمع بقية الطاولة، مع أن كلمة ضرطة بالأنجليزية لم تكن كلمة معروفة للفتيات. بدات مامي فورًا في الانشغال بساندي وأخواتها مدعية ان تبادل الهمسات الغاضبة بين آل فانينج لا يحدث. ولكن لم يكن من الممكن إلهاء فيفي الصغيرة عن المشهد الحاصل في نهاية الطاولة: حدقت في عائلة فانينج المتناحرين بعيون متسعة، ثم نحو مامي بنظرة جادة تنذر بقدوم دموع. غمزت لها مامي ثم ابتسمت ابتسامة مشرقة لتطمئن الفتاة الصغيرة أنه لا ينبغي اخذ هؤلاء الأمريكيين على محمل الجد.

لحسن الحظ، ظهرت أطباق طعامهم يحملها طاقم من الندل يقودهم رئيسهم المنشغل. تشتت التوتر بينما تناول الزوجان لقيمات صغيرة حذرة من الأصناف المختلفة المقدمة. بدأ الجالسون حول الطاولة في مدح وتقييم الطعام.. وجدت ساندي أغلب الأشياء في طبقها غير صالحة للأكل، ولكن كان هناك ورقة خس سخية للزينة يمكن تخبئة اللحم اللزج والأرز المدهن تحتها.

شعرت الليلة بأنها تجاوزت والديها: كانت تستطيع أن ترى أنهما ضئيلان بالمقارنة بهؤلاء الفانينج، وقد شهدت بنفسها مشهدا يمكن لكشفه أن يتسبب في مشاكل. ماذا يهمها لو طالبها أبواها بأكل كل البستيلون، ستقول ما قد تقوله فتاة أمريكية "لا أريد. لا تستطيعان أن تجبراني. هذه بلد حرة".

"ساندي، انظري"! كان أبوها يحاول كسب صداقتها. كان يشير الى خشبة المسرح؛ حيث كانت الأضواء تخفت. وظهرت فجأة ست سيدات

t.me/qurssan

في فساتين طويلة ضيقة بتنورات منتفخة وكستانيت في أيديهن. ظهر عازف الجيتار ودق نغمة تلفت الانتباه. انضم إلى السيدات رجال يبدون في زي مصارعي ثيران. دقوا بأقدامهم كتحية وردت السيدات بالدق، هالوا ست سيدات وستة رجال قاموا بسلسلة معقدة من الخطوات. تطرق الكستانيت التي تحملها السيدات بنغمة مداعبة، ويردد الرجال صدى حركات شريكاتهم باختيال متحمس بخبطات أقدام. لم تكن تلك هي استدارات وانحناءات راقصات الباليه في مركز لينكولن. تلك النساء كن يبدين، حسنًا –لا تعرف ساندي طريقة أخرى لقولها– كن يبدين كما لو كن يردن نزع ملابسهن أمام الرجال. يويو وفيفي كانتا الأقرب إلى المسرح، ولكن مانّبي سمحت لكارلا وساندي أن تجرا كرسيهما وتصنعا تجمعًا وتنضما إلى أختيهما. صفقت الراقصات وتبخترن ملقيات برؤوسهن بجرأة مثل الخيول.. شعرت ساندي بالنشوة. هذه الرقصة الجامحة الجميلة يؤديها أشخاص مثلها، هم إسبانيون يشعرون بنفس المتعة الغريبة المربكة التي تجعل ساندي تعتصر يد فيفي أحيانًا حتى تبكي، أو تلعب مصارعة الثيران مع يويو بمنشفة حتى تسقط الفتاتان من الضحك والإرهاق على الأرض، مما يجعل الساحرة في الطابق الأسفل تقرع السقف بعصا المكنسة.

"البنات مستمتعات جدًا"، سمعت أمها تسر إلى السيدة فانينج.

"وأنا أيضًا" علقت السيدة الأمريكية "هؤلاء الرجال شيء آخر يا لوري، انظري إلى سراويلهم الضيقة".

"جميلة جدًا" قالت أم ساندي بشيء من الجفاف.

وجه الدكتور فانينج فحيحا إلى زوجته "هذا يكفي يا سيلفيا".

t.me/qurssan

مع تطور العرض كانت ساندي تستطيع أن ترى وجوه الراقصين تتجمع عليها قطرات العرق. تشعبت تحت أذرعهم بقع مبتلة، وكانت ابتساماتهم مشدودة. مع ذلك كانوا جميلين، بينما يتقدم زوج منهم ثم الذي يليه في رقصات فردية. انسحب الرجال وجلبوا ورودًا من مكان ما قدموها لشريكاتهم. بدأت السيدات في رقصة يمسكن فيها الورود في أفواههن ويطرقن الكستانيت تحيةً متواصلةً للرجال.

خلف ساندي حك مقعد بالأرض، وسقط آخر ثم اندفع بجوارها شخصان. كان الدكتور فانينج يركض خلف زوجته! تسلقت السيدة فانينج المنصة مصفقة بيديها فوق رأسها واندفع الدكتور فانينج نحوها لكن لم يستطع اللحاق بها. وصلت إلى منتصف. أزاح لها الراقصون مكانًا بطيب خاطر. لم يتبعها الدكتور فانينج، هز كتفيه غضبًا واستدار عائدا إلى طاولتهم.

قالت أم ساندي: "دعها تستمتع بوقتها". كان صوتها مليئًا بمرح زائف، "إنها تستمتع بوقتها فقط".

"لقد أفرطت في الشراب. هذا ما فعلته"، صرخ الطبيب.

اشتعل المطعم بالأداء المضحك للسيدة الأمريكية. كانت تخبط ردفيها في الراقصين الرجال وتدير عيونها. ضحك الزبائن وصفقوا. سلطت إدارة المطعم الضوء عليها لطرافة اللحظة، وتقدم عازف الجيتار منها ضاربًا نغمة أمريكية معروفة بذائقة إسبانية. تشارك أحد الراقصين الرجال مع السيدة فانينج التي كلما تقدمت نحوه تراجع فيما يشبه بتومايم لمطاردة كارتونية. زأر الجمهور إعجابًا. الجميع ما عدا ساندي. لقد حطمت السيدة فانينج، سحر الراقصين الجامحين والفاتنين. لم تطق

t.me/qurssan

مشاهدتها. ادارت كرسيها لتواجه الطاولة، وشغلت نفسها ساندي بكأس الماء تديرها لتصنع علامات متصلة من البلل على المفرش الأبيض.

قام شريك السيدة فانينج باصطحابها عائدًا بها إلى طاولتها، ووقف والد ساندي وسحب لها الكرسي.

"هيا نذهب"، استدار الدكتور فانينج باحثًا عن النادل كي يطلب الفاتورة.

"فلتسترخ يا سكر. هل تفعل"؟ حثته زوجته.

كان أحد الراقصين قد أعطى السيدة الأمريكية وردتها وحاولت السيدة فانينج الآن أن تضعها في ياقة سترة زوجها. ضيق الدكتور فانينج عينيه نحوها وقبل أن يهم بالحديث، تم تقديم زجاجة شمبانيا كهدية من المطعم إلى الطاولة. دوى صوت فتح سدادة ورفع بعض الزبائن من الطاولات المجاورة كؤوسهم تحية للسيدة فانينج.

"نخبٌ لنا جميعًا"، رفعت السيدة فانينج كأسها، "هيا يا بنات"، حثتهن. رفعت أخوات ساندي كؤوس الماء وقرعوها في كأس السيدة الأمريكية.

"ساندي"! قالت أمها، "وأنت أيضًا".

رفعت ساندي كأسها في تراخٍ.

رفع الدكتور فانينج كأسه كي يضفي جدية مقصودة على اللحظة: "في صحتكم آل جارسيا. أهلاً بكم في هذا البلد". رفع والداها كأسيهما،

t.me/qurssan

ولاحظت ساندي امتنانًا في عيني أبيها وبللاً في عيني أمها، ما يعني أنها تحبس دموعها بالكاد.

بينما يتحدث الدكتور فانينج مع أحد الندل، اقتربت إحدى الراقصات من الطاولة وهي تحمل سلة كبيرة من القش معلقة في طوق يلتف حول رقبتها. امالت السلة باتجاه البنات ومنحت الرجلان ابتسامة واسعة ودافئة. داخل السلة كان هناك دستة من دمى الباربي ولكن بشعر داكن ويرتدين أزياء تشبه أزياء الراقصات الإسبانيات. أمسكت الراقصة بدمية ونفشت تنورة فستانها، فتفتحت بجمال مثل وردة ناضرة. وسألت الصغيرة فيفي: "هل ترغبين في واحدة"؟ كانت المرأة تتحدث الإنجليزية بلكنة ثقيلة مثل الدكتور جارسيا.

أومأت فيفي رأسها بلهفة أن "نعم"، ثم نظرت إلى أمها التي كانت تراقبها فهزت رأسها ببطء نافيةً، قالت الراقصة بصوت متفاجئ رافعة حاجبها: "كلا"؟ ثم نظرت إلى البنات الأخريات، ووقعت عينها على ساندي. "هل ترغبين في واحدة"؟

تذكرت ساندي بالطبع التحذير المتكرر للبنات، أن عليهن ألا يطلبن أطباقًا خاصة، أو متعًا من أي نوع. ليس بإمكان عائلة جارسيا دفع ثمن أي إضافات، ولا يريدون وضع مضيفيهما في حرج الاضطرار إلى إنفاق المزيد من المال من أجل التعبير عن السخاء. حدقت ساندي في الدمية الصغيرة. كانت نسخة كاملة من الراقصات، ترتدي فستانًا طويلاً لامعًا بمشط جميل من صدفة السلحفاة في شعرها تنسدل منه طرحة من الدانتيل. في قدميها حذاء أسود بكعب وإبزيم، كحذاء الراقصات. تجاهلت ساندي نظرة أمها الشرسة ومدت يدها نحو الدمية.

t.me/qurssan

اظهرت الراقصة المسؤولة عن المبيعات بطرف ظفرها الملون الكاستانيت المصغرة التي تحملها الدمية. شعرت ساندي بحنو يشبه ما تشعر به الأم الجديدة عندما تفرد قبضة المولود. التفتت إلى والدها متجاهلة تحديق أمها. "بابي هل أستطيع أن آخذها"؟ نظر أبوها إلى فتاة المبيعات الجميلة وابتسم. كانت ساندي تستطيع ان تخمن أنّه يريد أن يترك انطباعا جيدًا. "بالطبع"، وأضاف وهو يهز رأسه، "أي شيء من أجل ابنتي". ابتسمت فتاة المبيعات.

انطلقت فورًا الصيحات من الفتيات الثلاث الأخريات "وأنا أيضا يا بابي! وأنا أيضًا"!

مدت الأم يدها وتناولت الدمية من يدي ساندي. "لا يمكن أبدا يا بنات" هزت رأسها باتجاه الراقصة التي كانت قد مدّت يدها بالفعل داخل سلتها واستخرجت ثلاث دمى أخرى.

في ذلك الوقت كانت فاتورة الحساب قد أتت وكان دكتور فانينج يراجع البنود ويكوم الأوراق المالية على الصينية الصغيرة. بينما يفعل ذلك حدق بابي في مفرش الطاولة. في البلد القديمة كان الجميع يتصارعون على شرف الدفع، ولكن ما الذي عليه أن يفعله في هذا البلد الجديد حيث لم يكن يعرف حتى إن كان لديه ما يكفي من المال في جيبه ليستطيع شراء الدمى الأربع التي كان الآن ملزمًا بتوفيرها للبنات.

همست مامي لبناتها "أنتن تعرفن القواعد"!

"من فضلك يا مامي، من فضلك"، توسلت فيفي دون أن تعرف أن عرض المرأة للدمى عليهن لا يعني أنها مجانية.

t.me/qurssan

"لا"! قالت مامي بحدة، "ولا مناقشة بعد الآن يا بنات". جعلت الحدة في صوتها السيدة فانينج التي كانت تلملم أشياءها بشرود تنتبه. "ما الذي يحدث"؟ سألت أم الفتيات. "لا شيء"، قالت مامي وابتسمت بتوتر.

لم تكن ساندي ستفوت الفرصة. هذه المرأة قد قبلت والدها. هذه المرأة قد افسدت عرض الراقصين الفاتنين. الأمر من وجهة نظر ساندي هو أن هذه المرأة مدينة لها بشيء. "نريد واحدة من تلك الدمى"، اشارت ساندي إلى السلة التي كانت الراقصة ترتب فيها الدمى المرفوضة.

"ساندي"! صاحت أمها.

"نعم أظن أن هذه فكرة بديعة. تذكار"! أشارت السيدة فانينج إلى الراقصة أن تعود، فاقتربت من الطاولة بكامل بضاعتها. "أعطى كل واحدة من هؤلاء البنات دمية وأضيفيها إلى الفاتورة. يا سكر". التفتت إلى زوجها الذي كان قد انتهى من دفع الحساب. "تمهّل".

"لن أسمح..." تقدم پاپي في مقعده مادًا يده مرة أخرى إلى المحفظة في جيبه الخلفي.

"هراء"! أسكتته السيدة فانينج. لمست يده لتمنعه من فتح محفظته.

جفل پاپي ثم حاول التغطية على رد فعله بادعاء أنه يلوح لها بإبعاد يدها.

"لا تأخذي منه نقودًا"، أمرت السيدة فانينج الراقصة التي ابتسمت بلا مبالاة.

t.me/qurssan

"نعم" قال الدكتور فانينج موافقًا زوجته، "كنا نريد شراء شيء للبنات ولكن، تبًّا، لم نعرف ماذا نختار. هذه ممتازة". استخرج أربع ورقات أخرى من فئة العشرة من لفافة أمواله. تبادل بابي نظرة قليلة الحيلة مع مامي.

تلقفت ساندي الدمية التي ترتدي زيًّا مطابقًا للراقصات في العرض، بينما انشغلت أخواتها باختيار دمياتهن. أوقفت الدمية على الطاولة ورفعت إحدى ذراعيها ومدت الذراع الأخرى كي تتجمد في وقفة الراقصات الإسبانيات.

"أنت لطيفة للغاية"، قالت أمها للسيدة فانينج، ثم وفي صوت جامد يعد بعقاب لاحق وجهت كلامها للبنات الأربع: "ماذا تقُلن"؟

"شكرًا"! رددت أخوات ساندي في كورال جماعي.

"ساندي"؟! قالت أمها.

نظرت ساندي إلى الأعلى. كانت عيون أمها داكنة وجميلة مثل الراقصة الصغيرة المقابلة لها. "نعم مامي"؟ سألت بأدب كما لو كانت لم تسمع الأمر.

"ما الذي تقولينه للسيدة فانينج"؟

استدارت ساندي للسيدة التي توحي عيناها الزائغتان الثملتان وابتسامتها المتهكمة بالأشياء التي بدأت ساندي لتوِّها في تعلمها. أشياء تعرفها الراقصات جيدًا، ولهذا يرقصن بكل تلك الحرارة وكل هذا الشغف. جعلت دميتها تقفز حتى تصل إلى السيدة الأمريكية وانحنت لها.

t.me/qurssan

ضحكت السيدة فانينج وردت الانحناءة. لم تتوقف ساندي. دفعت الدمية لتقترب أكثر فقلدت السيدة فانينج نظرة مندهشة محولة العينين. رفعت الدمية الجديدة حتى وجه السيدة الأمريكية، وأمالتها حتى لمس راسها الصغير خد السيدة المحمر وأصدرت ساندي صوت طرقعة. "أشكرك". قالتها بالإسبانية كما لو كانت تؤكد ولاء الدمية للزي الذي ترتديه.

t.me/qurssan

(٣)

١٩٥٦ ـ ١٩٦٠

t.me/qurssan

دماء الفاتحين

مامي وبابي والبنات الأربع

كان كارلوس في حجرة المؤن يأتي لنفسه بكوب من الماء من الصنبور المفلتر، حين رأى الرجلين يقترِبان عبر ممر السيارات. يرتديان زيًا كاكيًا مثنى، وكل منهما يرتدي نظارة عاكسة وتضاهي لمعة الإطار لمعة إبزيم حزام مسدسيهما. فيما عدا المسدسين كانا يبدوان مثل مراقبي عمال جاءا لتحصيل فاتورة أو للإشراف على مهمة سيكدح فيها رجال آخرون.

كانت الطاهية العجوز تشوتشا منشغلة بالبحث عن صحن لكوبه، وانتبهت حين أومأ برأسه نحو النافذة. نظرت إلى الأعلى فرأت الرجلين. رفع كارلوس إصبعه نحو شفتيه ببطء شديد حتى لا يلحظا حركة في النافذة عند اقترابهما. أومأت تشوتشا برأسها. انسحب من الغرفة بحرص، وفور أن وصل إلى البهو؛ حيث لا توجد نوافذ تطل على ممر السيارات وركض كالمجنون إلى غرفة النوم. اجتاز الشرفة؛ حيث تلعب الفتيات الأربع لعبة التماثيل مع أبناء عمومتهن.

كانوا منهمكون في اللعبة فلم يلحظوا جسده الضبابي وهو يركض مارًا بهم. ولكن تصادف أن يويو التي تجمدت وهي تستدير نظرت إلى الأعلى فرأته.

مرة أخرى يضع إصبعه على شفتيه. تميل يويو رأسها في فضول.

t.me/qurssan

"يويو"! يصيح أحد أبناء العمومة، "يويو تحركت"!

يندلع الجدل عند وصوله لباب غرفة النوم. يأمل أن تبقي يويو فمها مغلقًا. بالتأكيد سيسألها الرجال عندما يفتشون المنزل. الأطفال والخدم هما المجموعتان اللتان يتم سؤالهما دائمًا.

في غرفة النوم يفتح باب غرفة الخزانة الكبيرة فيضاء نورها. عندما يغلق الباب ينطفئ الضوء. يمد يده إلى المصباح ويضيء شعاعه. يسمع الأولاد يتجادلون عن البعد ودق جرس الباب. يتسارع قلبه حتى يشعر به شيئًا آخر غير قلبه، محبوسا في صدره. يحاول تهدئة نفسه.

يتقدم حتى آخر الخزانة خلف صف من أثواب لاورا. ترِيحه رائحة بودرة التلك في ثيابها المنزلية مختلطة برائحة جلدها الذي حمصته الشمس، الرائحة المعطرة لفساتين الحفلات الخاصة بها. يتأكد أنه لم يخل بترتيب الأحذية على الأرض، ولكن خطا فوقها وفك اللوح الخلفي. في الداخل غريفة بها فتحة تهوية تنفتح على مكان الدش في الحمام. يدخلها بعض الهواء والضوء. وتوجد فوطتان ووسادة وملاءة وقصرية ووعاء به ماء للشرب وأسبرين، وحبوب منومة وصورة القديس يهوذا تداوس محقق الآمال المستحيلة التي ألصقتها لاورا على الحائط الداخلي، والمسدس الصغير الذي هربه له "ڤيك"- إن اضطرته الظروف له – ملفوف جيدًا في قميص إضافي، قميص داكن اللون وبنطال داكن للهروب ليلاً. يخطو داخلاً ويضع المصباح على الأرض ويطرق اللوح ليغلقه على نفسه بالداخل.

عندما رأت يويو والدها يمر مهرولاً اعتقدت أنه يلعب إحدى ألعابه التي لا يحبها أحد والتي تقول مامي إنها سيئة الذوق. كما يحدث حين يقول "هل تريدين أن تسمعي الله يتكلم"؟ فيكون عليها أن تضغط أنفه فيطلق

t.me/qurssan

ربما، أو عندما يسألها مرة تلو المرة "ما لون حصان نابوليون الأبيض"، أو عندما يريد التأكد ما إن كانت قد ورثتِ دماء الغزاة أم لا، فيحملها بالمقلوب ويسألها، "هل لديكِ دماء الغزاة"؟ وهي ترد بالنفي حتى تصبح غير قادرة على التحمل؛ لأنها تشعر بأن رأسها يكاد ينشق، فتضطر أن تقول "نعم"، وحينها يعيدها لوضعها الطبيعي، ثم يطلق ضحكة كبيرة وعظيمة مثل ضحكة الغزاة الذين أتوا من الجبال الخضراء للوطن الأم، إسبانيا. ولكن پاپي لا يلعب لعبة الآن، لأنه فور أن مرّ راكضًا كما لو كان في لعبة الاستغماية، دق جرس الباب وأدخلت تشوتشا هذين الرجلين المخيفي المظهر. لونهما مثل القهوة بالحليب والكاكي الذي يرتديانه بلون جلدهما نفسه، فيبدوان وكأن لونهما بالكامل بيج، وهو لون لن يختاره أحد كلون مفضل. كانا يرتديان نظارات عاكسة داكنة. ما لفت نظر يويو كان أحزمتهما والبروز الأسود اللامع للمسدسات التي تبرز منه.

هي الآن تعرف أن المسدسات غير قانونية. فقط الجنود في بزاتهم الرسمية يمكنهم حملها، لذا فهؤلاء الرجال إما أنهم مجرمون وإما من الشرطة السرية في ملابس مدنية الذين حكت لها مامي عنهم، والذين يمكنهم التواجد في أي مكان وفي أي وقت مثل الملاك الحارس، عدا أنهم لا يمنعونك من فعل شيء خاطئ، ولكنهم ينتظرون كي يمسكوا بك وأنت تفعله، كما مزحت مامي مع يويو أنها يستحسن أن تسلك سلوكا جيدًا لأن هؤلاء الشرطيين السريين إن شاهدوها تفعل خطأً ما فسيأخذونها إلى سجن للأطفال؛ حيث قائمة الطعام تقتصر على كل شيء لا تحب أن تأكله.

كانت تشوتشا تتحدث بصوت عالٍ جدًّا وتكرر ما يقوله الرجال كأنها صماء. لا بد أنها تريد أن يسمع پاپي في مخبئه. لا بد أن هذا الأمر

t.me/qurssan

جاد مثل تلك المرة التي قالت فيها يويو لجارهم الجنرال المسنّ القصة المختلقة عن أن بابي لديه مسدس، وهي قصة ظهر أنها حقيقية لأن بابي كان لديه مسدس بالفعل مخبأ لهدف ما. وشت المربية ميلاجروس بيويو وضربها أبواها ضربًا عنيفًا بالحزام في الحمام، بينما فتحا الماء كي لا يسمع أحد صرخاتها. ثم كان على مامي أن تقابل العم فيك سرًا بالمسدس مخبأ تحت معطف المطر الخاص بها، كي لا تعثر عليه الشرطة إذا جاءت إلى المنزل، كان ذلك خطيرًا جدًّا. كان ذلك هو الوقت الذي ما زالت مامي تتحدث عنه قائلة: "عندما كدت تتسببين في مقتل أبيكِ يا يويو".

ما إن جلس الرجلان في غرفة المعيشة الملاصقة للشرفة الداخلية حتى بدآ يحاولان استدراج الأولاد في الكلام. لم تتفوه يويو بكلمة. كانت متأكدة أن مجيء الرجلين مرتبط بقصة المسدس تلك التي حكتها، عندما كانت في الخامسة، وقبل أن يقول لها أي شخص إن المسدسات غير قانونية.

سأل الرجل الأطول ذو السن الذهبية مونديين، الولد الوحيد الموجود، عن مكان والده. شرح مونديين أن والده لا يزال في المكتب على الأغلب، فسأله الرجل أين أمه، وقال مونديين إنه يظن أنّها في المنزل.

"قالت الخادمة إنّها ليست في المنزل"، يقول القصير ذو الوجه العريض بصوت شرس. كان من اللذيذ مشاهدته يدرك بعد لحظة أنه مخطئ عندما يقول مونديين: "أنت تعني الخالة لاورا. ولكن أنا أعيش في المنزل الملاصق".

t.me/qurssan

"آآآاه"! يقول القصير ماطًّا الكلمة وفمه مستدير كماسورة المسدس الذي افرغه ومرره كي يستطيع الأولاد جميعًا الإمساك به. تأخذه يويو في يدها وتنظر داخل ثقب الماسورة مباشرة، مرتعشة. ربما كان معمرًا، ربما إن اطلقت النار على رأسها سيسامحها الجميع على أنها اخترعت قصة المسدس.

"من منكن يا بنات تعيش هنا إذًا"؟ يسأل الطويل. ترفع كارلا يدها كأنها في المدرسة. ساندي أيضًا ترفع يدها مقلدةً، وتقول ليويو وفيفي ان ترفعا أيديهما أيضًا.

"أربع بنات"، يقول السمين محركًا عينيه، "لا يوجد أولاد"! يهززن رؤوسهن نفيًا، "يُستحسن أن يركّب أبوكن أقفالاً على الأبواب".

تبرق نظرة متوترة على وجه فيفي. قبل بضعة أيام أدارت العصا الصغيرة على مقبض باب غرفتها بطريقة خاطئة، ثم لم تستطع إعادتها إلى مكانها مرة أخرى لتفتح الباب. كان لا بد أن يأتي عامل من مصنع پاپيتو وينزع الرتاج بأكمله محدثًا ثقبًا في الباب، ليخرج فيفي التي أصيبت بالهستيريا. " ولماذا الأقفال"؟ سألت وشفتها السفلى ترتعش.

"لماذا"؟ ضحك السمين. تأرجحت كومة الشحم أسفل خصره. "لماذا"؟ استمر في التكرار والانطلاق ضاحكًا من جديد. "تعالي هنا يا حلوتي ودعيني أشرح لك لمَ يجب على پاپي وضع الأقفال على الأبواب". يستدعي فيفي بحركة من سبّابته المعوجة. تهز فيفي رأسها رافضة وتبدأ في البكاء. تريد يويو أن تبكي أيضًا ولكنها متأكدة أنها إن فعلت فسيرتابون ويأخذون أباها، وربما يأخذون العائلة بأكملها. تتخيل يويو نفسها في زنزانة. ستكون مثل فليسيداد، عصفور ماميتا الصغير في قفصه. سيدفع

t.me/qurssan

الحراس بنادقهم داخل القفص كما تنغز يويو فليسيداد أحيانًا بالأعواد الخشبية عندما يختفي الرقباء في المنزل الكبير. كانت على وشك البكاء من الخوف عندما سمعت صوت السيارة في المدخل، لا بد وأنها "مامي وصلت"! تصيح متمنية ان يوقف هذا الخبر السعيد دموع أختها الصغيرة.

يتبادل الرجلان النظرات ويعيدان مسدسيهما إلى حافظتيهما.

تدخل تشوتشا بوجه متجهم كالعادة وتعلن بصوت عالٍ: "السيدة لاورا وصلت إلى المنزل". تُسقط مسحوقًا ناعمًا وهي في طريقها إلى الخارج، وتتحرك شفتاها بلا تَوَقف كما لو كانت تمارس عادتها في الغمغمة بصوت خفيض، ولكن يويو تدرك أنها تلقي بتعويذة ستترك الرجلين مسلوبي القوة.

بينما تتقدم لاورا في ممر السيارات، أطلقت الزمور مرتين لتنبه الحارس أن يفتح البوابة، وفوجئت أنها مفتوحة بالفعل. وكان تشينكو واقفًا خارج البوابة الصغيرة، يتحدث مع رجل يرتدي الكاكي. ورأت لاورا أمامها السيارة الفولكس فاجن السوداء فسقط قلبها في قدميها. في المقعد المجاور لها جلست الفتاة الريفية إيماكولادا بعد شهور من محاولة إقناعها بإمكانية الجلوس فيه. قالت لها: "سيدتي، لديك زوار".

فتجاريها لاورا مسيطرةً على الرعشة في صوتها "نعم زوار"، تتوقف وتشير إلى تشينو أن يأتي إلى السيارة: "ما الأمر يا تشينو"؟

"إنهم يبحثون عن السيد كارلوس"، يقول تشينو بتوتر. يخفض صوته وينظر إلى إيماكولادا التي تنظر إلى كفيها. "إنهم هنا منذ فترة. هناك اثنان آخران ينتظران داخل المنزل".

t.me/qurssan

"سأتحدث معهم". تقول لاورا لتشينو الذي منحته عيناه المسحوبتان هذا اللقب الذي يعني "صيني" بالإسبانية. "واذهب أنت إلى السيدة كارمن وقل لها أن تتصل بالسيد فيكتور لتخبره أن يأتي فورًا ليأخذ حذاء التنس الخاص به. حذاء التنس، هل تسمع"؟ يهز تشينو رأسه. تثق لاورا أنه سيفهم ما تعنيه، فتشينو كان مع العائلة منذ أمد بعيد، أتى تاليًا لتشوتشا فقط، التي أتت عندما كانت أم لاورا لا تزال حبلى بها. ينادي تشينو الرجل ذا الزي الكاكي الذي يطفئ سيجارته في العشب خلفه، ويقترب من السيارة. بينما تحييه لاورا يرى تشينو يقطع الحديقة نحو منزل السيد موندو.

"اعذرينا يا سيدة على حضورنا المفاجئ"، يقول الرجل بأدب زائف، يبدو كما لو أنه استخرج منه عنوة. "نحتاج أن نسأل الدكتور جارسيا بعض الأسئلة، وفي العيادة قالوا لنا إنه في المنزل. صبيكم (وهو يقصد تشينو الذي تجاوز الخمسين) يقول إن الدكتور لم يعد بعد، ونحن سننتظره. هو في الطريق بالتأكيد". ينظر الحارس إلى السماء مغطيًا عينيه: الشمس في المنتصف في كبد السماء فوقه تمامًا. الظهيرة، وقت الغداء، الوقت الذي يجلس فيه كل رجل إلى طاولته، ويشق رغيف الخبز ويتلو صلاة إلى الرب والرئيس تروخييو من أجل الرخاء الذي تنعم فيه البلاد.

"انتظروه بالطبع، ولكن من فضلك ليس تحت هذه الشمس الخارقة"، تتحول لاورا إلى أسلوبها الفخم. الأسلوب الفخم عادة ما ينزع سلاح هؤلاء الخدم المساكين الريفيين، الذين التحقوا بالمخابرات العسكرية في معظمهم من أجل أن يضعوا المال في جيوبهم، والطعام والروم في بطونهم والمسدسات عند أردافهم. ولكنهم في أعماقهم ما زالوا

t.me/qurssan

صبيانًا في ملابس مهلهلة يجلبون جوزات الهند لسيد الضيعة، عندما يزور املاكه مع عائلته يوم الأحد.

"يجب أن تأتي إلى الداخل وتشرب شيئًا مرطِّبًا".

يحني الرجل رأسه ممتنًا. ولكن لا، يجب عليه أن يبقى في مكانه، إنها أوامر. تعد لاورا بأن ترسل إليه بيرة باردة وتقود السيارة متجهة إلى المنزل. تتساءل ما إن كانت كارمن قد استطاعت أن تصل إلى فيكتور. قال فيكتور إن عليهم الاتصال به عند أول بادرة للمتاعب والعبارة السرية هي "حذاء التنس". وهو سيفي بكلمته. لم يكن ذنبه أن وزارة الداخلية قد جبنت عن الخطة التي وضعتها. وقد وعد بإخراج الرجال آمنين، جميعهم ما عدا فرناندو بالطبع. مسكين هذا الصغير أن ينتهي به الأمر شانقًا نفسه بحزامه في زنزانته كي لا يشي بأسماء الآخرين تحت التعذيب الذي كان يقوم به أنصار تروخييو. مضى على فرناندو شهر في قبره، فليحمِنا القديس تداوس جميعًا.

عند الباب أشارت إلى إماكولادا بأن تجلب المشتريات، وألا تنسى أن تأخذ زجاجة برسيدانتي، البيرة الشعبية التي يفضلونها جميعًا، إلى الرجل الجالس بجوار البوابة، ثم ترسم علامة الصليب وتدخل البيت. في غرفة المعيشة ينهض الرجلان ليحيياها، تركض فيفي نحوها دامعة ويويو وراءها مباشرة بعيون محدقة تبدو خائفة. تربي لاورا بناتها وفقًا للأسلوب الأمريكي بإطلاعها على جديد يكتب في الأمر، لذا فهي تعرف أنه لم يكن ينبغي عليها ضرب يويو في تلك المرة، التي أفزعتهم فيها الفتاة لهذه الدرجة. ولكنك تفقد صوابك في هذا الجحيم المجنون وتنسى قواعد التربية. الآن على سبيل المثال هي تفكر في فعل شيء جامح ومجنون،

t.me/qurssan

تتهاوى إلى الأرض مثلما كانت النساء يفعلن في الأفلام القديمة، عندما كن يردن تشتيت الانتباه عن منطقة الخطر، فاتحة أزرار قميصها وتعرض المتعة على الرجال إن سمحوا لزوجها وأطفالها ان يهربوا.

"من فضلكم يا سادة"، تقول لاورا وهي تحثهم على الجلوس ثم تشير بعينيها إلى الأطفال أن يغادروا الغرفة. يستجيبون جميعًا عدا يويو ونيفي اللتين تمسكان بجانبيها دون أن تنطقا بكلمة.

"هل هناك مشكلة"؟ تبادر لاورا.

"لدينا فقط بضعة أسئلة للسيد كارلوس. هل تتوقعين مجيئه لتناول وجبة الظهيرة"؟

في تلك اللحظة تخطر لها طريقة تعطل بها هؤلاء الرجال. تتمنى ان يكون فيكتور في طريقه إلى هنا، هو من سيعرف كيف يتعامل مع هذه المصيبة.

"زوجي يلعب مباراة تنس اليوم مع فيكتور هابرد"، تنطق الاسم ببطء كي يتم استيعابه، "في الغالب طالت المباراة قليلاً. خذوا راحتكم من فضلكم. بيتي هو بيتكم"، تقول مرددة الترحيب الدومينيكاني التقليدي.

تستأذن للحظة لتحضر صينية من الأطعمة الخفيفة، فيحثها الرجلان على ألا تزعج نفسها بتحضيرها. كانت تشوتشا وحدها في غرفة المؤن منذ أن ذهبت إيماكولادا لتقدم للحارس بيرته. تتبادل المرأة العجوز السوداء والسيدة الشابة النظرات. تتحدث تشوتشا بدون صوت وتقرأ لاورا شفتيها: "السيد كارلوس في غرفة النوم"!، تومئ

t.me/qurssan

لاورا. هي تعرف أين هو، ومع أن وجوده على بعد بضعة أقدام من هؤلاء الرجال في الغرفة السرية المغلقة يخيفها، إلا أنها ممتنة أيضًا لكونه قريبًا حتى إنها تكاد تقدر أن تمدّ يدها وتلمسه. تعود بعدها إلى غرفة المعيشة تقدم للرجال صينية من شرائح الموز المقلية والفول السوداني وخبز الكاسافا وتسكب لكلٍ منهما زجاجة برسيتدانتي في الأكواب الرخيصة التي تخصّصها للخدم. تتذكر وهي ترى الرجلين ينظران إلى الصينية، القصة التي تقول إن تروخييو يُجبر طباخه على تذوق الطعام قبل أن يأكله، فتقطع لاورا قطعة من خبز الكاسافا لفيفي التي بجانبها وأخرى ليويو. ثم تأخذ هي نفسها حفنة من الفول السوداني وتضعها في فمها. فيمد الرجلان أيديهم ويأكلان.

عندما دق جرس التليفون في منزل السيدة تاتيكا شعرت بالرنين في أعماق بطنها الموجوع فتتوقع أخبارًا سيئة. تبتهل للقديس كانديلاريو أن يقف بجانبها. ترفع سماعة الهاتف كما لو كان له مخالب وترد بصوت رفيع لا يشبه صوتها: "صباح الخير، فندق آل بارايسو في خدمتك".

لا ترد السيدة الأمريكية الجادة على الجانب الآخر التحية، وتقول بنبرة رسمية لا تمزح إنها تتصل لشأن خاص بالسفارة. "أريد التحدث للسيد ڤيك". ترد تاتيكا بحدة مماثلة: "لا أستطيع إزعاجه"، ولكن الصوت يرد بصرامة: "إنه أمر عاجل"، فينبغي على تاتيكا أن تطيع.

تعبر الفناء نحو الكوخ رقم ٦. مع أنها ضخمة بما يكفي بجسدها العريض بلون الكراميل، إلا أن تاتيكا تضاعف حجمها بشكل دراماتيكي بارتدائها دائمًا للون الأحمر كنذر قطعته لقديسها الحامي كاندلاريو كي يشفيها من الالتهاب الفظيع في أحشائها. لقد تدخل

t.me/qurssan

الطبيب وقص بعضًا من معدتها وجهازها النسائي كله، ولكن كاندلاريو بقي يملأ تلك المساحة الفارغة بروحه. والآن وكلما كانت المتاعب تقترب، كانت تاتيكا تشعر بالحموضة المعوية القديمة تتصاعد من الندبة المحفورة على بطنها في شكل حشرة أم اربع وأربعين. يهتاج الألم في أحشائها مع كل خطوة تأخذها تاتيكا... المتاعب على وشك الحدوث لا محالة.

كان صبي البستاني جالسًا مع السائق الأمريكي في استرخاء تحت شجرة الخشخاش. عندما رآها شَغَل نفسه سريعًا بتقليم سياج تعيس المنظر. هتف السائق: نهارك سعيد يا سيدة تاتيكا، وأمال قبعته نحو تاتيكا التي رفعت رأسها باستعلاء. الكوخ رقم ٦، وهو الكوخ المعتاد للسيد فيكتور تراه في المواجهة مباشرة. تكييف الهواء يعمل. سيكون على تاتيكا أن تقرع الباب بقوة لا تملكها حتى يسمعها.

توقف عند الباب. تتوسل لكاندلاريو بينما ترفع يدها لتطرق لأن الخفقان قد تصاعد. "طوارئ"!، تهتف وكأنها تعني الإشارة إلى حالتها هي نفسها، فجسدها كله الآن مغمور في ألم حارق كأن فستانها ذا اللون الملتهب قد اشتعل.

طرقة لعينة على الباب اللعين. "تليفون ملح يا سيد هبارد". لا يتوقف فيك عن الرهز لكنه يصيح "دقيقة واحدة"، وينتهي أولاً. يومئ للكائن اللذيذ الضاحك ويقول بلغة مختلطة: "معذرة بعد إذنك"، لغة لا يعرف إن كانت من دورة الإسبانية المكثفة التي تلقاها في المخابرات المركزية الأمريكية أم من دروس اللغة اللاتينية في مدرسته الثانوية أم

t.me/qurssan

الفرنسية في الجامعة، ولكن المال والقضيب الذكري هما ما لهما الكلمة العليا هنا على كل حال.

عندما أتى إلى تلك البقعة الصغيرة الساخنة لأول مرة لم يكن فيكتور يعرف مدى سخونتها. بحث فورًا عن زميل دراسته القديم موندو سليل إحدى العائلات الثرية التي ترسل أبناءها إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة الثانوية والجامعية. قدّمه الزميل القديم للجميع حتى اصبح يعرف كل مثيري القلاقل من بين رجال الطبقة العليا الذين كانت وزارة الخارجية، تريد منه أن يعدهم للثورة على النظام المحلي. الرجال أوصلوه لتاتيكا التي وفرت له الفتيات الصغيرات اللاتي يحبهن. تلك الدمى الصغيرة. سمراوات ولذيذات كأكواب القهوة الكوبية الصغيرة الممتلئة بسكر الجزيرة الذي يبقيك ترتعش نصف النهار.

يرتدي فيك ملابسه سريعًا، فيصبح جاهزًا للعمل، "باي باي"، يقول وهو يلوح للفتاة الصغيرة التي تعبس بشكل طفولي. "تصرفي باحترام" يقول مازحًا فترفع ذقنها في دلال.. إنهن حقًا مليحات. فتح الباب ليرى تاتيكا على وشك الانهيار، مئتا رطل قد تتهاوى على يديه. رفع عينيه فرأى خلف كتفها سائقه وصبي البستاني يسرعان لمساعدته. ومن خلفه وأعلى من هدير جهاز التكييف، يسمع صوت الفتاة الصغيرة تنادي اسم السيدة تاتيكا. وكما لو أنها عائدة من حفرة جحيم ألمها تفتح تاتيكا عينيها وينفغر فمها، "تليفون عاجل يا جناب السفير"، تهمس للسيد فيك فينطلق تاركًا إياها تنهار بين أيدي عمالها أمثالها من الرعاع.

t.me/qurssan

يذهب "ڤيك" أولاً إلى منزل موندو؛ حيث إن المكالمة جاءت من كارمن، فيجدها في الفناء مع عدد لا نهائي من الأطفال يتناولون وجبة الظهيرة على طاولة كبيرة. تسرع كارمن نحوه "نشكر الرب أخيرًا ڤيك"، تقول بدلاً من الترحيب. لطيفة هذه السيدة الصغيرة وسيقانها لا بأس بها أيضًا. لكن لسوء الحظ طالتها يد الراهبات في سن صغيرة ولطالما أعطته دروسًا دينية مملة متنكرة في صورة حوارات على العشاء. يتساءل ما إن كان يبدو عليه ما يدلّ على المكان الذي جاء منه للتو، ويبتسم متذكرًا القطعة الصغيرة اللذيذة التي لا تزيد في عمرها كثيرًا عن تلك الحوريات الصغيرات الجالسات حول الطاولة الآن. "العم ڤيك، العم ڤيك"، يناديه الأطفال، يقول في سره: لتربطوني إلى أحد الأعمدة ولتجلدوني بالمرة.

ينظر سريعًا حول الطاولة. لا أثر لموندو. ربما اضطر لأن يلجأ للخزانة التي نصحه ڤيك ببنائها، يبتسم مطمئنًا كارمن التي ترد بابتسامة اختلطت بعبوس الخوف. "ستجده في المكتب"، تشير إليه.

يلح الأولاد على العم ڤيك أن يأتي إلى طاولة الغداء التي لا يسمح لهم بمغادرتها. يلوح لهم ويقول؛ "استمروا يا جنود" بينما يمرّ بهم. خلف ظهره يسمع كارمن تناديه "هل أكلت يا فيكتور"؟ تحرص أولئك النساء اللاتينيات أن تكون بطنك ممتلئة وقميصك مكويًا ومنديلك نظيفًا حتى تحت تطاير الرصاص وتساقط القنابل. إن ذلك اللطف هو ما يجعل بنات المجتمع المهذب مضيفات اجتماعيات عظيمات والفتيات عند تاتيكا عشيقات مطيعات.

t.me/qurssan

يطرق الباب ويقول اسمه، وينتظر ويقوله مرة أخرى أعلى قليلاً في هذه المرة بما أن تكييف الهواء يعمل. يبدو الباب كأنه انفتح من تلقاء ذاته، ولا يدعوه أحد للدخول. يدخل ويغلق الباب ثم يسمع صوت ارتخاء زر أمان المسدس. "ماذا دهاكم يا رفاق"؟ يصيح رافعًا يديه ليكشف أنه صديق غير مسلح. جميع النوافذ مغلقة، والرجال متنشرون حول الغرفة، كما لو كانوا يتخذون مواقع مراقبة. يخرج موندو من خلف الباب وفيدليو المتوتر يقف بجوار أرفف الكتب يشد الكتب ويدخلها كما لو كانت رافعات يمكن أن تهربهم بأمان خارج تلك اللحظة المخيفة. يجلس ماتيو القرفصاء كما لو كان يشعل نارًا. باقي الرجال يقفون بجوار نوافذ مختلفة. يا إلهي! يبدون مثل مجموعة من الأرانب الخائفة.

"تصورنا أنك من المخابرات العسكرية"، يقول موندو مفسرًا مسدسه المشهر. يسحب كرسيًا لصديقه. تحمل المقاعد في مكتبه شعار جامعة يال التي تخرجوا فيها، والتي يلاحظ "ڤيك" أن العائلة تنطقها "چيل" (والتي تعني سجن بالإنجليزية).

"ما الأمر"؟ يسأل "ڤيك" بإسبانيته ذات اللكنة الثقيلة.

"مصاعب"، يقول موندو، "بألف ولام التعريف".

يقول "ڤيك" وهو يومئ للمجموعة: "نحن مستعدون". "الخطة حذاء التنس"، ثم فعل ما يفعله دائمًا عندما تندلع الكوارث منذ كان صبيًا في إنديانا: طقطق أصابعه وابتسم.

t.me/qurssan

تناولت كارلا وساندي غداءهما في منزل الخالة كارمن، وهي ليست مخالفة للقواعد؛ أولاً لأن مامي اومأت بعينيها ان يغربن عن وجهها، وثانيًا لأن بإمكان الفتيات تناول الطعام في منزل اي خالة ما دون لسن معاقبات، وإن أعلمن مامي أولاً. هذا يعيدنا للقاعدة الأولى؛ حيث إن مامي طلبت أن تغربن عن وجهها، وقد مضت ساعة على الوقت الذي كان يجب أن تأكلن فيه في المنزل.

شعرن بشيء ما مثير للريبة، مثلما تشعر أمهما عندما تدخل عليهن فيخبئن سريعًا شيئًا ما لا يردنها أن تراه، فتشير لأنفها بإصبعها وتقول: "أشم رائحة جرذ ميت". وكان من المريب أن يعود الخال موندو وقت الغداء، دون أن يجلس حتى، وإنما يذهب مباشرة إلى مكتبه، ثم يأتي جميع الأعمام كما لو كانوا يعدون لحفل ما، أو أن يتخذوا قرارًا عائليًا مصيريًا بشأن شرب ماميتا للخمر أو أعمال پاپيتو أثناء غيابه. كانت الخالة كارمن تفزع في كل مرة يدق فيها جرس الباب. وعندما تعود تسأل السؤال نفسه الذي كانت قد سألته للتو: "كنتم إذًا تلعبون لعبة التماثيل ثم جاء الرجلان"؟ فيثرثر موندين عن مسدس الرجل الذي استطاع إمساكه. في كل مرة كان يذكر ذلك تلمح كارلا رعشةً تغشى جسد الخالة، مثلما يحدث عندما يكون هناك تيار هواء بارد في المنزل الجبلي، فترتدي جميع الخالات شيلانًا جميلة. اليوم مع ذلك حار جدًا وسُمح للأولاد أن ينزلوا حمام السباحة في الصباح قبل لعبة التماثيل، وقد قالت الخالة إنهم إن كانوا مهذبين، فقد يمكنهم أن ينزلوا مرة أخرى بعد هضم الطعام. مرّتان في حمام السباحة في يوم واحد وتعاني الخالة من رعشة في هذه الحرارة. هناك شيء مريب جدًّا يحدث.

t.me/qurssan

تدق الخالة الجرس الفضي الصغير، فتأتي أديلا وتزيل جميع الصحون، ثم تأتي بالتحلية والتي تتضمن دائمًا علبة من شوكولاتة (رسل ستوفر) بالربطة المرسومة عليها. عندما تدور العلبة يكون عليك أن تحدد بالنظر فقط أي واحدة تحتوي حبة مكسرات بداخلها أو كراميل او جوز الهند أملا في الا تفاجأ عندما تقضمها بقلب طري تريد ان تبصقه.

هناك نقص في شوكولاتة (رسل ستوفر) لأن أحدًا لم يذهب إلى الولايات المتحدة مؤخرًا ليأتي بها معه. پاپيتو وماميتا غادرا بعد الكريسماس مباشرة كالعادة ولم يعودا بعد. وقد أصبحنا في أغسطس. مامي تقول إن ذلك بسبب صحة ماميتا وحاجتها لأن تزور أطباء أخصّائيين، ولكن كارلا سمعت همسات أن پاپيتو استقال من منصبه في الأمم المتحدة لذا فالحكومة لا تحبه كثيرًا الآن. كل فترة يزأر الجنود في سياراتهم الجيب ويقفزون محيطين بمنزل پاپيتو، ثم يأتي تشينو دائمًا راكضًا ليخبر مامي التي تتصل بالعم "ڤيك" لتقول له أن يأتي ليأخذ حذاء التنس الخاص به. لم ترَ كارلا العم "ڤيك" يأتي بأي نوع من الأحذية إلى المنزل ما عدا ذلك المليء بالثقوب الذي يرتديه. دائمًا ما يأتي في إحدى سيارات الليموزين التي تراها كارلا في الأعراس فقط، وعندما يمر موكب الرئيس تروخييو. يتحدث العم "ڤيك" مع قائد الجنود ويعطيه بعض المال ثم يصعدون جميعًا إلى السيارات الجيب ويغادرون في ضجيج. يبدو الأمر برمته مثيرًا كفيلم، لكن مامي تقول إن عليهم الا يحكوا لأصدقائهم عنه. "الفم المفتوح يدخله الذباب"، تستخدم مامي إحدى مقولاتها المفضلة لتشرح لكارلا حين تسألها، "لَم لا نستطيع ان نحكي ما نحدث"؟

t.me/qurssan

تصل علبة الشوكولاتة في النهاية إلى الخالة فتخرج إحدى القطع وتتنهد عندما يتشاجر الأطفال حول من منهم سيحصل عليها. يخرج "ڤيك" مبتسمًا ويداعب شعر مونذين ويضع يده على كتف الخالة العم ريسال الطاولة بأكملها "من يريد منكم الذهاب إلى نيويورك؟ من يريد أن يرى بناية إمباير ستيت"؟ يتحدث العم "ڤيك" معهم دائمًا بالإنجليزية حتى يحصلوا على بعض التدريب. "ماذا عن تمثال الحرية"؟

في البداية ينظر أبناء الخالات لبعضهم. البعض غير راغبين في إحراج أنفسهم بصياح "أنا! أنا"! ثم يصيح العم "ڤيك" "كذبة أبريل"! ولكن بحرص ترفع كارلا ثم ساندي ثم لوسيندا أيديهن. ومثل التفاعل التسلسلي ترتفع يد تلو الأخرى بعضها لا تزال تمسك بشوكولاتة رسل ستوفر". "أنا، أنا، أنا أريد أن أذهب"! يرفع العم "ڤيك" يده ناردًا كفه كي يبقي أصواتهم منخفضة. عندما يهدؤون جميعًا منتظرين أن يختار الفائز، ينظر إلى الخالة كارمن بجواره ويقول "ماذا عنك يا كارمن؟ أتريدين الذهاب"؟ يردد الأولاد جميعًا "نعم يا خالة نعم"! وكارلا أيضًا حتى لاحظت أن يدي خالتها ترتعشان وهي تثبت الغطاء على علبة (رسل ستوفر) الفارغة.

كانت لاورا فزعة من أنها قد تقول شيئًا لا يجب أن تقوله. ظلّ هذان البلطجيان يستجوبانها طوال نصف ساعة، كانت يويو وفيفي تمسكتان بها حمدًا للرب، تتأففان وهي تضيع الوقت في سؤالهما عما تريدانه، وفي جعلهما تسمّعان الأناشيد للضيفان وتحاول أن تجعل فيفي العابسة تبتسم للرجل البغيض السمين.

t.me/qurssan

أخيرًا تتنفس الصعداء! ها هو "ڤيك" يعبر الحديقة ممسكًا بيدي كارلا وساندي. يلتفت الرجلان، وكأنما في رد فعل انعكاسي تتجه يدا كل منهما إلى جراب مسدسه. تذكرها الحركة برجل يعبث بأعضائه. قد يكون ذلك الطابع الجنسي المبهم خلف العنف الذي يحيطها هو ما نفّر لاورا من ممارسة الجنس كل تلك الشهور.

تنادي "ڤيكتور"! ثم وبصوت أكثر هدوءًا ألمحت للرجال كما لو كانت لا تريدهم أن يحرجوا أنفسهم بعدم معرفة من هي تلك الشخصية المهمة. "ڤيكتور هابر، القنصل في السفارة الأمريكية. اعذراني يا سادة". عبرت الفناء ومنحت "ڤيك" قبلة سريعة على خده وهمست له وهي تقبله: "أخبرتهم أنّه كان يلعب التنس معك". يمنحها "ڤيك" هزة رأس طفيفة بينما يبتسم وكأن أحدًا يتفحص أسنانه.

حيّت لاورا كارلا وساندي بشكل مبالغ فيه "عزيزاتي. تشيكيتا الحلوات، هل تناولتما الطعام"؟ تومئان بالإيجاب ناظرتين إليها عن كثب وهي ترى بغصّة أنهم يلقطون سريعًا اللغة الوطنية للدولة البوليسية: كل كلمة، كل إشارة هي حقل ألغام محتمل. احرصوا فيما تقولونه، انظروا إلى أين تخطون.

كان (ڤيكتور) يمزح مع الرجلين ويربت عليهما وقد سألهما مرتين عن اسميهما كما لو كان يلوح بأنه سيمرر إلى رؤسائهما شكوى أو ثناء. يبدو الرجلان متوترين لأول مرة، وتلاحظ لاورا ذلك بابتهاج. "قد جئنا لنسأل الدكتور بضعة أسئلة، ولكن يبدو أنه قد اختفى".

"على الإطلاق"، يصحح لهم "ڤيك"، "كنا نلعب التنس للتو، سيصل إلى البيت في أي لحظة". ينتبه الرجلان. يسترسل فيك ليقول إنه

t.me/qurssan

إن كانت هناك أية مشكلة فهو يستطيع تعديل الأمور. ففي نهاية الأمر الدكتور صديق شخصي له. تراقب لاورا رد فعلهما، بينما يقول لهم "ڤيك" اخبارًا جديدة بالنسبة لها هي أيضًا. لقد حصل الدكتور على زمالة في مستشفى في الولايات المتحدة وهو، ڤيكتور، قد سمع للتو انَّ قسم الهجرة قد أجاز أوراق العائلة فِلمَ يقع الدكتور الناجح في اي متاعب؟!

إذًا، تفكر لاورا، لقد أجيزت الأوراق ونحن سنغادر! الآن أصبح كل شيء يقع عليه بصرها أكثر وضوحًا كما لو كانت تراه عبر عدسة الفقد: زهور الأوركيد في سِلالها المعلقة المصنوعة من القش، صف برطمانات العطارة التي عثر عليها كارلوس من أجلها عند صيادلة قدامى في أنحاء الريف، أشعة الضوء الغنية المفعمة بحبوب اللقاح الذهبية. ستفتقد هذا الضوء البهي الذي يبث الدفء تحت جلدها ويضفي تلك اللمعة على الأشجار والعشب وبركة الزنابق خلف السياج. تفكر في أسلافها، الغزاة الشقر الذين وصلوا إلى العالم الجديد دون أن يدركوا أن الذهب الذي يسعون إليه هو هذا الضوء الملتهب. وانظروا ماذا بدؤوا، تفكر لاورا، ناظرة إلى الأعلى لترى الذهب يلمع في فم أحد الجنود بينما ينشق منفتحًا على ابتسامة خائفة.

هذا الصباح عندما باع لهم ذلك المخنث على الناصية تذاكر اليانصيب قال: "انتبها لنفسيكما، أرى لهب قديسيكم يحترق فوق رأسيكما. ترفع يد الرب البعض وتُخفض الآخرين ولكن البعض..." – ونقَل نظره بين بوبو وتشيكو– "...البعض يُنبذون بعيدًا". انتبه بوبو ورسم الصليب على نفسه، ولكن تشيكو لوى ذراع المخنث خلف ظهره وهدده بأن يضربه بيد الله على ذكورته. ويخاف بوبو من كلمات تشيكو

t.me/qurssan

أحيانًا فيشعر كأنهما ليسا أولاد عمومة من الريف، كانت والدتاهما تجرّهما معا إلى الكنيسة وربتاهما على الإيمان وما تجود به الأرض الفقيرة.

ولكن بائع اليانصيب كان على حق. كان اليوم مليئًا بالمفاجآت. أولاً اتصل بهم السيد فابيو. مهمة خاصة: عليهم الإبلاغ عن تحركات هذا الطبيب، جارسيا. ثم يعرف بوبو أن تشيكو سيقود العربة الجيب حتى منزل جارسيا ويقوم بالتفتيش، وهو ليس جزءًا من الأوامر. وكانت الفكرة هي أنه إذا أسفر التفتيش عن شيء فسيتم مدح مبادرتهما وسيمنحان تكريمًا وترقية. أما إن لم يسفر عن شيء وكان للعائلة علاقات فسيعودان إلى السجن لتنظيف غرف التحقيق وتطهير الزنازين التي يلوثها هؤلاء الأوغاد المساكين بفقدان السيطرة على أنفسهم.

من اللحظة التي يدخلان فيها إلى المنزل يمكن لبوبو أن يدرك من تصرفات الخادمة العجوز من هاييتي أن هذا البيت مخبأ لشيء ما، قد يكون أسلحة أو أرواحًا أو مالاً. وعندما تصل السيدة تبدو عصبيةً ومتوترة. تبتسم ابتسامة زائفة وتبدأ في ذكر عدة أسماء لتوحي بعلاقتها بأهل السلطة. غالبًا تذكر ذلك الجرينجو[٤] ذا الشعر الأحمر الذي يعمل في السفارة. في البداية يظن بوبو أنها تخادع وهو يهنئ تشيكو ونفسه بالفعل على كشف شيء ساخن. ولكن وبالفعل يظهر الجرينجو أحمر الشعر أمامهما بفتاتين أخريين تشبهان الدمى.

"من المشرف عليكما"؟ هناك حدة في صوت الجرينجو. عندما يخبره تشيكو، يلقي الأمريكي برأسه إلى الوراء "أوه فابيو بالطبع"! يرى

---

٤ لفظ يطلق في أمريكا اللاتينية على البيض من سكان أمريكا الشمالية

t.me/qurssan

بوبو فم تشيكو يتمدد في ابتسامة مطاطية، تبدو وكأنها ستنقطع. لقد احتجزا امرأةً من عائلة مهمة. لقد نبحا على الشجرة الخاطئة. كل ما يتخيله بوبو هو أن السيد فابيو سيجلدهما بالسياط.

"إليكما ما سأفعل"، يعرض عليهما القنصل الأمريكي. "سأتصل بفابيو العجوز فورًا"، يرفع بوبو أكتافه ويحني رأسه وكأن مجرد ذكر اسم رئيسه قد يتسبب في طيران رأسه. يهز تشيكو رأسه "تحت أمرك".

يتصل الأمريكي من الهاتف في البهو؛ حيث يمكن لبوبو أن يسمعه يتحدث بإسبانيته المتعثرة. هناك صمت حيث لا بد أنه ينتظر أن يتم إيصاله ولكن صوته يكتسب دفئًا. "فابيو، بخصوص سوء التفاهم الصغير هذا. دعني أقُل لك، سأتحدث مع قسم الهجرة بنفسي وسأخرج الدكتور من البلاد في ثمانٍ وأربعين ساعة". على الجانب الآخر لا بد أن السيد فابيو ألقى دعابة لأن الأمريكي ينطلق ضاحكًا ثم يستدعي تشيكو إلى الهاتف كي يتحدث معه المشرف. يسمع بوبو نبرة زميله المعتذرة النادرة "نعم، نعم، تحت أمرك يا سيد فابيو، فورًا".

يجلس بوبو بين هؤلاء الأشخاص البيض الغرباء محرجًا ومحاصرًا. كان يشعر بالفعل بالسوط يهبط مثل القدر على ظهره العاري. جميعهم صامتون بشكل غريب يستمعون لصوت تشيكو المتحجج، وعندما يصمت يسمع صوت تنفسهم بينما يد الرب تقترب. ليس واضحًا لبوبو الذي يلتقط كأسه الفارغة ويخشخش الثلج ليطمئن نفسه، ما إذا كانت يد الرب سترفع الحاصلين على الخلاص أو تنبذ الضائعين.

بينما كان الرجلين يلقيان تحيات الوداع عند الباب، بقيت ساندي على الأريكة واضعة كفيها تحتها. وأمسكت كل من فيفي ويويو بتنورة

t.me/qurssan

مامي، وظلّت فيفي تنتحب في كل مرة يميل فيها الحارس البدين لينال منها قبلة وداع. كارلا لأنها الكبرى والأكثر إدراكًا فقد أعطت يدها للرجلين وانحنت بالطريقة التي علموها أن تفعلها مع الضيوف. ثم عاد الجميع إلى غرفة المعيشة، وادارت مامي عيونها نحو العم "ڤيك" بالطريقة التي تفعلها عندما تتحدث على الهاتف مع شخص لا ترغب في الكلام معه. وسريعًا وضعت الجميع في حالة حركة: كان على البنات ان يذهبن إلى غرف نومهن ويكومن أفضل ملابسهن ويختَرن لعبة واحدة يرِدن أن يأخذنها في هذه الرحلة إلى الولايات المتحدة. ستقوم نيڤيا وميلاجروس ومامي بحزمها لاحقًا. ثم اختفت مامي مع العم "ڤيك" داخل غرفة النوم.

لحقت ساندي بأخواتها إلى غرفهن المتجاورة. وقفن في تجمع صغير خائفات يشعرن بحرص على بعضهن البعض بشكل غريب. التفتت يويو إليها "ماذا ستأخذين"؟ فيفي كانت قد اختارت بالفعل دمية الرضيعة، وكانت كارلا تفتش في علبتها الخاصة المتضمنة المجوهرات والذكريات. يويو ربتت على مسدسها.

كان غريبًا أنّه عند مواجهة العبارة الحاسمة –اللعبة الواحدة التي أريدها حقًا ـ لم يملأ شيء الهوة التي كانت تنفتح على اتساعها داخل ساندي. ليست الدمية التي يمكن أن تلف شعرها الطويل وتصففه، ليس النول الذي يستخدم لنسج مفارش لأواني الطهو كانت مامي ممتنّة جدًا لها، ليست القبة الزجاجية التي إذا قلبتها تتساقط ندف بيضاء على بيت أحمر في الغابة. لا شيء سيملأ هذا الاحتياج حقًا ولا حتى بعد سنوات، لا المرأة الجميلة التي ستكونها وتدهشها هي نفسها، ولا الجوائز التي ستحصل عليها خلال عملها المدرسي ولا المنح لدراسة

t.me/qurssan

هذا الأمر أو ذاك التي لم تستطع أن تقرر إكمالها، ولا الرجال الذين ضموها إلى صدورهم وكادوا يقنعونها عندما سقطت شفاههم بقوة على شفتيها بأن هذا بالضبط ما كانت ساندي تفتقده.

من ظلام الغرفة الصغيرة سمع كارلوس همهمات لم يميز محتواها، وشعر بوجود أشخاص لم يعرف من هم. يتساءل ما إن كان هذا ما شعر به كطفل صغير قبل أن تطغى الذكريات على الإدراكات المبهمة والنبرات والحضور، ذكريات هي في أغلبها حكايات الآخرين عن ماضيه هو. هو أصغر أبناء أبيه الخمسة والثلاثين، والخمسة والعشرين الشرعيين والخمسة عشر من أمه هو، الزوجة الثانية. لا يملك ماضيًا خاصًا به. لا يُحرَم الابن الأصغر من الإرث فقط، ولكن أيضًا من المستقبل. فهو فلا يعرف ماضيه الذي يتكون تدريجيًّا كانعكاسات في بحيرة، سوى عندما يقوله له أخوه الأكبر أو أخته: أتذكر يوم أكلت سم فئران يا كارلوس أو تذكر يوم سقطت على السلم؟

سمع لاورا تتحدث مع رجلين في غرفة المعيشة، أحدهما بصوت متهدج مخادع، والآخر بصوت أكثر خشونة وضحكة أكثر غلظة، رجل ضخم بلا شك. الفتاتان الأخريان اختفتا في ضجة أبناء العمومة في وقت مبكر. فيفي هنا هي وبوبو أيضًا. فيفي تتأفف بشكل متواصل وبوبو تسمِّع شيئًا ما للرجال، يستطيع أن يستشف ذلك من رتابة صوتها. صوت لاورا متوتر وحاد كسكين شُحَذت حديثًا، حتى إنها في كل مرة تتحدث كانت تقطع شريحة صغيرة من سيطرتها على نفسها. كارلوس يفكر في أنها ستنكسر، ستنكسر، ستنكسر، يا قديس تداوس لا تدعها تنكسر.

t.me/qurssan

ثم يشعر في ظلام الغريفة الخانق برغبة في الذهاب إلى المرحاض، ولكنه لا يجرؤ على التبول في قصرية الغرفة خوفًا من أن يسمع الرجال صوت القطرات من خلال الحائط -مع أن الله يعلم أنه وموندو عزلوا الغرفة عن الصوت حتى لم يعد بها تهوية بالمرة. في تلك الكلستروفوبيا المتنامية يسمعها بوضوح تقول "ڤيكتور"! وبالفعل يقترب لحظيًا الصوت الرتيب المشوش للقنصل الأمريكي من غرفة المعيشة، جميعهم يعرفون أن منصبه كقنصل مجرد واجهة. "ڤيك" هو في الحقيقة عميل للمخابرات الأمريكية وقد تغيرت الأوامر الموجهة إليه من "اعمل على تنظيم المعارضة وإسقاط ابن القحبة ذاك" إلى "تريث ودعنا نرى ما هو الأفضل بالنسبة لنا".

يضع كارلوس أذنه على اللوح الأمامي فور أن يسمع باب غرفة النوم يفتح. يسمع خطوات تدخل إلى الحمام، يُفتح الدوش ثم المروحة لتغطّي على صوت الكلام. التأثير المباشر هو أن الهواء المنعش بدأ في التسرب إلى المقصورة الصغيرة. ينفتح باب الخزانة ثم يسمع كارلوس تنفسًا قريبًا على الجهة الأخرى من الحائط.

٢

أنا الوحيدة التي لا تذكر شيئًا من ذلك اليوم الأخير على الجزيرة لأني الأخت الصغرى، لذا فالثلاث الأخريات يخبرنني دائمًا بما حدث في ذلك اليوم الأخير. يقُلن إنني كدت أن أتسبب في مقتل پاپي بسبب سخافتي مع أحد الشرطيين السريين اللذين أتيا يبحثان عنه. ذلك المختل كان يريدني أن أجلس على عضوه المنتصب مدعيًا أننا سنلعب لعبة "ركوب الحصان"، ولكن كلما بدأنا في الكلام عن ذكريات آخر يوم في

t.me/qurssan

الجزيرة يقول شخص ما "فيفي، لقد كدتِ ان تتسببي في مقتل بابي لأنك كنت قليلة الأدب جدًّا مع ذلك الرجل من المخابرات". وتبدأ بوبو في سرد كيف أنها هي من كادت تتسبب في مقتل بابي عندما قالت تلك القصة عن المسدس قبل يومنا الأخير على الجزيرة بسنوات. كما لو كنا نتنافس على ذلك الماضي المليء بالأشباح.

استطيع أن أقول لكم شيئًا واحدًا أتذكره قبل مغادرتنا مباشرة. كانت هناك سيدة عجوز اسمها تشوتشا كانت كانت تعمل عند عائلة مامي منذ الأزل، كان وجهها يوحي أن شخصًا ما قد عصره بعد الغسيل كي يزيل بعض السواد منه. أعني أن وجه تشوتشا كان مليئًا بالتجاعيد، ولبشرتها اللون الأسود المزرق المميز لأهالي هاييتي، وليس لون القهوة بالحليب المميز لأهالي الدومينيكان. كانت من هاييتي حقًّا أيضًا، ولهذا لم تكن تستطيع أن تنطق حرف الخاء الإسباني[5]، مما يعني أن العائلة كانت مثل المعسكر، يحمل الجميع فيه أسماء بديلة تستطيع تشوتشا أن تنطقها. وكانت دائمًا متعكرة المزاج، ليس بالضبط مزاجًا متعكرًا، ولكنهم لم يكونوا قادرين على دفعها إلى الابتسام أو البكاء أو أي شيء. كانت كما لو كانت جميع انفعالاتها قد استُهلكت تحت وطأة ما مرت به في سنوات شبابها. منذ زمن وقبل ميلاد مامي ظهرت تشوتشا على باب جدي في إحدى الليالي تتوسل أن يدخلوها. بدا أن تلك كانت ليلة المذبحة عندما قرر تروخييو أن جميع الهاتيين السود على

[5] يتحدث سكان هاييتي اللغة الفرنسية واللغة الكريولية، فبالتالي لا ينطقون حرف J الذي يلفظه الإسبان كالخاء العربية وتخفف في نطق سكان أمريكا اللاتينية إلى ما يشبه الهاء.

t.me/qurssan

جانبنا من الجزيرة[٦] سيُعدمون عند الفجر. ويقال إن الجثث قد ألقيت في أحد الأنهار، وإنه لا يزال يجري حتى اليوم، بعد خمسين سنة، بلون الدماء. تشوتشا كانت قد هربت من معسكر لحصاد القصب، وكانت تطلب اللجوء. تولاها پاپيتو، المسكينة النحيفة الصغيرة، وأظن أن ماميتا قد علمتها كيف تطبخ وتكوي وتنظف. كانت تشوتشا مثل راهبة انضمت إلى دير عائلة دي لا تور. لم تتزوج قط أو تذهب إلى أي مكان حتى في يوم عطلتها. عوضًا عن ذلك كانت تغلق غرفتها على نفسها وتصلي لأي روح من أرواح دي لا تور تكون عالقة في المطهر.

على أي حال في ذلك اليوم الأخير في الجزيرة كنّا، البنات الأربعة، في غرفنا المتجاورة نعد ملابسنا كي نغادر إلى الولايات المتحدة. كان الجاسوسان المخيفان قد رحلا، والعم "ڤيك" في غرفة النوم. كانوا يقولون لپاپي الذي كان يختبئ في المقصورة السرية كيف أننا جميعًا سنغادر في سيارة العم "ڤيك" الليموزين إلى المطار لنلحق برحلة سيوفرها لنا. أعلم أنه يبدو كشيء رأيتموه في مسلسل بوليسي، ولكن كلّ ما أفعله هو أن أعيد ما سمعته من العائلة.

ولكن هاكم ما أتذكره من آخر يوم لي على الجزيرة. أتت تشوتشا إلى غرف نومنا بصُرَّة في يدها، ونيفيا التي كانت تساعدنا في ترتيب حقائبنا قالت لها بصوت مبحوح، "ما الذي تريدينه يا عجوز"؟ لم تكن أي من الخادمات الأخريات تحب تشوتشا؛ إذ كن يعتبرنها أقل منهن

---

٦ تقع جمهوريتا الدومينيكان وهاييتي على الجزيرة نفسها المعروفة بـ "جزيرة هيسبانيولا" من مجموعة جزر الأنتيل. وتحتل الدمينيكان ما يزيد على نصف الجزيرة، فيما تحتل هايتي الجانب الأصغر.

t.me/qurssan

لأنها داكنة السواد ومن هاييتي وما إلى ذلك. تشوتشا مع ذلك لم تعطِ نيفيا سوى واحدة من نظراتها التي تلقي بالتعاويذ، وفجأة تذكرت نيفيا أن عليها أن تكوي الملابس التي سنلبسها في الطائرة.

بدأت تشوتشا في فك صرتها وخمّنّا جميعًا أنها ستمارس بعضًا من سحر الفودو علينا كطقس وداع. كانت لتشوتشا دائمًا عمل من أعمال السحر في طور التحضير، تعويذة ما ستلقيها أو روح تخاطبها أو عدو ستعاقبه. أعني أنك ستفتح باب خزانة، وهناك في الركن خلف أحذيتك ستجد برطمان به شيء ما شرّير لا يجب عليك أن تلمسه. أو ستجد شمعة تحترق في غرفتها أمام صورة شخص، وطبقا صغيرا به سيجار وشرائط بيضاء تتقاطع في أيام معينة. اضطرت مامي في النهاية أن تعطيها غرفة خاصة بها لأن الخادمات الأخريات لم يكن يردن أن ينمن بجوارها. أستطيع أن أرى لماذا كن خائفات. كانت الخادمات يقلن إنها مسكونة بالأرواح، وإنها تلقي تعاويذها عليهن، بالإضافة إلى أنّها تنام في تابوت. لا أمزح. كان محرمًا علينا أن ندخل إلى غرفتها، ولكننا كنا دائمًا نتسحب كي نلقي نظرة. كانت ناموسيتها مثبتة فوق التابوت كي لا يبدو غريبًا إلى هذا الحد كتابوت حقيقي مكشوف بداخله شخص ميت.

في البداية لم تسمح لها أمنا بذلك، أعني النوم في ذاك التابوت. قالت لتشوتشا إن الأشخاص المتحضرين ينامون في أسرّة، والتوابيت مصنوعة من أجل الجثث. ولكن تشوتشا قالت إنها تريد إعداد نفسها للموت وطلبت أن يأخذ أحد النجارين في مصنع پاپيتو قياساتها ويصنع لها صندوقًا خشبيًا كي يكون سريرًا الآن ونعشًا لاحقًا. ظلت مامي تقول: "هذا هراء يا تشوتشا. لا تكوني مأساوية".

t.me/qurssan

الواقع أن لا احد يستطيع أن يقف في طريق تشوتشا ولا حتى مامي. فسريعًا ما ظهرت البرطمانات في خزانة مامي، ووضعت تشوتشا في الهيكل الخاص بها صورة مامي حين كانت تحملها وهي رضيعة مع حلوى النعناع على طبق صغير من الصفيح وشمعة نذور لا تنطفئ. لانت مامي بعد نحو أسبوع. قالت إن تشوتشا المسكينة لم تطلب شيئًا لنفسها من العائلة وكانت دائمًا وفية جدًا وطيبة وما إلى ذلك، وإن كان النوم في تابوت سيجعل السيدة العجوز سعيدة فستقوم مامي بصناعة صندوق جميل لها وقد فعلت ذلك. كان صندوقًا بسيط من خشب الأرز مثلما أرادت تشوتشا ولكن مامي جعلتهم يبطنونه من الداخل بقماش وثير من لون تشوتشا المفضل "البنفسجي"، وله حاشية من العروات المدورة البيضاء.

وهذا هو إذا ما تذكره عن آخر يوم. فور أن غادرت نيڤيا الغرفة أوقفتنا تشوتشا جميعا أمامها. "تشاتشا"، كانت دائما تسمينا كذلك، من موتشاتشا التي تعني فتاة، وهو السبب الذي دفعنا لصياغة اسم تدليل لها يسجع مع ما تسمينا به، تشوتشا.

قالت شيئًا من قبيل: "ستذهبون إلى أرض غريبة..." لا أتذكر الكلمات بالضبط، ولكني أتذكر النظرة الثاقبة التي ألقتها عليّ كما لو كانت تدخل بالفعل داخل رأسي. "عندما كنت فتاة صغيرة تركت بلدي أيضًا ولم أعُد مطلقًا. لم أرَ أمي وأبي وأخوتي وأخواتي. أخذت معي هذه فقط"، أمسكت الصرة ذات القماشة الأبيض وفضتها عن تمثال منحوت من الخشب، مثل النوع الذي رأيته بعد سنوات في كتب الدراسة الخاصة بالأنثروبولوجيا التي كنت أصب اهتمامي عليها كما لو كان التحديق في تلك الطواطم الخشبية المنحوتة تعيدني للماضي كما

t.me/qurssan

فعلت كعكة المادلين مع مارسيل پروست. ولكن الكتب الدراسية الخاصة بالآلهة لم تلهمني كتابة رواية من أربع مجلدات كبروست، فقط تلك اللحظة التي أتذكرها هنا.

أوقفت تشوتشا، ذلك التمثال البني، على طاولة الزينة الخاصة بكارلا. كان على وجهه تعبير عابس وأخاديد عميقة بجوار عينيه وأنفه وفمه كما لو كان مصابًا بإمساك قوي. على قمة رأسه كانت هناك منصة صغيرة وعليها وضعت تشوتشا كوبًا صغيرًا من الماء. سريعًا، وبسبب الحرارة على ما أظن، بدأ الماء يتبخر وسالت قطرات على الأخاديد المنحوتة في الوجه الخشبي ليبدو وكأن التمثال يبكي. تشوتشا امسكت برأس كل منا وناحت بصلاة لنا وبدأت تتلو تراتيل حزينة. كنا معتادين على تلك الأمور الغريبة في علاقتنا اليومية بها، ولكن لأننا ربما كنا نشعر بأجواء النهاية، بدأنا نبكي كما لو كانت تشوتشا قد اطلقت أخيرًا دموعها في كل منا.

كانوا قد رحلوا. غادروا في السيارات التي أتت لتصطحبهم، يقودها أمريكيون باهتو البشرة في أزياء رسمية بيضاء بضفائر ذهبية على أكتافهم وقبعاتهم. شاحبون أكثر من أن يكونوا أحياء. بلون الزومبي، أمّة من الزومبي. أنا قلقةٌ عليهن. على البنات، والسيدة لاورا، يتحركن بين رجال بلون الموتى الأحياء. بكت البنات جميعًا خاصة الصغرى، متمسكة بتنورتي، السيدة لاورا تنتحب بقوة في منديلها حتى إني صممت أن أعود إلى مكتبها وآتي لها بمنديل آخر نظيف. لم أرِد لها أن تدخل بلدها الجديد بمنديل مستهلك لأنني أعرف! أعرف الدموع التي تنتظرها هناك. ولكن فلنوفر عليها الآن المعرفة التي ستأتيها في وقتها. هي بالتحديد لم تملك قط أعصابا قوية.

t.me/qurssan

لقد رحلوا.. وبقي فقط الصمت، الصمت العميق والفارغ الذي استطيع فيه ان اسمع أصوات القديسيين يحتلون الغرف، وصوت الأرواح تقول لي قصصا عما سيأتي. بعد أن رحلت البنات والسيدة لاورا مع الزومبي الأمريكيين البيض، سمعت الباب يطرق في غرفة النوم الرئيسية وخرجت إلى الرواق كي أرى إن كان هناك أي مقتحمين. رأيت قرين السيد كارلوس يرتدي الأسود ويضع إصبعه على شفتيه في تقليد لآخر حركة رأيته يفعلها ذلك الصباح. رددت عليه بإشارة وجثوت على ركبتي وشاهدته يغادر من الباب الخلفي عبر بستان الجوافة. سريعًا بعد ذلك سمعت سيارة تدور ثم الصمت العَميق والفارغ للبيت المهجور.

علي أن أغلق البيت، وأساعد في منزل السيدة كارمن حتى يرحلوا هم أيضًا، ثم في بيت السيد أرتورو الذي سيرحل أيضا. سأعتني بهذا المنزل فقط على أقصى تقدير. أزيل الغبار، أهوي الغرف. تم تسريح كل الخدم الآخرين، ما عدا تشينو، وتم استئماني على المفاتيح. من وقت لآخر سيمرّ السيد ڤيكتور بالبيت ليتابع الأمور ويعطيني راتبي الشهري عندما يستطيع أن يبتعد عن فتياته الصغيرات.

الآن أسمع الأصوات تقول لي كيف أن العشب سينمو طويلاً في الحديقة غير المعتنى بها. ستمزق زهور الأوركيد الخاصة بالسيدة لاورا سلالها، وستأكل الحشرات براعمها الرقيقة، ستبقى أقفاص العصافير فارغة، وكيف أن أقفاص الطيور ستبقى فارغة بعد أن يسرق الفقراء القمري والدجاج الغيني التي تعب السيد كارلوس كثيرًا في تربيتها، وستمتلئ حمامات السباحة بالنفايات وأوراق الشجر والأشياء الميتة. وسنُترك انا وتشينو نتعفن في تلك البيوت حتى اليوم الذي أستطيع أن أراه الآن -عندما أغمض عيني- اليوم الذي سيجتاح الجنود فيه المكان

t.me/qurssan

عطمين النوافذ وآخذين الفضيات والأطباق والصور والمرآة المزخرفة بالأطفال المجنحين الذين يطلقون سهامًا والمقاعد ذات الحليات والصندوق الذي يصدر موسيقى والآخر السحري الذي يعرض صورًا. سيفرغون أرفف البنات من اللعب التي أتت بها جدتهن من ذلك المكان الذي يحكين لي عنه دائمًا؛ حيث تتساقط زهور بودرة التلك من السماء وحيث تلمس البنايات السحاب. ذلك المكان المسحور وغير الآمن حيث عليهن الآن أن يبدأن حياتهن.

قرأت صلوات لجميع الآلهة والأرواح والأب الكبير لجميع الآلهة، وطفت بكلّ الغرف أؤرجح صفيحة البخور لأطرد الأرواح الشريرة التي ملأت البيت في ذلك اليوم، ولأحفظ عن ظهر قلب ترتيب الأشياء المختلفة ومواضعها حتى أنتبه إذا تسلل أحد العمال وسرق شيئًا. في غرف الفتيات تذكرت كل واحدة منهن كثقل في مكان ما بجسدي... الآن في قلبي، الآن في كتفي، الآن في رأسي أو قدمي. أشعر بخسارتهن تتراكم مثل التراب الذي يلقى على النعش بعد إنزاله إلى باطن الأرض. أرى مستقبلهن والحياة الوعرة أمامهن. سيطاردهن ما يتذكرن وما لا يتذكرن. لكن لدى هؤلاء الفتيات إرادة قوية وستخترعن ما تحتَجن كي تبقين على قيد الحياة.

لقد غادرن وأُغلق المنزل بعد مباركة هوائه. أقفل الباب الخلفي، وأمر بغرفة الخادمات؛ حيث أرى إيماكولادا ونيفيا وميلاجروس يحزمن أغراضهن كي يغادرن في الفجر. لا يحتجن لأي وداع منّي. أذهب إلى غرفتي الخاصة التي خصصتها لي السيدة لاورا كي أبقى مع قديسي بسلام ولا أضطر لتحمل صفاقة وإزعاج الفتيات الصغيرات اللاتي لا يؤمنَّ بالأرواح. أطهر الهواء بالبخور وأشعل ست شمعات، واحدة لكل من البنات، وواحدة

للسيدة لاورا التي غيرت حفاضاتها وهي رضيعة وواحدة للسيد كارلوس.
ثم أفعل ما أفعله دائمًا بعد يوم شاق، أغسل وجهي وأذرعي بماء الزهر. أرمي الماء تالية صلاة الليل للروح التي ترقبني بعينين مشعتين من السماء الداكنة. أفتح الناموسية وأدخل في صندوقي وأعدل من وضعي حتى يصبح وجهي للأعلى ويداي مطويتين على خصري.

قبل النوم ولعدة دقائق أحاول أن أعوِّد جسدي على الدفن الذي سيأتي. أمد يدي إلى الغطاء وأشده إلى الأسفل لأغلق الصندوق على نفسي. في الظلام الضيق والحار قبل أن أرفع الغطاء، أغلق عيني وأستلقي ثابتة حتى يبدو وكأن الدم الذي أسمعه يُضخ والقلب الذي أسمعه يدق كأنّه شيء نسيت أن أطفئه في البيت المقفر.

t.me/qurssan

الجسد الإنساني

يويو

وقتذاك كنا نعيش جميعًا في بيوت متجاورة على أرض يملكها جدي وجدتي. ارتبط كل طفل في الأسرة بصديق مفضل من ضمن أبناء الأقارب. أختي الكبرى كارلا وابنة خالي لوسيندا، كانت كل منهما الأكبر بين أخواتها وقد ربطتهما صداقة بنات مليئة بالضحك والثرثرة تجعل الجميع يشعرون أنهم منبوذون. ساندي كان لديها جيزيل التي كنا جميعًا نحسدها على اسمها الجميل الذي يليق براقصات الباليه. أختي الصغرى فيفي وابنة خالتي كارمنسيتا لطيفة الطبع كانتا المفضلتين لدى الجميع لأداء المهام الصغيرة، والإمساك بطرفي حبل القفز ويسهل أسرهما عندما يتحول الفناء المشترك الكبير الذي نلعب فيه إلى مسرح لمغامرات الويسترن على يد راعي البقر موندين وراعية البقر... أنا. كنا الثنائي الوحيد المكوّن من ولد وبنت، وكلما كبرنا كانت مامي وأم موندين، الخالة كارمن تشجعان الانفصال بيننا.

ولكن ذلك كان عصيًّا على التطبيق. في المجمع السكني الخاص بعائلتنا لم يكن هناك طريقة لإبعاد شخص عن آخر. عندما كان أحد أبناء الخالات يُصاب بالجديري أو النكاف كنا نعزل معًا كي نصاب

t.me/qurssan

بالعدوى جميعًا مرة واحدة ونتجاوز الأمر. كنا نعيش في بيوت بعضنا البعض فنبقى لتناول الوجبات على اي طاولة تكون أقرب لنا عندما يتم وضع العشاء، ونتوجه إلى منازلنا فقط كي نستحم أو ننام (أو لتلقي العقاب كتلك المرة عندما وصل تقرير إلى أمنا أنني وموندين حطمنا بالنبال الكرة البلورية التي تزين بها الخالة ميمي الحديقة. "هذه كذبة"! دافعنا عن أنفسنا: "لقد كسرناها بالجاروف ونحن نحاول إسقاط بعض ثمرات الجوافة"!) أو المرة التي استخدمت فيها يويو وموندين طلاء أظافر لوسيندا وكارلا ليرسما دمًا على جروحهما. أو عندما ربطت يويو وموندين فيفي وكارمنسيتا الصغيرة في برج خزان الماء قرب نهاية الفناء ونسياهما هناك.

وفيما وراء البيوت، عبر بستان الجوافة الذي زرعته الخالة ميمي، عاش جداي في بيت كبير كنا نذهب إليه لعشاء يوم الأحد عندما يكونان بالوطن. ففي معظم الوقت كانا مسافرين، في مدينة نيويورك؛ حيث كان جدي يشغل منصبًا في الأمم المتحدة. وجدي رجل طيب متعلم يعتمر قبعة بيضاء وكبيرة من القش، وكان أكثر ما يقلقه هو عسر الهضم. لم يكن لجدي أي طموح سياسي، ولكن الدكتاتور الذي استولى على الحكم كان يتخوّف من أي شخص لديه علم أو مال، لذا فقد كان يرسل پاپيتو عادة خارج البلاد في مناصب دبلوماسية وهمية. عندما يعود پاپيتو إلى الوطن يداهم الحرس بيته في ما يسمونه "تفتيش روتيني من أجل حمايتكم". تفقد العائلة دائمًا بعد تلك التفتيشات، مشغولات فضية أو سجائر أو بعض النقود أو أزرار أكمام القمصان أو أقراط كانت مهملة في المكان. يواسي جدي جدتي التي كانت تطلب مغادرة البلاد فورًا قائلاً: "على الأقل لم نفقد حياتنا".

t.me/qurssan

ولكن ما الذي كنا نعرفه نحن الأطفال عن كل ذلك في تلك الأيام؟ قمة العنف بالنسبة لنا في تلك الفترة كانت أفلام الغرب الأمريكي التي نراها في التلفزيون أسبوعيًا مستوردةً من هوليوود ومدبلجة بلا اعتناء إلى الإسبانية.. كان الكلام يستمر بعد أن يغلق رعاة البقر أفواههم بفترة طويلة، وعند سماع صوت الطلقة يكون الشرير قد وقع منذ فترة بالفعل في بركة من الدماء. نمد أنا وموندين عنقينا إلى الأمام لنتأكد أن الشرير قد مات فعلاً. أما بخصوص العنف من حولنا، مداهمات الجنود الدورية، والأعمام الذين اختفوا من تجمعات العطلات السنوية... فقد كنا نصدق شعار المحطات الإعلامية: "الله وتروخيو يعتنيان بك".

تقاعس جدي عندما مُنح منصب الأمم المتحدة لأول مرة. لم يكن يريد أي دور في هذا النظام الفاسد. ولكن جدتي المستبدة مارست ضغوطها الخاصة عليه، مع تقدمها في العمر كانت دائمًا مريضة: أوجاع، صداع نصفي، تقلبات مزاجية لن يعرف كيف يشفيها سوى أخصائيين باهظي الأتعاب في الولايات المتحدة. كان سبب الأمراض – كما سرى في نميمة العائلة السرية– هو أن ماميتا فقدت جمالها وشبابها، وهي لم تُشفَ بالكامل من فقدان حسنها. كان جدي يدللها ويتحمل تعنتها حتى أطلقوا عليه في العائلة لقب القديس، وسرت مزحةٌ أن بابيتو كان صالحا لدرجة أنه "يتبول مياها مقدسة". واستشاطت ماميتا غضبًا لسماع أن زوجها مُنح لقب قديس على حسابها فانتقمت. أتت إلى المنزل ببرطمان ممتلئ بالماء المقدس من كنيستها. وفي أحد أيام الأحد خلال العشاء العائلي الأسبوعي رأتها أمي وهي تعد الويسكي لجدي تخلطه بالماء المقدس من الكنيسة عوضًا عن الماء العادي. وقالت جدتي

t.me/qurssan

بشماتة: "اللعنة! تقولون جميعكم إنه يتبول ماء مقدسًا. حسنًا هو يتبوله بالفعل"!

اصيب جدي بأمراض في المعدة في نيويورك، ومنذ ذلك الوقت انقسم كلّ طعام العالم إلى ما يناسب پاپيتو وما لا يناسبه. كانت جدتي تشرف على قائمة مأكولاته بتفانٍ شاعرة بالذنب ربما بسبب أشياء سابقة كانت قد جعلته يتناولها.

عندما كانوا يعودون من نيويورك كانت ماميتا تجيء بحقيبة رحلات مليئة بالألعاب لأحفادها: في إحدى المرات اشترت لي طبلة مزعجة، وفي مرة أخرى اشترت لي علبة ألوان وفرش تلوين مختلفة السُّمك للتعبير عن الأشياء الجليلة والراقية في العالم. وكان زي راعية البقر الأمريكية الخاص بي نسخة مطابقة من زي موندين، عدا كونه بتنورة. لم ترضَ عنه أمي. كان الزي سيشجعني على اللعب مع موندين وأبناء الخالات من الأولاد. كان الوقت قد حان كي أتخلص من المرحلة الصبيانية وأبدأ في التصرف كسينيوريتا شابة. "ولكنه للبنات بالفعل. الأولاد لا يلبسون التنانير"! أوضحت لها. ألقت ماميتا رأسها إلى الوراء وضحكت: "هذه البنت ليست حمقاء. إنها بذكاء ميمي حتى إن كانت لا تقرأ الكتب".

في رحلتها الأخيرة إلى مدينة نيويورك اصطحبت جدتي معها ابنتها غير المتزوجة ميمي. ميمي كانت معروفة بأنها "عبقرية العائلة" لأنها تقرأ الكتب وتعرف اللاتينية، وقد دخلت كلية أمريكية لعامين قبل أن يخرجها جدي وجدتي منها بحجة أن التعليم الزائد عن الحد قد يتلفها

t.me/qurssan

فلا تتزوج. ويبدو أن هذين العامين قد أحدثا مفعولهما من التلف؛ لأن ميمي ظلت "عانسًا" حتى عمر الثامنة والعشرين.

كنا نحن أبناء الخالات نقول مازحين إنه "في يوم زواج الخالة ميمي ستطير الأبقار"! لم يكن رأيي في خالتي سلبيًا لكونها عزباء؛ بل إني كغلامية كانت لدي كل النية في تتبع أثرها. لكن الخالة ميمي كانت تشغل وقت فراغها بأنشطة تافهة، جعلت الكل يتمنى لو كانت قد تزوجت. كانت تقرأ بنهم، وفي وقت راحتها كانت ترعى حديقة مذهلة تبدو كالجنة ثم تقرأ المزيد.

"إنها تقرأ أطنانًا وأطنانًا من الكتب"! أدارت أمي عينيها لأن إنجازات شقيقتها كان يمكن قياسها بالوزن فقط وليست بأمور محددة. مسكينة الخالة ميمي العانس. كنت أتمنى أن تستطيع سريعًا أن تجد شخصًا يتزوجها. لم أكن مهتمة قط بالحصول على زوج خالة جديد أو ارتداء فستان بهذه المناسبة، لكن مشاهدة بقرة تطير كان يستحق تحمل كلا الأمرين المزعجين.

وحدث ما كنا نخشاه نحن أبناء الخالات، فقد عادت ماميتا من رحلتها الأخيرة تلك متأثرة بفكرة الخالة ميمي عن الترفيه. فعوضًا عن الألعاب المعتادة الضخمة الرخيصة المبهرجة المزعجة التي تفسد ملابسك وتستهلك عقلك، كانت حقيبة الرحلات محمَّلة بالأدوات المدرسية وكروت الاستذكار وكراسات التمارين وعلب بحجم علبة البازل تعلن أغطيتها: إجادة الأرقام أو عجائب الطبيعة، أو مبادئ القراءة... تبادلنا أنا وموندين نظرات توحي بالهلاك الوشيك بينما نتلقى هدايانا. حصلت على كتاب قصص بالإنجليزية بالكاد استطعت أن

t.me/qurssan

أقرأها كانت به صورًا طريفة لفتاة ترتدي حمالة صدر ولباس داخلي طويل وعلى رأسها قبعة صغيرة تتدلى منها شرابة. كان حظ موندين أفضل كثيرًا في رأيي، فقد حصل على دمية شفافة ينفتح نصفها الأعلى، بداخلها أنابيب زرقاء وزهرية وبنية فاتحة ولفائف وحبيبات تتداخل في بعضها البعض كقطع البازل. شرحت الخالة ميمي أن اللعبة اسمها جسم الإنسان. اختارتها لموندين لأنه في إحدى تلك الجلسات التي كانت الخالات والأخوال يستفتون فيها الأولاد عما يخططون لفعله عندما يكبرون، عبَّر موندين عن اهتمامه بالطب. رأى الجميع أن ذلك جيد ويثبت أن لدى موندين قلبًا كبيرًا في نهاية الأمر. ولكن موندين أسرَّ لي لاحقًا أنه كان مهتمًا في المقام الأول بالإبر وتقطيع الناس على طاولة العمليات.

تفحَّصنا دمية الجسم الآدمي، بينما تقرأ الخالة ميمي بصوت عالٍ من كتيب صغير أتى معها عن الأعضاء المختلفة وما وظيفة كلٍّ منها. بعد أن تعلَّمنا كيف نركبها بحيث لا يصبح القلب معلقًا في الأمعاء ولا تواجه الرئة العمود الفقري، بدأ موندين في التذمر. "دمية! لماذا جلبت لي دميةً لعينة"؟!

لم أكن أحبها أيضًا، ولكن هذه الدمية كانت أفضل من قراءة كتاب، ويمكنك أن تحصل عليها وأنت محتفظ باحترامك لنفسك بما أنه ولد له أحشاء. ولكني كنت مندهشة لأنه لم يكن لديه بالإضافة إلى أعضائه الأخرى ما كنت أسميه في ذلك الوقت "المبولة". كنت أراها على الأولاد الصغار الشحاذين العرايا في السوق، وفي إحدى المرات على جدي الذي يتبول ماء مقدسًا عندما دخلت عليه في الحمام وهو

t.me/qurssan

يقضي حاجته. ولكن الدمية كانت ملساء فيما بين الساقين كما لو كانت طفلةً أنثى.

لا بد ان ماميتا التي كانت تحن إلى شبابها مرة اخرى تذكرت شعور ان يكون المرء صغيرًا وأحمق ومحبًا للمرح، فبدون ان تلاحظ مامي، قدمت لنا خلسة هدايا أخرى تافهة. حصلت على مضرب مثبت به كرة على شريط مطاطي ظللت اقرعها مرارًا عوضًا عن كتاب القراءة، وحصل موندين على عبوّة كبيرة من الصلصال الوردي الزاهي.

في البداية لم يعرف أي منّا ما هي محتويات تلك العبوة. برقت عينا ابن خالتي مثل عملة معدنية لامعة وصاح "علكة"ا ولكن جدتي شرحت أن هذا نوع جديد من الصلصال يسهل تشكيله. ولتريه، أخذت قطعة بحجم قبضة اليد من العبوة وشكلت كرة ثم حفرت أذنين متجاورتين وخلعت دبوسًا من شعرها رسمت به عينين وأخيرًا صنعت كرة صغيرة اتضح أنها الذيل. مدت يدها إليّ وأعطتني ما صنعت. أطلقت صيحة دهشة حين رأيت أن ما في كفها يشبه الأرنب الصغير، لكن سواء كان أرنب أو غيره، فذلك لم يبهر موندين، فلم يكن في النهاية يستطيع أن يصنع فقاعات مثل تلك التي يصنعها بالعلكة.

تعقبت موندين طوال النهار متوسلة له أن يبدل معي عبوة الصلصال، ولكنه لم يشعر بأدنى إغراء بأن يقرأ كتابي، مع أنه تمهل قليلاً وهو ينظر إلى صور الفتاة في ملابسها الداخلية قبل إعادة الكتاب لي. لم تكن كرتي ذات المضرب نافعة له أيضًا. ستعرضه لإفساد قدرته على اللعب بمضرب وكرة حقيقيين إذ يصوب هنا نحو كرة ضئيلة، "كرة بنات" تلك كما أسماها.

t.me/qurssan

عند تلك اللحظة انسحبت بكرامتي المجروحة وغادرت مبتعدة إلى "جهتنا" من المجمع السكني. تبعني موندين عبر ممر بين الشجيرات ثم تلكأ بجواري بينما أجلس على كرسي حديقة في الفناء وافتعل اهتمامًا كبيرًا بكتابي. واجهني عدة مرات راميًا كرة الصلصال الكبيرة من يد إلى يد كما لو كانت كرة بيسبول. "يا له من صلصال جميل"! يتأمل، "صلصال جميل جدًا". أبقيت عيوني على كتابي.

بدأ شيء غريب في الحدوث. أصبحت بالفعل مهتمة بمقاطع الطباعة الكثيفة الداكنة. لم تكن القصة سيئة: في أحد الأيام كان سلطان يقتل جميع الفتيات في مملكته، يقطع رؤوسهن مخترقًا أجسادهن بالسيف ويشنقهن. ولكن الفتاة المرسومة بحمالة صدر وسروال طويل، الفتاة التي بدا اسمها خطأ مطبعيًا (شاه –را- زاد، كما نطقته بصوت عالٍ) قد أسرها السلطان هي وأختها، ففكرتا في طريقة لخداعه. وفور أن هم بقطع رأسيهما سألته الأخت إن كانتا تستطيعان سماع قصة أخرى من قصص شهرزاد الرائعة قبل أن تموتا. وافق السلطان وأمهل شهرزاد حتى الفجر. ولكن عندما أشرقت الشمس لم تكن شهرزاد قد أنهت قصتها الساحرة. قطعت شهرزاد الحكي قائلةً: "أظن أنه حان كي أموت. يا للأسف فالنهاية جيدة حقًا".

أقسم السلطان: "والله لن تموتي حتى أسمع بقية القصة". سقط ظلٌ على الصفحة التي أقرؤها. نظرت إلى الأعلى حافظة مكاني في النص بإصبع السبابة. كنت سأمنح ابن خالي نظرة ازدراء وأستمر في القراءة لولا الكائن البديع الذي كان قد ابتكره. لا بد أنه قد برم الصلصال كلّه في حبل وردي طويل ولفه مرة واحدة، ثم مرتين حول أكتافه مثل أفعى لاعب السيرك. مرَّ على بعد مبعدة بوصات مني، عبر الشجيرات إلى

t.me/qurssan

ناحيتهم من الفناء. كنت أعرف أنه جاهز للمفاوضة. وضعت كتابي مقلوبًا على الكرسي وتبعته.

وجد موندين جمهورًا مأسورًا وراء الشجيرات، فقد كانت فيفي وكارمنسيتا تشاهدانه، بينما يرفع الثعبان من عنقه. نكز موندين أخته الصغيرة بطرف الثعبان، فصرخت كارمنسيتا وركضت إلى الداخل. وبعد لحظات سمعنا والدة موندين تناديه بصوت العقاب: "إدموندو اليخاندرو دي لا تور رودريجز"!

عند تلك اللحظة توجهت فيفي التي لم تكن تستطيع أن تقضي لحظة بدون نصفها الثاني نحو المنزل وأعلنت: "سأحكي". سدّ موندين طريقها. حاول أن يرشوها بقطعة من صلصاله.

"ليس عدلاً"! أسرعت نحوه ودفعت فيفي الصغيرة جانبًا. لم يكن يريد المبادلة معي أنا صديقته المفضلة وها هو يمنحه لأخت صغيرة بلا مقابل.

"حسنًا، حسنًا" أشار لي أن أخفض صوتي. مد لي يده بالأفعى "أبادلك"، حلّق قلبي. ها هي رغبتي في متناول يدي. قدمت له تنازلاً كبيرًا. "سأعطيك أي شيء تريده".

فكر موندين للحظة. انفرجت ابتسامة على شفتيه. أخفض صوته "أريني أنك فتاة".

نظرت حولي، لأحاول المماطلة. وقعت عيناي على فيفي التي كانت تتابع عملية التبادل عن كثب. سألته: "هنا"؟ أومأ برأسه مشيرًا إلى كشك في خلفية المجمع السكني يحتفظ فيه فلورنتينو بستاني ماميتا

t.me/qurssan

بأدواته. ولأن هذا الجزء من أملاكنا يحاذي قصرًا مملوكًا لابنة الدكتاتور وزوجها، فقد كان جدي مترددًا في بناء سور عالٍ كي لا يعتبر ذلك تعاليًا. كان سياج الخالة ميمي المكوّن من شجيرات زهرة الخلنجان الزاهية يقينا إلى حد ما من منظر القصر القبيح ومشهد الدكتاتور وهو يتنزه في ظهيرة يوم الأحد مع حفيده ذي الثلاث سنوات في زي جنرال صغير. كنا، نحن الأطفال، ممنوعين من التجول في منطقة كشك البستاني منذ الوقت الذي أشعلنا فيه أنا وموندين ألعابًا نارية في اللحظة التي كان فيها موكب الجنرال المصغر يمرّ بالجوار مع مربياته. اضطر پاپيتو لأن يقضي الليلة في "مركز المخابرات العسكرية شارحًا لهم ان حفيده البالغ من العمر سبع سنوات لم يكن يقصد أي مكروه. كان كشك البستاني هو المكان المفضل لي أنا وموندين لنلعب لعبة استطلاع الهنود. اكتشفنا في إحدى المرات مجلة خلف جوال من السماد بها صور لنساء عاريات، بنظرة خبيثة على وجوههن كما لو كن قد ضبطن وهن يسرقن طلاء أظافر أو يربطن أشخاصًا إلى أبراج الماء.

تبعت موندين إلى الكشك بينما أتلفت حولي وأحدق بتجهم في فيفي التي كانت تحاول اللحاق بنا. عند الباب دفعتها دفعة صغيرة كي ترحل.

"دعيها تدخل"، قال موندين، "وإلا فستذهب وتخبر عنا".

"سأبلغ عنكم"، وافقته فيفي.

كان الداخل مظلمًا ورطبًا. ثمة ضوء خافت يتسرب عبر نافذة تغطيها شبكة من السلك. فاحت في الهواء رائحة التربة السوداء التي تُجلب من الجبال كي تنمو سراخس الخالة ميمي العملاقة. وفي الركن تقبع خراطيم الماء ملتفة مثل عائلة من الأفاعي الخاملة.

t.me/qurssan

اصطففنا أنا وفيفي عند الجدار البعيد. يواجهنا موندين ويداه تشكلان الحية في كرة متزايدة الاستدارة. "هيا"، قال، "أنزلا ملابسكما".

أنزلت فيفي بنطالها ولباسها الداخلي فورًا تحت مستوى وسطها كاشفةً عمّا ظننت أنّه موضوع البحث، أي سرّتها.

ولكني كنت أكبر وكنت أعرف الحقيقة. في فصول التربية الدينية قالت لنا الراهبة (خوانا) إن الله كشف عورة آدم وحواء في جنة عدن بعد أن ارتكبا الخطيئة. "إن جسدك هو معبد الروح القدس". في البيت أخذت الخالات البنات الكبيرات جانبًا وحذرننا أننا سريعًا ما سنصبح آنسات يجب علينا حراسة أجسادنا، مثل الثروات المخبأة ولا ندع أي شخص يستغلنا. كان ذلك هو الوقت الذي وقع علي فيه ضغط كبير كي أتوقف عن اللعب مع موندين وأنضم إلى بنات الخالات الآنسات في ألعاب التجميل الخاصة بالكبار والثرثرة عن الأولاد داخل المنزل.

"هيا" أمر موندين بنفاد صبر. فهمت فيفي وأخفضت بنطالها إلى كاحلها. رميت ابن خالي بنظرة متحدية، بينما رفعت تنورة راعية البقر وطويتها تحت ذقني وأنزلت لباسي الداخلي. حصنت نفسي ضد نظراته المقتحمة، ولكن كل ما فعله موندين كان هو أنه هز كتفيه في إحباط. لاحظ "أنت مثل الدمية بالضبط" وقسم كرة الصلصال بالتساوي بيني وبين فيفي.

ارتديت ملابسي في ثوانٍ وانفجرت فيه "لقد وعدتني بالصلصال"! صحت، "لقد سمحت لها أن تأتي ولكنك لم تقُل إنّها ستقتسمه معي".

t.me/qurssan

سمعنا صوت والدة موندين تصيح من خلف شرفة المنزل "إدموندو أليخاندرو دي لا تور رودريجز"!

حاول موندين أن يُسكت صياحي الغاضب. مد يده ليستعيد النصف الذي منحه لفيفي ولكنها بدأت تصرخ أيضًا. "موندو أليخاندرو"! ارتفع الصوت وكان يقترب منا بالتأكيد. كان وجه موندين ينضح بالخوف. "هلمي من فضلك"، ترجّاني، "من فضلك سأعطيكِ دمية الجسم الآدمي أيضًا، أوكيه"؟

عذبته بلحظة تفكير طويلة بطيئة ثم هززت رأسي. هرب من الكشك باحثًا عن لعبته. شهقت فيفي بينما تربت على النصف الخاص بها محولة إياه إلى كرة صغيرة من الصلصال. نظرتْ إلى النصف الذي في يدي وقالت "كم أخذتِ"؟

كنت أستشيط غضبًا من هذه المخلوقة الصغيرة التي أفسدت فرصي في اكتناز ثروة من الصلصال الوردي. حدقت بها غاضبة. كانت لا تزال تقف بملابسها التحتية متكومةً عند كاحلها، ببقعة من بيض الإفطار على ذقنها والعيون المغبشة لشخص توقف توًا عن البكاء. ملت ورفعت بنطالها إلى الأعلى مرة أخرى، فمالت بقوة جذبي لها. أصرَّت "كم أخذتِ"؟ كانت في عيونها لمعة الاهتمام المادي الذي لم ألحظه من قبل.

رفعت النصفَ الخاص بي بجوار ذلك الخاص بها وقلت: "مثلك يا سخيفة".

t.me/qurssan

عندما انفتح الباب قليلاً كنا متأكدتين أنه موندين عائدًا بدمية جسم الإنسان. ولكن جسدين كبيرين لاحا أمامنا: هيئة البستاني النحيفة بارزة العظام يعلو وجهه القاتم قبعة من القشّ مهشمة، وبجواره والدة موندين، القصيرة عريضة المنكبين تتفحص عتمة الكشك.

قال فلورنتينو البستاني: " أظن أنني سمعت صوتهم هنا يا سيدة. لقد قلت لهم الا يدخلوا المكان. يمكنهم أن يؤذوا أنفسهم، ولكنهم لا يسمعون كلامي"! يا له من كاذب! لقد أريته أنا وموندين المجلة التي وجدناها وحلَفنا على الكتمان وقال إنه سيتخلص من "تلك القمامة" بنفسه. ولكن النظرة التي كان يرمقنا بها كلما استدعاه أحد الكبار في العائلة كانت غير مريحة.

توجهت خالتنا نحونا وأكسبها كتفاها العريضان مظهرًا رسميًّا كما لو كانت ترتدي كتفين مبطنين وتمثل آباءنا كلّهم. صاحت بصوت مصدوم "فيفي"؟! لرؤيتها طفلة العائلة المفضلة. ثم نطقت اسمي باقتناع أكبر. كانت خالتنا المفضلة بين خالاتنا ولم أرَها منزعجة مثل ذلك اليوم. "ما الذي تفعلانه هنا بحق السماء يا بنات"؟

بدأت فيفي في البكاء فورًا، فتأكد شك خالتي: لقد جررت أختي الصغيرة رغم إرادتها إلى هذا المكان القذر. أصبح تأنيب خالتي موجهًا لي فقط الآن: "ما الذي تفعلينه.. ما الذي..."؟

في تلك اللحظة انفتح الباب ودخل ابن خالتي مع الدمية يحملها عاليًا كما لو كانت جائزة قد ربحها. كان مشهد التحول على وجه ابن

t.me/qurssan

خالتي مؤلمًا، من نظرته المعتادة الخبيثة المتكبرة إلى نظرة خائفة متهاوية بلا حيلة.

"إدموندو أليخاندرو"! مدت الخالة كارمن يدها وهزت يده. سقطت الدمية الآدمية من يديه وانفتحت لتتبعثر الأحشاء على الأرض الترابية. داست خالتي على القطع، بينما تجرجر موندين من ذراعه نحو الباب. صاحت: "ما الذي تفعله هنا أيها الشاب"؟

"كنا نختبئ" صحتُ بصوت حاد مدافعة عنه بعد أن أتيحت لي لحظات كي أستجمع أفكاري. رمشت عيون موندين بسبب المفاجأة والأمل في أنه لا تزال هناك طريقة تخرجنا من ورطتنا. "الجنود..." بدأتُ أحكي، وكنت أعرف أن أقل ذكر للجنود في عائلتنا يجلب انتباها فوريًا وتامًا. لا بد أني شعرت بأن التوقيت مناسب لأن جديّ كانا قد عادا للتو من رحلتهما وكانت غارات الدكتاتور ستبدأ.

تركت خالتي ذراع ابن خالتي. "الجنود"؟! سألت بصوت خفيض. "الجنود كانوا هنا"؟!

هززت رأسي موافقة: "ولهذا اختبأنا".

نظرت خالتي إلى فلورنتين. كان البستاني جاثمًا على ركبتيه يجمع القطع الصغيرة من الجسد الآدمي. رفع نظره نحوي وعيناه تنقّبان في وجهي كما لو كان يحاول تحديد ما أنتويه. ربما تذكّر الجملة فقرر أن ينضم لصفّنا. قال: "هؤلاء الجنود"! ثم لعنهم. "لقد داسوا على سور شجيرات الخلنجان مرات عديدة حتى فاض الكيل بالآنسة ميمي".

t.me/qurssan

وقف موندين صامتًا يبتسم بضعف في اللحظة التي احتجته فيها كي يدعم قصتي المختلقة. كانت أمه تعرفه جيدًا، وتعرف وتستشعر أننا لم نكن بصدد شيء بريء، ولكن وجود الجنود في المجمع السكني يعني ألا نضيع الوقت في مخالفات ثانوية: ليذهب الجميع إلى بيوتهم، ولتخلى أسطح المكاتب، ولتخبأ الأشياء التي يسهل نهبها. قادتنا خالتي جميعًا خارج كشك البستنة نحو البيت الكبير.

عدنا سريعًا في طابور واحد يتقدمه ابن خالتي وأمه خلفه مباشرة كي "تبقي عينيها عليه"، ثم فيفي ثم أنا وأخيرا فلورنتينو في المؤخرة، يحمل في كل يد من يديه الكبيرتين المهترئتين نصفا شفافا من جسد الدمية الذي انقسم. قالت خالتي إننا لا نستطيع الآن أن نضيع الوقت في البحث عن كل القطع الصغيرة في الظلام. لاحقا عندما أتى فلورنتينو بما تمكن من استعادته إلى البيت الكبير في تجويف قبعته كانت الكلاب قد مضغت أغلب الأعضاء وغيرت شكلها أو هي قد تثنّت من جراء خطو خالتي فوقها. لم نتمكن من تمييز الكليتين الزرقاوين من قطع الرئة أو القلب أو من الفص الزهري للمخ، وعلى الرغم من أني وموندين حاولنا استخدام الشكل التوضيحي، إلا أنه لم يكن هناك سبيل لتركيب كل شيء داخل الرجل الصغير مرة أخرى.

t.me/qurssan

طبيعة صامتة

ساندي

تأخذنا السيدة تشاريتو، نحن الأطفال مواطنيها، في يدها، صباحات يوم السبت من الساعة التاسعة وحتى الثانية عشرة كي تزرع الفن داخلنا كما يزرعون المسيح في قلوب غير المؤمنين. تعتبر نفسها مواطنة من الجزيرة لزواجها من السيد خوسيه. أما هي نفسها فقد كانت امرأة مثقفة من مكان ما في ألمانيا، وقد ارتادت المتاحف الكبرى في أوروبا لترى الفن الحقيقي بعينيها. لقد لمست باليد التي ترفعها أمامنا الأطراف الباردة للتماثيل الرخامية، والتي تبدو وكأنها أطلقت الموهبة الفنية على تلك الأصابع القصيرة المشذبة. لا يمكن مجادلة السيدة تشاريتو حول لون المرجان القرمزي في الأعماق العنبرية للمحيطات الزبرجدية. كانت تنتزع الفرشاة من أيدينا بينما تعطينا تعليماتها بإسبانيتها ذات الغُنّة الألمانية والتي تجعلك تشعر بأنك تسيء نطق لغتك الأم؛ لأنك لا تتحدثها بهذه اللكنة القوية. كانت قد قابلت السيد خوسيه في مدريد خلال زيارة إلى متحف البرادو. وكان هو طالبًا في منحة لدراسة الطب مع أنه لم يكن ينوي مطلقًا أن يصبح طبيبًا. في كل عام كانت الحكومة ترسل طلبة مبعوثين إلى أوروبا في منح كل واحدة منها لتخصص محدد يوجد احتياج له. إن ربح أحدهم واحدة من تلك

t.me/qurssan

المنح وكان فقيرًا فهذا يعني فرصة لتناول ثلاث وجبات يوميًا إحداها ساخنة. كان دون خوسيه يرسم بين الوجبات بدلاً من تشريح الجثث، وعوض ما فاته من نوم تحت لوحة لجوجان وبجوار عدد من لوحات فان جوخ في البرادو. كان السيد خوسيه ينفق مصروفات السكن على أدوات الفن.

ثلاث سنوات من النوم مع زهور عباد الشمس وانهمار النجوم وعذراوات تاهيتي فعلت ما لا يستطيع عقد كامل من التدريب الأكاديمي أن يفعله. نضجت موهبة السيد خوسيه وأعلن ناقد جزيرتنا أن له "أسلوبًا راقيًا يشبه تماثيل الروكوكو البدائية بالكنائس". ينحت ملائكة مهيبون باللون البني مع لمسات من لون زهرة الكركديه يتدلون من السماء، تشدهم صدورهم الشبيهة باليقطين ومؤخراتهم الشبيهة بالشمام الناضج. صادف السيد خوزيه السيدة تشاريتو ذات ظهيرة في متحف البرادو، بينما كانت تنسخ قطعة نسيج تغطي أحد شهداء جرونفالد. انبهر بكتلة جسدها الأبيض الكبير الذي يبدو كتمثال لم ينتهِ نحته، وانبهرت هي برسمه السريع لها على هيئة السيدة العذراء تبزغ من طيات وطيات من النسيج الخشن. تزوجا وعادا إلى وطنه في الجزيرة؛ حيث لم يكن هناك أي شيء يمكن فعله –تقول السيدة تشاريتو بلكنتها الألمانية– إلا أن يكمل المرء عمله.

بنيا كوخًا من طابقين كما في كتب القصص على أطراف العاصمة، مزينًا بالأفاريز والشرفات الصغيرة وصناديق الزهور على الشبابيك، بدا كمنظر من جبال الألب في المناطق الاستوائية. عاشا هناك لأكثر من عشرين عامًا خارج نشاط الجزيرة الاجتماعي. وما كان أحد ليعيرهما انتباه لولا بيتهما الغريب الذي كانت الأسر تأخذ ابناءها

t.me/qurssan

ليشاهدوه في جولات آخر النهار يوم الأحد في الريف. "ها هو بيت مانزل وجريتل". إن كانت الستائر مفتوحة وأطل شخص من إحدى النوافذ الصغيرة العديدة، يصيح الأولاد "الساحرة، الساحرة، ها هي"!

يمكن أن تتصوروا دهشتي إذًا عندما أُخذتُ في أحد نهارات السبت بعمر الثامنة إلى عتبة هذا البيت، لحسن الحظ بصحبة ثلاث عشرة من بنات الخالات لتلّقي أول درس لنا في الفن. كان في الحقيقة ذنبي أو على الأحرى ذنب رسوماتي التي أوصلتنا إلى هذه الحافة. حتى تلك اللحظة كنت طفلةً مجهولة من عائلة دي لا تور. الابنة الثانية للابنة الثانية لجديّ السيد إدموندو أنطونيو دي لا تور والسيدة يولاندا لاورا ماريا روشيت دي لا تور. ولدت كي أموت واحدة من بنات دي لا تور الجميلات العديدات، ينتبهون لي فقط عندما تمسك إحدى الخالات وجهي في يدها وتنظر إليه بتركيز صائحة أن عينيّ هي عينا خالة أمي جراسيلا، وإن فمي هو فم ماميتا بالضبط! وكما ترون فحتى تلك المميزات الضئيلة بدت مثل سرقات تافهة. لم أكن أنا ساندرا إيزابيل جارسيا دي لا تور سوى دمية تحمل اسم دي لا تور المرموق من تجمع اجتماعي للآخر. ولكن في أحد أعياد الغطاس تم توزيع صناديق من الألوان ودفاتر من الورق على الأطفال، فتم اكتشاف أن إحدى الأيدي الصغيرة المجهولة كانت قادرة على نسخ الواقع وإضفاء النظر على العينين وتجعيد الشعر على الرأس حتى إن المرء يتوق كي يلمسه.

"من رسم هذا الرضيع؟ هذه قطة من"؟ كانوا يتساءلون. وتم العثور على الفنانة في طرف الفناء ترسم ابن المربية ميلاجروس بأقلام

t.me/qurssan

بنية وذهبية وبنفسجية. وتم تقليدي وشاح كلمة "موهوبة" مثل متعدد الألوان بعد ان ظللت غير ملحوظة حتى وقتها.

بعد عدة أيام من اكتشاف موهبتي ألقت ميلاجروس نظرة قلقة عليَّ وقت العشاء. تحججت بتقطيع اللحم، وبينما تقطعه همست لي بكلمات متقطعة: "من فضلك... يا آنسة... ساندي... يجب... أن تأتي... إلى منزلي". تسللت بعد الوجبة إلى الجزء الممنوع من المجمع السكني؛ حيث تعيش عائلات الخدم في أكواخهم الخشبية. كان ابنها راقدًا في مهده يتأوه. وثمة شموع مقدسة تبرق على رف. نقعت ميلاجروس الطفل في ماء مقدس بعد أن أخذته إلى قداس كامل المراسم في الكاتدرائية، ولكنه لا يزال محمومًا وينوح كما لو كان ينعي موته الخاص قبل أن يرحل.

توسلت إلي ميلاجروس: "أرجوكِ أرجوكِ يا آنسة ساندي أن تطلقيه"، ونزعت رسمتي عن الحائط، حيث كانت قد علقتها بجوار الصليب. حدقت في الوجه الشمعي البني الصغير على الورقة التي وُضعت في يدي ثم جعدت الورقة. تقلّب الرضيع. وضعت القصاصة في موقد الطهو الصغير الخاص بها ثم تأملناها أنا وميلاجروس وهي تحترق وتتضاءل في اللهب الأصفر الذي بدا كقشارة قلم رصاص برتقالي.

"من الرماد وإلى الرماد، من التراب وإلى التراب"، همهمت ميلاجروس وضربت على صدرها. جعل الدخان الرضيع يسعل، فنظر إليَّ بعينين براقتين كالأرواح. وبحلول وقت الإفطار في الصباح التالي منحتني ميلاجروس هزة من رأسها. لقد شفي رضيعها.

t.me/qurssan

كان حظي أقل مع قططي. رسمتها على الحائط الأمامي لبيتنا الأبيض، وأجبرت على دعك الجصّ لساعات كي أنظفه. ثم أعطوني طعامًا عقابيًا للعشاء: خبزًا يابسًا بلا زبد، وكوبًا طويلاً من الحليب الدافئ، وقد اخضرَّ لونه من الخضراوات المهروسة المخلوطة معه. ثم أرسلوني مبكرًا إلى سريري كي أتأمل في طباعي السيئة. في تلك الليلة اقتحمت الجرذان خزانة المؤن! حسم ذلك الأمر. قررت العائلة أن أتلقى دروسًا في الفن.

أجريت مكالمات هاتفية. هل يعرف أحد شخصًا يعطي دروسًا في الفن؟ ذُكر اسم السيدة تشاريتو. السيدة الألمانية التي تعيش في الشاليه ذي الطابقين في طرف المدينة، زوجة السيد خوسيه، تلك المرأة المسكينة. لم يسمع عن زوجها أحد أو يرَه لفترة من الزمن. منذ عدة سنوات مضت كان قد كلّف بنحت تماثيل للكاتدرائية الوطنية الجديدة. ولكن الافتتاح تم والكنيسة فارغة. وسرت الشائعات. لقد جنّ السيد خوسيه ولم يقدر على إنهاء المشروع العملاق. كان على زوجته أن تُعطي دروسًا كي تصرف على البيت.

وحسبما فهمت فقد شعرَت السيدة تشاريتو بالإهانة بسبب طلب عائلة دي لا تور: إنّها فنانة، وتقبل متدربين وليس أطفالا. ولكن مع الدفع مقدّما وبالدولار الأمريكي قبلتنا بشكل استثنائي، أقول قبلتنا بالجمع لأن الديمقراطية النسوية العظيمة لدمائنا الزرقاء حتمت أن تتلقى جميع فتيات دي لا تور دروسًا في مهارات التزيين. لذا فقد سُجلت كل بنات الخالات اللواتي كنّ قادرات على التحكم في مثانتهن لعدة ساعات ولن تحاولن شرب زيت تخفيف الألوان في دروس الفن أيام السبت.

t.me/qurssan

كنا أربع عشرة فتاة، ذهبنا كما قيل لنا في ذلك السبت الأول، وكنّا متوترات ونحن نقترب من ذلك المنزل نتزع الحصى من ممر السيارات لنرى إن كانت لوزة مغطاة بالشوكولاتة، ونحاول نزع مقبض الباب، وانتهى بنا الأمر للا شيء سوى طعم الأشياء الحقيقية على ألسنتنا. ثم اكتشفت ميلاجروس حبلاً يتدلى للأسفل فشدته ليرن ناقوس صغير فوق رؤوسنا. أخذت كلّ منا دورها في تجربيه.

كان الناقوس قد قرع أكثر من اثنتي عشرة مرة، وكنت أقف على أطراف أصابعي لأنال دورًا ثانيًا عندما انفتح الباب بقوة، حتى إن الناقوس دق وحده. أمامنا وقفت امرأة عملاقة بدت أكثر هيمنة بسبب الفستان زاهي الألوان بنقوش هاواي. زهور قرمزية غريبة وطيور تنتشر مياسمها وسداتها ومناقيرها في كل مكان من أرجاء جذعها. كان وجهها كسحابة بيضاء مشتعلة بشعر أحمر. تبدو مثل شيء يمكن لأي طفل أن يرسمه ولو لم يتلقَّ دروسًا في الفن.

"هذه قلّة أدب" نهرتنا بحدّة، "أنتِ"! أشارت إلي، "أنتِ المخطئة"!

هززت رأسي وانحنيت. انحنينا جميعًا، ولكن في حضرتها كان ذلك أشبه بالركوع. سريعا قدمتنا ميلاجروس لها، وقدمت للسيدة تشاريتو ورقةً وهربت عائدة إلى إحدى ثلاث سيارات سوداء متوقفة في ممر السيارات مثل خيول ضخمة متوترة. اختفت السيارات عبر الممر ناثرةً الكثير من الحصى، وتُركنا نحن الأطفال وحدنا مع السيدة تشاريتو لنتعلم "أساسيات الفن".

فَتَحت الورقة التي في يدها، ومن بين طياتها نفذت زفراتها لتدل على نفاد صبر كبير. انتظرنا بهدوء حتى فرغت من القراءة، وإذ وجدتنا

t.me/qurssan

نحبس انفاسنا انفجرت في الضحك. كان هناك فراغات بين كل اسنانها. لا شيء يجرؤ على الوقوف في وجه هذه السيدة حتى لو كانت مبتسمة. "يا يا"، قالت بصوت مطمئن، "أنا أطيب من كل هذا"، ولوّحت بيدها فوق رؤوسنا لتشير إلى العالم، كما بدا لي.

"والآن أي منكن الموهوبة الصغيرة"؟ نطقت اسمًا. كررته عدة مرات قبل ان ارفع يدي بحذر. "ها! كان علي أن اخمّن". ابتسمَت أو بالأحرى انثنى فمها قليلا عند طرفيه. بدا وكأنها تحاول تجسيد الابتسامة لا إطلاقها.

"ادخلن ادخلن" قالت وقد توعك مزاجها فجأة. "بعد أن تنزعن أحذيتكن بالطبع". والفعل، نزعنا أحذيتنا ودخلنا. تمنيت ان تكون طبقة الطين على حذائي، هي ما تسببت في أنها حدقت فيّ بينما أمر من أمامها. بدأت زيارتنا بجولة في البيت الذي كان أشبه بالمتحف منه بالمنزل. كانت السيدة تشاريتو تجمع أعمالاً لتعلقها على الحائط، معظمها أباريق وأطباق فاكهة وآلات كمان وجيتار. لم أكن أستطيع التفريق بين الآلات الموسيقية لأننا لم نكن قد تلقينا دروس موسيقى بعد. في غرفة نومها وجدنا خيولاً ذات أعراف لامعة تركض على شواطئ عاصفة. لكن هذا كان كل شيء. لم يكن هناك عناكب ولا ثمار المانجو ولا سحالٍ ولا أرواح ولا أشخاص من لحم ودم.

عندما أكملنا الجولة أخيرًا، ادعت البنات الكبيرات والأكثر خبرة في الكذب إنهن استمتعن باللوحات. هزت بقيتنا رؤوسهن.

"حسن حسن"! قالتها بلكنة ألمانية وضحكت مرة أخرى. كنت أتوق لبداية الدرس كي أرسم هذه الأسنان العاجية وألوّن عضلة اللسان البنفسجية التي تظهر من بينها كوحش سمين محبوس داخل

t.me/qurssan

فمها. ولكن عوضا عن ذلك قادتنا إلى فناء مفتوح في وسط المنزل، ودعتنا إلى الجلوس على الرغم من أن هناك كرسيين فقط ولم تجرؤ أي منا على الجلوس.

أتت امرأة عجوز بوجه مغضّن حتى إنه يبدو كلوح مليء بالخدوش، تحمل صينية عصير ليمون مر ودافئ بلا ثلج وبكل السكر مترسب في القاع ولا ملاعق كي نقلّبه. شربنا وأجفلنا وانتظرنا أن يبدأ الدرس. ولكن السيدة تشاريتو اختفت داخل مطبخها؛ حيث كنّا نسمعها تُملي أوامرها على السيدةِ العجوز.. كنت واثقة أنها أوامر عن أفضل طريقة لطهونا. نظرنا نحن الفتيات إلى بعضنا البعض لندرك فجأة أننا فرائس سهلة، أربع عشرة لقمة سائغة تزحم فناء السيدة تشاريتو وتشرب عصير ليمونها.

أخيرًا قادتنا السيدة تشاريتو إلى مرسمها. كانت غرفة كبيرة منيرة في جناح من المنزل، جميع النوافذ مفتوحة على مصاريعها ليزيل الهواء روائح الزيت والتربنتينة الثقيلة. رتبت كراسٍ من الخوص في صفوف مع لوح للرسم على كل مقعد وصندوق بين كل مقعدين مع برطمان كبير من الماء الصافي وعدة خرق قطعت من مناشف قديمة فوقه. (لا بد أن هذه كانت "بعض اللوازم" التي ذكرت في الاتفاقية).

""لتجد كل منكن مكانًا لها" أمرتنا السيدة تشاريتو. كانت هناك تسارع نحو كراسي الصفوف الخلفية ولكني لم أكن من المحظوظات. تلكأت عند المدخل أفكر في سري وأنتظر أن أرى ما سيحدث للأخريات قبل أن أتبعهن. انتهى بي الأمر في الكرسي الأمامي تحت كهفي أنف السيدة تشاريتو الأزرقين.

t.me/qurssan

بدا الدرس بتمرين رياضي. أعلنت السيدة تشاريتو باللاتينية ان "العقل السليم في الجسم السليم". رددنا نحن الفتيات "آمين" فقد ظننا اللاتينية إشارة لنرد ردًا كنسيًا. عبست السيدة تشاريتو.

"واحد، اثنان. واحد، اثنان. واحد، اثنان" امرتنا بممارسة تمارين القفز، والانحناء، لمسنا أصابع اقدامنا، فردنا أصابعنا... "من أجل الدورة الدموية" وأدخلنا أنفسنا في حالة رياضية محمومة. ثم أخيرًا بدأ درس الرسم نفسه. شرحت السيدة تشاريتو على فرشاتها: "الخطوة الأولى هي التأكد من الوضعية الصحيحة للشعيرات". غطست السيدة تشاريتو فرشاتها في برطمان ماء، وصنعت مختلف أنواع الحيل الدقيقة كمرضعة تحاول إطعام رضيع صعب المراس.

فعلنا مثلها بانصياع.

استمرت بإسبانيتها المختلطة التي كنا نفهمها بالكاد: "الخطوة الثانية، وهي الطريقة الصحيحة للإمساك بالأداة". "ليس بهذه الطريقة ولا بهذا الأسلوب..." مضت تشرف على كل مقعدٍ على حدة. سخرت منا جميعًا.

بدا وكأنني مع كل هذه الطقوس لن أصل إلى رسم العالم البراق الثري الذي يفيض بداخلي. حاولت إبقاء تركيزي على التطبيق، ولكن شيئًا ما بدأ ينبض في يدي التي ترسم، طرق باب إرادتي، وكان علي أن أخرجه. تناولت الفرشاة الغارقة في المياه ووضعتها في قرص اللون الذهبي ورسمت قطة على ورقتي بخطٍّ واحد خاطف: الشوارب، الذيل، المواء وكل ذلك!

t.me/qurssan

انتظمت أنفاسي قليلاً بعد أن نلت مساحة بحجم قطة داخل نفسي. كانت السيدة تشاريتو تدير ظهرها لي. كان طائر الطنان على فستان هاواي الذي ترتديه يغرز منقاره الشبيه بالسيف بين ثنايا مؤخرتها. سيكون هناك وقت.

هززت فرشاتي داخل برطمان الماء. تحول السائل إلى لون البول الأصفر. مسحت بالفرشاة على قرص اللون البنفسجي فبزغت قطة بلون الكدمات ثم قطة بنية هيكلية.

كنت منشغلة بذاتي جدًّا حتى إني لم أسمع صرختها المحذرة ولا طرقعة شبشبها على المشمع، بينما انحنت منقضةً عليّ. خمشت ورقتي من مكانها فوق اللوح وكوّرتها وصاحت "أنتِ، أنت تتحدينني"! تحول وجهها للون الأحمر الموحل نفسه في برطمان الماء الخاص بي. رفعتني من ذراعي وأسرعت بي عبر الغرفة نحو باب ومنه إلى الصالة المظلمة ودفعتني على كرسي قاسٍ من الخيزران.

حدقت عيناها الخضراوان في مثل قطة. كانتا مرقطتين بالبني كأن شيئًا ما حيًّا قد علق وتحجر في بؤبؤيهما. "لن تتحركي حتى آذن لكِ. هل هذا مفهوم"؟ أحنيت رأسي في استسلام. من طرف عيني رأيت بنات خالاتي الخائفات يتدربن بطاعة على أولى ضربات الفرشاة. سدت السيدة تشاريتو للحظة فراغ الباب بجسدها الضخم ثم سحبت الباب بقوة كبيرة.

بقيت جالسة كإحدى لوحات الطبيعة الصامتة الخاصة بها المعلقة على الحائط من حولي. شعرت بوجودها حولي في الغرفة المظلمة الساكنة الخالية من الهواء. كانت فرشاتها مثبتة فوق راسي. كانت

t.me/qurssan

نستطيع ان ترسم فوق شعري وتمحو ملامحي، لتجعل وجهي مجرد طبق تفاح او عنب أو برقوق او ليمون. لم أجرؤ على الحركة ولكني سريعا ما بدأت اتململ. كنت أستطيع ان ارى ان دروس الفن تلك لن تكون مسلية، وبدا لي ان كل شيء استمتع به في العالم سيتبين انه خاطئ. كنت قد بدأت مؤخرًا في دروس تحضيرية لطقس التناول. علمتني الراهبات الكاثوليكيات بمدرسة دير سيدة الأحزان ان ارتب العالم مثل الملابس إلى ما هو صواب وما هو الخطأ، ما هي الخطيئة العارضة وما هو الفعل الذي سيرسلني للجحيم مباشرة إذا مت أثناء الاستمتاع به. قبل أن اتعرف على ما أريد أن أفعل في حياتي كان الضمير يرتبها كلها مثل طبيعة صامتة أو لوحة. لكن في هذا الصباح في منزل السيدة تشاريتو لم أكن مستعدة بعد أن أصبح واحدة من الأطفال المثاليين في العالم.

رفعت نفسي من الكرسي غير المريح وقمت بشق طريقي إلى الخارج نحو البهو، حيث اصطفت أحذيتنا في ترتيب منظم كما لو كانت على وشك أن يُطلق عليها النار لأن هناك طينًا على نعالها. فور أن وجدت حذائي سمعت صوت رجل يصرخ ويطلق اللعنات من خلف المنزل. عادة كنت سأركض في الجهة المعاكسة، ولكن اللعنات التي كان يصيح بها كانت تلك التي أُهمهم بها لنفسي ضد السيدة تشاريتو. جذبني الفضول لتحري الأمر.

كان الفناء مقفرًا. بدت السماء قريبة، لوحة غائمة بدوامات من البنفسجي الداكن والرمادي العاصف. عبرت سياجًا عاليًا من زهور الكركديه عبر بوابة غير مغلقة، وصادفت فناءً خلفيًّا طينيًّا بعثرت به أحطاب وبقايا ألواح خشبية بدا أنه فناء نجار. أمامي انتصب كشكًا

t.me/qurssan

خشبيًا غير مدهون بنافذة واحدة عالية وباب مغلق بإحكام بقفل ضخم. كانت صيحات الرجل تأتي من الداخل، ولكن ما يجذبني الآن صوت آخر، دقات مثل تلك التي تصدر منا نحن بنات الخالات عندما نرقص في صحبة. كنت أريد أن أكتشف سرًا ما عن السيدة تشاريتو. في عمري كان هذا هو ما كنت أعرفه عن الانتقام. ما الذي يخفيه شخصٌ ما في درج بجوار سريره؟ ما لون اللباس الداخلي لشخص ما؟ ما يبدو عليه شخص ما وهو يقرفص بشكل غريب فوق قصرية صغيرة؟ ثم عندما ينقض عليّ هذا الشخص بتأنيب عنيف كنت أستطيع أن أُبطل توبيخه بنظرة قوية تقول: أنا أعرفك، أنا أعرفك.

كانت النافذة الوحيدة تعلو رأسي بمقدار رأس آخر. حشرتُ قطعة خشب تحت الزجاج وتسلقت فوقها ونظرت إلى الداخل. في البداية كنت أستطيع أن أرى وجهي فقط منعكسًا على الزجاج، ضممت كفيّ حول عينيّ وشعرت بالزجاج يئز بفعل الطرقات كما لو كان حيًّا.

ببطء ميزت الأشياء داخل الكشك. كانت كائنات عملاقة نصف مكتملة تخرج من حطب مثل ذلك المبعثر خلفي في الفناء. كان لبعض الحطبات حوافر ومخالب وكان لبعضها بدايات وجه أو فم أو عين. كان لبعضها أيادٍ بأظافر. وظهرت فروة خروف مجعدة فوق الظهر العاري المحبب لقطعة خشب باهتة، ولكن المسكين لم يكن يستطيع أن يثغو بلا خطم. وضعت يدي على وجهي كي أتأكد أني سليمة.

في منتصف الأرضية كان هناك مجسم لامرأة مسترخية بين مسندين لنشر الخشب أحدهما عند قدميها، وآخر عند رقبتها مثل جدتي وهي تتدلى من الدعامات عندما كسرت ظهرها. كانت خطوط حادة تبرز من

t.me/qurssan

رأسها، كأشعة الهالة العذراء، مع أنها كان من الممكن أيضًا أن تكون قرون امرأة شيطانية. شعرها ملفوف في تجاعيد معقودة فوق كتفيها مثل أفاع. كان رأسها كامل التكوين، ولكن وجهها لا يزال بلا ملامح.

تك تك تك، سمعت صوت الدق يأتي من تحتها. تسقط برادات ونشارة على الأرض؛ حيث تتكون قدماها. أمام عيني ميزت الجذوع الشقراء نفسها في هيئة كعب وإصبع قدم، ثم تشكل قوس قدمها العالي. كان من الممكن أن تقف على هذين الكعبين وتسير حتى بيت لحم.

عندما ظهرت رأسه السمراء من بين أقدامها اعتقدتُ لأول وهلة أنه أحد إبداعاته هو. كان له اللون الأبنوسي اللامع نفسه لمنحوتاته نصف المكتملة. كان هناك طوق يحيط بعنقه مشبوك في سلسلة متصلة بحلقة حديدية عند الباب. وكان ذلك كل ما يرتديه! كان رجلاً ضئيلاً، أطول قليلاً مني، نسبه متناسقة، عدا شيء واحد. كنت قد رأيت مناظر الثيران في مزرعة جدي وما يفعلونه مع الأبقار في موسم التزاوج. وفي إحدى المرات قالت لي مربية لعوب إن أمي فعلت نفس الشيء تحت اللاءات المطرزة والأضواء المطفأة، وبينما مروحة السقف تدور كي تنجبني. انتصب قضيب الرجل مثل تلك الثيران في المزرعة بينما يعمل عند قدمي العذراء. عندما انتهى من هذا الطرف تسلق فوقها واعتلاها بينما خشخشت سلسلته من ورائه مثل ذيل كبير. لمس فراغ الوجه بشكل يبدو حانيًا، ثم غرس إزميله عند جبينها وكان على وشك الانقضاض عليها. صرخت لأحذر المرأة القابعة تحته.

t.me/qurssan

ولكن وجهه الشبيه بالجن في القصص الخيالية هو ما انتفض إلى الأعلى. نظر إلى أرجاء الغرفة وصوب نظره على وجهي عبر النافذة ثم اندفع في اتجاهي. امتدت سلسلته عن آخرها، لكن قبل أن يصل إلى النافذة ويفتحها ويجذبني إلى الداخل قفزت وهبطت بقوة على الأرض. طغى خوفي على قدرتي على الشعور بالألم، لكنني سمعت صوت العظمة الصغيرة في ذراعي تنكسر عندما لمست الأرض.

ظهر وجهه عند النافذة. تفحصني وارتسمت على شفتيه ابتسامة سخيفة كبقعة لطخت وجهه. طرقت يده على الزجاج كما لو كان يحتفظ بانتباهي كي يتفحصني لمدة أطول. لم يكن هناك احتياج لذلك. كان نظري مثبتًا على وجهه وفمي مفتوحًا في صرخة بلا صوت. أخيرًا عاد الصوت إلى فزعي فصرختُ وصرختُ حتى بعد أن اختفى وجهه من النافذة.

وسريعًا ما أتى فصل الرسم بكامله راكضًا من المنزل تقوده السيدة تشاريتو، ثم بنات الخالات بالجوارب فقط في أقدامهن وتعقبهن السيدة العجوز، واتجهن جميعًا نحو الكومة الموحلة في الفناء. لم أكن أتصور أن يأتي يوم أسرُّ فيه لرؤيتها.

"ما الذي جرى"؟ صاحت و صوتها يسفر عن قلق حقيقي. "لَم لم تضعي عينك عليها"؟ سألت الخادمة العجوز باتهام، ثم التفتت نحوي. "ما الذي فعلتِ بنفسك"؟ أطلقت نظرة قلقة نحو نهاية الحديقة. وتردد صوت الدقات من داخل الكشك.

رفعت يدي النابضة بالألم وكأني أقدم لها عطية من العظام.. رأت وجهي ملطخًا بالدموع وجسدي ملوثًا بالطين وسمعت التأوهات

t.me/qurssan

ممتزجة بالدموع تصدر من فمي كحيوان. قلتُ منتحبةً: "لقد كسرتها"، ولكني كنت أدرك أنه من الأفضل الا أعترف بما رأيته داخل كشك الحديقة.

لا يمكن القول إن وجهها لانَ، فاللين ليس من ذخيرة تعابيرها. ركعت بجواري ومدت يدها إلى ذراعي. ولكن حتى أقل لمسة كانت تجعلني أجفل من الألم. "إنها مكسورررة"؟ حدقت نحوي. رأيت أن البقع في عينيها شظايا عظام، قطع من أشياء كسرتها عبر السنين.

وفي هذه الأثناء، وإذ غفلت عنهن الأعين، بدأت بنات خالاتي في التقافز على جذوع الأشجار المكسورة، وتشكيل كعكات من الطين وتلطيخ جواربهن البيضاء. سارت اثنتان من بنات خالاتي كالمستكشفات بعصي في أيديهن نحو الكشك. نهضت السيدة تشاريتو وأطلقت تحذيرًا. "انتبهن! عدن إلى الاستوديو في هذه اللحظة، جميعًا"! أسرعن عائدات. بدأ المطر يسقط، قطرات كبيرة موحلة كما لو كان شخصًا ينفض فرشاة رسم.

رفعتني في ذراعيها. تشبثت بها كما لو كنت طفلتها. وضعت رأسي فوق الموضع الذي يفترض أن قلبها به وظننت أني أستطيع أن أسمع - كما من داخل قوقعة- بحر الظلمات، وأمواج المحيط المتلاطمة بفعل الرياح، السهول الشاسعة في وسط أوروبا. كانت تعرف أن العالم مكان وحشي. كانت تحمل فرشاة ضخمة. كانت تصنع طواحين هواء من النجوم الدوارة التي أصابت أكثر من رجل بالجنون. كانت تستطيع أن تنقذني من الرجل المجنون داخل الكشك. تشبثت بها. وتلك كانت آخر مرة أرى فيها السيدة تشاريتو. جاءت السيارات محدثة ضجيجًا في

t.me/qurssan

الممر، هرعت امي إلى داخل المنزل. بدأت أبكي كي أقنعها بخطورة حالتي. وبينما زالت الصدمة، شعرت بألم ثاقب في ذراعي كما لو كان شخص يغرز إزميلاً في العظمة. في المستشفى تم تأكيد شكوك الجميع: ذراعي مكسورة في ثلاثة مواضع.

ارتديت جبيرة الجبس لشهور، وعندما تم نشرها عني أخيرًا ظهر أن الذراع قد التأم بشكل معوج. لم يكن هناك بد من كسر العظم مرة أخرى وإعادة تجبيره. تلك كانت تعتبر عملية كبيرة بما يكفي لأن تأتيني هدايا وحقيبة بها مستلزمات البنات في المستشفى لها قفل أرقامه السرية تتكون من شهر ويوم وسنة ميلادي. أقيم قدّاس في الكاتدرائية لأجل سرعة شفائي، وتم السماح لي بأطباق من الآيس كريم بين الوجبات كي تجعلني شجاعة ـوهكذا فسروا لأولاد خالاتي الغيورينـ و"لتمنحها المزيد من الكالسيوم". كنت متأكدةً أني على وشك أن أموت، ولهذا السبب فالجميع طيبون معي.

لم أمت.. وشفيت العظمة أخيرًا، بشكل كامل تقريبًا. ولكن لمدة عام وبشكل متقطع كنت أحمل ذراعي في مسند. وقّعَ على الجبيرة عدة عشرات من أبناء الأخوال والأعمام والخالات والعمات فبدوت كأني مخلوق مركّب من عائلة دي لا تور. جيزيل دي لا تور، موندين دي لا تور، كارمنسيتا دي لا تور، لوسيندا ماريا دي لا تور. كان هناك أشعار وتذكارات. بعض الرسائل كانت ملحوظات متحذلقة وجماجم وعظامًا من بنات الخالات اللاتي كرهنني لأنني معفاة من دروس الفنّ التي يعانين منها بسببي. فمع أن مستقبلي الفني كان قد توقف متحطمًا إلا أنه كان على الأخريات أن يقضين نهارات الأحد يرسمن دوائر ثم أشكالاً بيضوية قبل أن يسمح لتلك الأشكال البيضوية أخيرًا أن تنضج

t.me/qurssan

إلى تفاح. بعد شهور تم ترقيتهن إلى رسم الأشياء: ابريق، سلة، سكين. وكان المشروع النهائي عبارة عن طبيعة صامتة بها كل تلك الأدوات، بالإضافة إلى قطعة صغيرة من اللحم البلاستيكي. كن يشتكين بمرارة انهن يكرهن الفن، لم يكن يرغبن في خوض الدروس. ولكن تم إبلاغهن ان الدولارات الأمريكية لا تنمو على شجر الجزيرة. دروس الفن مستمرة حتى العام القادم.

بحلول عيد الميلاد كانت الدروس قد انتهت. أُزيلت جبيرتي ولكني اصبحت طفلة مختلفة. جعلتني شهور من التدليل وسخرية أطفال العائلة أميل للانطواء على ذاتي، ولكن الآن عندما ملأني العالم لم أعد قادرة على إخراجه بالرسم. كنت متجهمة ومعتمدة على الاهتمام الحصري من أمي، كنت رقيقة القلب ومتذمرة... إنه المزاج الكلاسيكي للفنان لكن بدون أي فن يبرر تلك الطباع السيئة. فقدت يدي فنها.

مررت بلحظة انتصار واحدة خلال تلك السنة من دروس الرسم. في ليلة عيد الميلاد أُخذت إلى الكاتدرائية الوطنية مع بقية أبناء دي لا تور لنرى استعراض الكشف عن مغارة الميلاد. سرنا عبر الممر في اتجاه المذبح المزدان بنبات بنت القنصل والشموع والمحاط بالستائر الحمراء والخضراء.

عندما دقت الساعة معلنة منتصف الليل بدأت الأجراس تقرع. انفتحت أبواب الكاتدرائية وخرج منها موكب من القساوسة والراهبات والشماسين يطوحون مباخرهم ويرسلون عطور المر والبخور التي أتى بها الملوك الثلاثة من الشرق. قام صبيّان من مساعدي القسس بفتح الستائر.

t.me/qurssan

رأيت أمامي الأشكال العملاقة التي شاهدتها في ورشة السيد خوزيه! ولكن كانت هذه أشكالاً مقدسة ترتدي عباءات من المخمل الأحمر الوثير وأثواب لامعة. كانت أثواب الرعاة مطرزة بشكل جميل كي تبدو رثة وبها رقع صنعتها الراهبات الكرمليين. كان هناك ملوك وخراف وخيول تصهل بينما اجتمع الخادمات والمتسولون الصغار معًا في ذلك الليل البارد المتخيل. كانت الريح عاصفة. تصبّ المطر على سقف الكاتدرائية. ونبح كلب على البعد.

عندما فُتحت أبواب المذبح اندفع الحاضرون إلى الأمام كي يلمسوا يسوع الرضيع بحثًا عن الحظ السعيد في السنة القادمة. لكن عينيَّ انجذبتا لوجه العذراء بجواره. وضعت يدي على وجهي لأتأكد. كان لخدودي استدارة خدودها، حاجباي مقوسان كحاجبيها وعيناي متسعتان كعينيها المحدِّقتين نحو الرجل الصغير، بينما يطرق نافذة الكوخ. مددت يدي المعوجة ولمست طرف ثوبها ذي اللون الأزرق الداكن ونعلها القماشي ذا اللون نفسه. ثم اندمجت مع موجات السرور والفرح بالعالم التي غمرت جموع المؤمنين من حولي.

t.me/qurssan

مفاجأة أمريكية

كارلا

انتظرنا أنا وأخواتي طوال النهار حول المنزل كي نركض نحو والدنا عندما يدخل من الباب أخيرًا ونحن نصيح "پاپي! پاپي"! رفعت مامي إصبعها إلى فمها لتنبهنا: "ستوقظن الرضيعة"! ولكن پاپي نسي نفسه ورفع كلا منا عاليًا بصيحة ودار بنا. "في غرفة المكتب يا ماريو"، أمر أبي الخادم ثم مسح يديه في بعضهما البعض، وقال: "لدي مفاجأة رائعة لكن يا بنات"!

"ما هي"؟ صحنا جميعًا، وخمّنت أنا، ففي الليلة الماضية وقت الصلاة وعدتني مامي بأني سأرى مثل هذا الشيء في يوم ما. "ثلج"؟

قالت مامي: "يا بنات، يا بنات انتبهن". ظننت أنّها تعني فيفي الرضيعة ثانيةً إلا أنها أضافت: "دعن پاپي يرتاح أولاً"! ثم همست مامي شيئًا ما إلى پاپي بالإنجليزية فهز رأسه. قال: "بعد العشاء إذًا. سنرى من تترك صحنها نظيفًا"، ولكن عندما تجهمت وجوهنا استحثنا "هيا... هيا، ستكون مفاجأة رائعة".

تبادلت ساندي ويويو نظرات انتصار وحجلتا يدًا بيد بعيدًا كي تبلغا أبناء خالتنا في المنزل المجاور أن پاپي قد عاد بمفاجأة رائعة من مدينة

t.me/qurssan

نيويورك؛ حيث كان الوقت شتاء والثلج يهبط من السماء للأرض مثل ندف المن المذكورة في الكتاب المقدس.

ولكني لم أكن راغبةً في اللّعب بعيدًا، فلربما، ربما، ينتهي پاپي من شرابه ويقرر أن يفتح حقائبه فورًا. وباعتباري الوحيدة المتواجدة فسيكون لي الاختيار الأول في المفاجأة أيًّا كانت. لو انه يمنحني فقط مفتاحًا صغيرًا لحل اللغز!

ولكن أبي لم يكن صالحًا لإعطاء أية مفاتيح. كان منبطحًا بجوار أمي، ذراعاه مفرودتان بطول ظَهر الأريكة كما لو كان على وشك احتضان شيء يخصه. يتحدثان بتلك النبرات المنشغلة التي يستخدمها الكبار عندما يكون قد وقع خطأ ما.

قال: "الأسعار ارتفعت بجنون"! مررت أمي يدها في شعره وقالت: "عزيزي المسكين"، ثم ذهبا إلى غرفتهما للقيلولة قبل العشاء.

أصبح المنزل خاويًا وساكنًا. تلكأت بجوار طاولة الصالون أحتسي رشفات مما بقي في كؤوسهم، حتى تدحرجت مكعبات الثلج نحو فمي كاشفة للسر، فأغمضت عيني من لذوعة الويسكي والصودا الخاص بپاپي. أتى من البهو صوت رنين أدوات الطعام الفضية وصرير كرسي يستقر في مكانه. ثم بدأت جلاديس خادمة المطبخ الجديدة تغني:

"أرمي الملعقة
وأرمي الشوكة
وأرمي الصحون
أنا ذاهبة إلى نيويورك".

t.me/qurssan

كنت أحب أن أسمع صوت جلاديس اللطيف الحاد وهو يقلد مغنيها المفضلين في الراديو. قالت جلاديس إنها ستصبح ممثلة مشهورة في يوم ما. ولكن أمي قالت إن جلاديس مجرد فتاة ريفية لا تعرف سوى أن تغني ألحانًا شعبية في المنزل، وتلف شعرها الخشن في البكرات طوال الأسبوع لتصففه من أجل قداس يوم الأحد في تسريحات مستوحاة من المجلات الأمريكية القديمة التي تخلّصت منها أمي.

توقّف غناء جلاديس فجأة عندما دخلتُ إلى غرفة الطعام. "أوه يا كارلا لقد أفزعتِني يا فتاة"! وضحكتْ. كانت تعدّ المائدة من أجل العشاء، تتناول المعالق من كومة الأدوات الفضية في يدها اليسرى، وهي تتمايل بحركات راقصة معقدة، ثم تتوقف عند كل موضع وتذكّر نفسها "الملعقة على اليمين، بجوار السكين". في غياب الأخوات والأصدقاء الحميمين من أبناء الخالات كان التواجد حول جلاديس ممتعًا.

وقفتْ بعيدًا عن الطاولة وأحنت رأسها في نظرة متفحّصة، ثم أصلحت وضع أحد الكراسي وزحزحت سكينًا، مثل شخص يحاول إصلاح وضع لوحة على الحائط. أومأت برأسها نحو مؤخرة المنزل فتبعتها عبر غرفة المؤن؛ حيث كان كل شيء معدًّا للعشاء: أخرجت الأطباق استعدادًا لملئها، ورصَّت ملاعق التقديم في ترتيب، الأطول ثم الأقصر فالأكثر قصرًا.

في الممر الذي يربط غرفة الخادمات ببقية المنزل، توقفت جلاديس وأبقت لي الباب مفتوحًا: "إذًا! عاد والدك من نيويورك"! أحنيت رأسي في استمتاع ودخلت متجاوزة جلاديس. كانت غرفة الخادمات مظلمة وحارّة. أُغلقت نوافذها في وجه شمس الكاريبي الشرسة في منتصف

t.me/qurssan

اليوم. ثمة ضوء ضعيف متراقص يسقط من طاقة صغيرة نصف مفتوحة في الأعلى. على مقعد من الجريد كانت المروحة تطن مستديرة من اتجاه إلى الآخر.

ببطء بينما تعتاد عيناي على ضوء الغرفة الشحيح، إذ ميزت تماثيل بلاستيكية صغيرة وأيقونات لقديسين مصطفةً على سطح المكتب. ولمعت بضعة بنسات ببريق النحاس داخل برطمان مايونيز قديم بشقٍّ في غطائه. وكانت شعلة شمعة النذر تميل كلما توجهت المروحة بالهواء نحوها. اثنان من الأسرَّة الثلاثة مشغولان: على أحدهما استلقت الطاهية العجوز تشوتشا نائمةً، ويبدو وجهها الأسود السمين سعيدًا بالنسمة الباردة المتقطعة. على سرير آخر جلست نيڤيا في لباسها الداخلي ورأسها محنيّ تمتم بأصوات منخفضة، بينما تمسك بمسبحة وتبدو كما لو كانت تحاول أن تجد خللاً في الخرز الذي يتدلى بين ركبتيها.

عندما انغلق الباب محدثًا صوتًا فتحت تشوتشا عينًا واحدة ثم أغلقتها. كنت أتمنى أن تكون قد عادت إلى النوم؛ حيث إن الطاهية العجوز كانت تحب التوبيخ. بل أصبحت صعبة الطباع، حتى إن مامي قررت أن تبني لها غرفة وحدها. قالت تشوتشا: "أنت تعرفين أن أمك لا تحب وجودك هنا". نظرتُ إلى جلاديس كي تدافع عني.

"لا، لا ضرر من وجودها يا شيف"، قالت جلاديس بمرح. قادتني إلى سريرها وسوَّت لي بيدها موضعًا بجوارها. "السيدة لاورا لن تمانع اليوم إذ عاد السيد كارلوس للتوِّ من السفر".

"وكأن الدجاجة لا تنقر في حضور الديك"، قالت تشوتشا بسخرية ثقيلة. أطلقت زفرة ممتعضة وأدارت نفسها لتواجه الحائط.

t.me/qurssan

داعبت المروحة باطن قدمها الزهري برقة. جادلت: "كنت أغيّر حفاضات السيدة لاورا قبل أن تولدي. أنا أقدر على معرفة كيف يعض الكلب وكيف تقرص النحلة"!

أدارت جلاديس عيونها نحوي كما لو كانت تقول: "لا تهتمي بالطاهية"، ثم قالت بصوت ملطف: "لقد قضيتِ هنا وقتًا طويلاً بالفعل".

أطلقت تشوتشا ضحكة جافة: "اثنين وثلاثين عامًا".

تساءلت جلاديس: "تُرى أين سأكون بعد اثنين وثلاثين عامًا"؟ عبرت على وجهها نظرة زجاجية وابتسمت وقالت حالمة: "نيويورك"، وبدأت تغني لحنًا من ألحان الميرينجي النيويوركية التي تذاع على الراديو ليل نهار.

"استمري في الحلم"، قالت تشوتشا وجسدها السمين يترجرج من الضحك تحت ثيابها جيئة وذهابًا. "رأسك بين الغيوم يا فتاة. احذري من صاعقة الرعد"!

"أوه يا شيف"! مدت جلاديس يدها وربتت برقة على قدمي السيدة العجوز. بدت غير منزعجة من مرح تشوتشا كما من مزاجها السيئ. "أصلي في كل ليلة"، أومأت برأسها نحو المصلى المنزلي. كانت جلاديس قد شرحت لي في إحدى المرات كيف أن لكلّ قديس على مكتبها تخصصًا: القديسة كلارا من أجل سلامة النظر، القديس مارتين صالح من أجل المال، أما أمنا المباركة فصالحة لكل شيء. التقطتْ بطاقة بريدية كانت أمي قد تخلّصت منها منذ بضعة أيام، عليها صورة امرأة

t.me/qurssan

في رداء وبنجمة مدببة بدلاً من الهالة وفي يدها شُعلة مرفوعة. خلفها كانت هناك مدينة من مدن الأحلام تتألق بأضواء أعياد الميلاد. "هذه عذراء أمريكا القوية"، وناولتني جلاديس البطاقة، "ستقودني الى نيويورك كما تعلمين".

"بمناسبة الحديث عن نيويورك..."، قالت نيڤيا ثم أسرعت برسم إشارة الصليب وقبلته على مسبحتها. نيڤيا هي أحدث الخادمات، وهي تتولى غسل الملابس. كانت "سوداء سوداء" كما تقول أمي دائمًا كي تزيد اللون قتامة لتعبّر عن شدة سوادها. وقد اكتسبت اسم التدليل نيڤيا على اسم كريم الوجه الأمريكي الشهير، والذي كانت أمها تدعكها به على أمل أن يقوم الدهان الأبيض الحليبي بتفتيح بشرة رضيعتها السوداء. كان بياض عينيها اللتين ثبتتهما عليّ لحظتها هو الموضع الوحيد الذي يبدو أن الكريم السحري قد نفع معه. "أرينا ما أتى به لك أبوك من هناك".

"يا لك من محظوظة! محظوظة"، استرسلت نيڤيا قبل أن أستطيع أن أشرح. "تلك البنات محظوظات جدًا. يا له من أب! إنه لا يذهب في رحلة دون أن يعود بكنوز لهن". أحصت من أجل جلاديس ـالتي كانت تعمل عندنا منذ شهر فقطـ جميع الكنوز التي أتى بها الدكتور لبناته. "هل رأيتِ تلك الدمى الراقصة التي جاء بها المرة الماضية"؟

أومأت. شيء واحد لا يمكن أن أفعله مع نيڤيا وهو أن أصحح لها أية معلومة، فأجازف بأن يتم اتهامي بادعاء المعرفة المطلقة. كانت الدمى الراقصة من الرحلة قبل الأخيرة، بينما كانت هدية الرحلة الأخيرة أحذية صحيّة لأقدامنا. اختيار سيئ جدًا، ولكن هذا ما يحدث

t.me/qurssan

حين تكون أمي هي المسؤولة عن تحديد المفاجأة. فقبل مغادرته في كل رحلة كان أبي يسأل دائمًا: "ما الذي تحتاجه البنات يا مامي"؟ أحيانًا كما في هذه الرحلة ترد مامي: "لا شيء مطلقًا. إنهن مستعدات تمامًا للدراسة". عندها، كانت المفاجآت تأتي رائعة بالضرورة؛ لأنه كما شرح پاپي لمامي: "لم يكن لدي أدنى فكرة عما آتي لهن به، فذهبت إلى متجر شوارتز واقترحت فتاة المبيعات..." ثم تُنزع أوراق التغليف عن ثلاث دمى راقصة أو ثلاثة أزواج من أحذية التزلج أو كما في تلك الليلة نفسها، ثلاث مفاجآت رائعة!

استعادت جلاديس بطاقة نيويورك وسألت مبتسمةً: "ما الذي جلبه لك والدك"؟

"ليس بعد"! وأطلقتُ زفرة، محبطة لأني لم أستطع أن أشفي فضولهن، فحتى تشوتشا كانت قد استدارت نصف استدارة لتسمع ما هي المفاجأة، "سنعرف بعد تناول العشاء"!

"على سيرة العشاء"، قالت نيڤيا مذكرة الاثنتين الأخرتين، "إن عملنا لا ينتهي أبدًا"، ثم أضافت "ليلاً ونهارًا، وما هي المفاجأة التي نحصل عليها"؟! تذمرت، بينما تجدل شعرها الأسود الخشن في عشرات الضفائر الصغيرة. كانت بخلاف تشوتشا، شكواها دائمًا مريرة وتباغتك حتى في وسط أحلى الحوارات. شكوى تشوتشا كانت ابتهالات يومية تصيح بها أحيانًا في وجه الكلب، وأحيانًا توبخ بها وعاء طهو الأرز التي كان عليها أن تنظفه، وأحيانًا تهمهم بها بصوت خفيض إلى السيدة لاورا التي كانت قد غيرت لها الحفاضات وهي رضيعة، وبالتالي كان لديها الحق في انتقاد تصرفاتها.

t.me/qurssan

ولحسن الحظ، كان العشاء ليلتها إسباجيتي مع كرات اللحم، فلم يكن من الصعب على المرء التهام طبقه بكامله. لففت شرائط الإسباجيتي على شوكتي ودحرجت كرات اللحم حول الصحن حتى مللت من ذلك فالتهمتها. مامي كانت في مزاج جيد لأنها تركت الرضيعة مع المربية ميلاجروس. عادة تصمم مامي أن تبقى الرضيعة باكيةً في مقعدها العالي كي تتناول الأسرة بأكملها وجبة واحدة رسمية معا مثل "الأشخاص المتحضرين". أعفيت الأسرة في هذه الليلة من عذاب التحضر ومن الخضراوات، لأن مامي سمحت لنا أن نسكب منها لأنفسنا، فأخذت كميةً من البازلاء تكفي بالضبط لتلتف كعقد حول عنقي لو لُضمت في خيط. أكلنا أنا وأخواتي في هدوء.ونحن نستمع بدهشة لحكايات أبينا عن سيارات التاكسي والعواصف الثلجية السيئة (كيف يمكن للعواصف الثلجية أن تكون سيئة؟!) وزينة عيد الميلاد في الشوارع... في تلك الليلة ستكون هناك مفاجأة رائعة وخلال أقل من عشرين يومًا وفقًا لدفتر التقويم الصغير الذي نفتحه مع مامي كل ليلة عند الصلاة يأتي الكريسماس، والمزيد من المفاجآت إذًا! كنا فتيات محظوظات. نيڤيا محقة. كم نحن محظوظات!

أخيرًا التفت پاپي إلى جلاديس التي كانت تدفع عربة حول الطاولة لتزيل الأطباق. "يا...".

"جلاديس"، ذكرته مامي، فهي في النهاية الفتاة الجديدة وپاپي لم يكن لديه الكثير من الفرص لمعرفة اسمها.

"جلاديس"، قال پاپي، "هل تأتين لي بحقيبتي"؟

"في غرفة المكتب"، دلّتها مامي، "على المكتب بجوار طاولة التدخين".

t.me/qurssan

اسرعت جلاديس مبتعدة تطقطق بشبشبها بسرعة جذلة لإرسالها في مثل هذا الغرض المهم، ثم عادت بحقيبته الجلدية مهدهدة مثل رضيع في ذراعيها.

"فتاة طيبة"! قال پاپي مانحًا جلاديس نظرة استحسان، وفتح أقفال الحقيبة. طار الغطاء للأعلى مثل عفريت العلبة. بالداخل كان هناك ثلاث علب ملفوفةً بورق الهدايا الأبيض ومضمومة إلى بعضها بحميمية كما لو كانت بيضات في عش. ناول پاپي واحدة لكلٍّ منا ثم رفع علبة صغيرة من الجيب الجانبي للحقيبة وابتسم لأمي: "أنت يا عزيزتي". ربتت مامي على يده وفتحت العلبة مخرجةً منها زجاجة عطر بحجم دمية وفتحت الغطاء وشمتها. "تلك هي بالفعل! أتعرف أني لم أعثر على الزجاجة القديمة قط. ولكنك تذكرت بدون حتى الاسم"! مالت نحو پاپي ومنحته قبلة على خده.

بدأنا في نزع الأغلفة عن العلب وپاپي يشجعنا "هيا! هيا! هيا"! تلكأت جلاديس بعربتها تنظم الصحون المتسخة عليها، ببطء، في رصّات قبل أن تدفعها بعيدا نحو المطبخ؛ حيث ستغسلها نيڤيا وتشوتشا. ولكن فور أن فتحنا العلب تبادلنا أنا وأخواتي نظرات حائرة. مالت مامي، ورفعت تمثالاً معدنيًا صغيرًا من علبة يويو: رجل مسنّ يجلس في مركب ينظر نحو حوت مخيف فاغر الفم. وضعت ساندي تمثالها على الطاولة وحاولت أن تبدو مسرورة: كان تمثالاً من المعدن أيضًا لفتاة صغيرة ثبتت قفزتها في الهواء. لم أحاول حتى أن أرفع هديتي من علبتها. حدقت فيها، كانت فتاة تلبس قميص نوم أبيض وأزرق تنظر إلى الأعلى في خيمة من الغيوم. ما هذا الذي اقترحته فتاة المبيعات في شوارتز هذه المرة؟

t.me/qurssan

"ما هذا بحق السماء يا پاپي"؟ سألت مامي وهي تمسك تمثال قافزة الحبل الخاص بساندي وتنظر إلى عيني الفتاة المحفورة في وجهها. "خمني، خمني"، ابتسم پاپي بخجل. ثم اضاف، "إنها أحدث صيحة الآن. قالت الفتاة في شوارتز إنها باعت نصف دستة بالفعل في ذلك اليوم".

أدارت مامي التمثال وقرأت بصوت عالٍ من أسفله: "صُنعَ في الولايات المتحدة"، ثم لاحظت فتحة مفتاح مخصصة لمفتاح صغير جدًّا "إنها" -نظرت إلى پاپي- "إنها حصالة اليس كذلك"؟

أشرق وجه أبي. أخذ الفتاة التي تنط الحبل ووضعها أمامه على الطاولة. توازنت على قاعدتها، قوس من الأسلاك يرتفع فوق رأسها ويمر عبر فتحات ضيقة في قبضتها. كان التمثال المعدني ملونًا فثوب الفتاة مرقطًا وكان شعرها أشقر. "انظرن"، قال پاپي وهو يلتقط بنسًا من كومة عملات كان قد ألقاها على الطاولة. دخلت العملة في شق في أحد أعمدة السور بجوار الفتاة. جذب پاپي رافعة أسفل القاعدة. قفزت الرافعة عائدة إلى مكانها وهبطت العملة محدثة صوتًا رنانًا وجفلنا جميعًا -أختيّ ومامي وجلاديس وأنا- فقد قفزت الفتاة قفزة واستدار الحبل مرة.

أطلقنا جميعًا صيحة دهشة حول الغرفة.

"إنها حصالة ميكانيكية"، ابتسم پاپي ابتسامة عريضة والتقط بنسًا آخر من الكومة. "كي تبدأ بناتي في ادخار أموالهن كي يقمن برعايتنا أنا ومامي" -غمز لها- "عندما نشيخ ونشيب".

"أدر حصالتي" توسلت إليه يويو فوضع پاپي عملة أخرى في يدي الرجل المسن المشقوقتين كي تبدو العملة شبيهة بعجلة القيادة في قارب. عندما سحب الرافعة استدار البحار وتدحرجت العملة داخل فم الحوت.

t.me/qurssan

انفجرنا أنا وأخواتي في الضحك، "حصّالة يونس"، قالت مامي وهي تقرأ الاسم على جانب القارب، ثم تساءلت بنظرة شيطنة "نعم يا لولو، ترى ماذا سيكون رأي الراهبات في ذلك"؟

ارتفع حاجبا بابي. "انتظرن حتى ترين هذه"، ضحك وأخرج حصالتي من علبتها. "في الحقيقة إن الغرض من حصالات يونس وماري تلك أن تشجع الأطفال على التوفير لتقديم العطايا للكنيسة. بالتأكيد لا يمكن أن تعترض الراهبات على ذلك". أوقف عملة في فتحة على السحب التي تنظر إليها الفتاة في تمثالي وسحب الرافعة الموجودة عند القاعدة. اختفت العملة فارتفعت الفتاة ذات الهالة الملونة على شعرها في اتجاه السحب وارتفعت ذراعاها من مفصل الكتف. وبينما تعود الرافعة إلى مكانها بصوت طرقعة تعود الفتاة إلى الأرض.

"الأم المباركة"! همست جلاديس. ثم ضحك الجميع بما في ذلك أمي لأننا كنا قد نسينا أن جلاديس لا تزال في الغرفة، وكانت واقفة تمد عنقها إلى الأمام وعيناها مفتوحتان على اتساعهما مدورة ونحاسية مثل تلك العملات نفسها التي قامت بتلك المعجزات.

مد بابي يده إليها بعملة: "هاك يا جلاديس، جرّبي أن تشغليها"، ولكن جلاديس تراجعت ونظرت بخجل نحو خفيها، "هيا"، قالت أمي مشجعة إيّاها، فتقدمت ماسحةً يديها في مريولها وأخذت العملة من أبي الذي أشار لها أن تضعها فوق الغيمة. سقطت العملة مرةً أخرى، وارتفعت مريم العذراء للحظة، ثم نزلت على الأرض في انتظار العملة التالية. تهلل وجه جلاديس، ورسمت علامة الصليب ببطء وتردد.

t.me/qurssan

"إنهن كالأطفال"، قال أبي بحنو بينما تغادر جلاديس الغرفة. "هل رأيتِ وجهها؟ كما لو أنها رأت معجزةً حقيقية للعذراء".

بعد العشاء جلس والداي يثرثران مع الإسبرسو والسجائر، وتبادلنا نحن الفتيات نظرات الإحباط. حاولت أن أهز قديستي الخاصة لإخراج البنسات فأشتري لنفسي علبة من علكة تشيكليتس.

"لا لا لا يا كارليتا! إنها تظل مدخرة داخلها"، ربت أبي على جيبه وأكمل: "بابي يحتفظ بمفاتيح الحصّالات"!

واتضح أن الحصالات لم تكن محبطة في النهاية. كانت أفضل بكثير من الأحذية الطبية. أثارت ضجة بين الأطفال الآخرين في المدرسة. وفي الطابور، تزاحمت البنات الأكثر شعبية في فصلي كي يقفن بجواري. تركوا لي قطعة الحلوى الحمراء المفضلة عندي عن طيب خاطر. وقرأت الراهبة مذكرة السيدة لاورا التي شرحت أن تلك كانت حصالة للهبات الكنسية، فقام الجميع بإدخال عملة في الحصالة ومشاهدة مجسم العذراء الصغير وهو يرتفع. فقالت الراهبة التي كان من مهامها أن تصنع من كل شيء مسلٍ عظةً، إن العذراء المباركة لم تمت؛ بل رُفع جسدها إلى السماء لأنها كانت صالحة جدًّا. حدق الفصل حَالِمًا نحو الحصالة وهم يكادون يتوقعون أن تنطلق العذراء نحو السقف في دفقة من الدخان.

عدت بحصالتي إلى المنزل مثقلة بالعملات. فتح أبي قاعدتها فخرج منها ما يكاد يبلغ مئة بنس، وتعطف علي بإكمال المبلغ وإعطائي دولارًا فضيًّا كبيرًا بدا وكأنّه قطعة مجوهرات أكثر من عملة.

t.me/qurssan

ولكن لم يمض الحال دائما هكذا. وإن كانت زميلات أمي في لعب الورق أعلنَّ أنهن يكرهن وجود العملات في محافظهن، فكن يتخلصن منها بكل سرور في حصالة الحوت أو العذراء. وبالطبع كانت فتاة نط الحبل هي المفضلة. ويا لساندي من محظوطة. ولكن جلاديس اعترضت قائلةً إن أفضل واحدة هي حصالة العذراء، واستخدمت كلّ البنسات التي لديها في برطمان المايونيز كي تكرر المعجزة. من المؤسف أن الحصالة لم تكن تقبل عملات من فئة الربع.

في النهاية وجدت الحصالات طريقها إلى رفّ اللعب مع كل الألعاب المهملة الأخرى. كان عيد الميلاد على الأبواب! تتشكّى أمي من أنها ستموت من الإرهاق، كان هناك الكثير الذي يجب فعله. كان يجب تفصيل أزيائنا الخاصة بالموكب الاحتفالي. في المنزل المجاور كانت الخالة إيسا تحتاج مساعدة في إعداد الحديقة والمنزل لحفلة ليلة عيد الميلاد الكبيرة التي ستقام هناك تلك السنة، باعتباره أول كريسماس لها كمطلقة ويجب أن تبقى منشغلة. ثم يجب أن تقص أشجار الكروم عند شاطئ البحر وتُدهن باللون الأبيض، وتعلق مع كرات فضية وذهبية وترش بالزينة اللامعة. كان مشهدًا رائعًا! خاصة في الليل عندما أطفأت مامي المصابيح كلّها، وبدأت المصابيح تضاء وتنطفئ، بينما كانت قوارير صغيرة مثل التي تستخدم في قطرات الأنف تمتلئ بالماء الملون ثم تُفرغ. مع اقتراب اليوم، ومع تناقص الأيام المتبقية من صيام عيد الميلاد، كنا أنا وأخواتي في حالة جموح من فرط الإثارة، والكبار منشغلون في تجهيزاتهم عنّا. صار المنزل معدًّا للاحتفال. بدت نباتات بنت القنصل الحمراء العملاقة في الساحة مثل مشاعل ملتهبة. ملأت المكسرات والفاكهة الأطباق الفضية في منتصف كل طاولة وعلى الأرفف الجانبية.

t.me/qurssan

يأخذ جندي أنيق لوزة في فمه ويفتحها لك، وكل مرة كان يفعل ذلك تتنهد أمي وتقول "من المؤسف أنه لا يوجد هنا باليه وطني للفتيات". كانت جلاديس منشغلة أكثر من أي وقت مضى في تلميع الفضيات وتحضير المقبلات، وملاحقة سيدتها عبر البيت بمزهرية من الزنابق وزهور الجهنمية، وبدلاً من أغاني الميرينجي المذاعة في الراديو، كانت جلاديس الآن تشدو بحصيلتها من ترانيم الميلاد:

"المجججججججججد لك"!

وأفضل ما في الأمر أن مامي لم تعد تمانع في الغناء فيما بدا، واندمجت بنفسها في الغناء مرة أو مرتين بصوت سوبرانو رقيق ومرتعش:

"سانتا كلوز يحب النبيذ
سانتا كلوز يحب الكروم"
وبالطبع في موكب الكريسماس غنى جميع الأطفال:
"قلب واحد
يفرح"

كنت أنا في زيي المكون من قميص نوم وإكليل من الزينة اللامعة أعلن للرعاة الفقراء الذين يرعون قطعانهم ليلاً:

"لا تخافوا
فها أنا أبشركم بفرح عظيم
ولد لكم اليوم
مخلّص هو المسيح...

t.me/qurssan

ولكنني ارتبكت بفعل الأضواء المسلطة على عيني وبحر الوجوه في المدرج المكتظ، فتلعثمت في سطوري وقلت "ولد لكم اليوم دمية هي الرضيع" بدلاً من "مخلص هو المسيح". قالت مامي إن هي فقط من انتبه إلى زلة لساني، بما أنها تعرف رغبتي في دمية الرضيع.

في النهار التالي كانت الدمية ذاتها تحت الشجرة بشريط حول شعرها الذهبي وقنينة رضاعة صغيرة مربوطة في رسغها. كانت تقول "ماما" عندما أنيمها، وتبللّ حفاضتها عندما ترضع من الزجاجة عبر فتحة صغيرة في فمها. ولم يكن ذلك كل شيء! كانت الغرفة مغارة كنوز من علب الهدايا الملفوفة. قال بابي وهو يضحك: "شيء لكل شخص والكثير لبناته العزيزات! جلست كل واحدة منا وسط كومة من الورق الممزق والعلب الفارغة والألعاب ذات الألوان المبهجة. حتى أختنا الرضيعة كان لديها كومة كبيرة مع أنها كانت تفضل أن تحبو ممزقة الأوراق وتحشر المزق في فمها، بينما تُسرع ميلاجروس المسكينة خلفها وتصيح بأنها لن تسمح لطفلة تحت رعايتها أن تختنق وتموت في اليوم نفسه الذي ولد فيه المخلّص. كان كل الخدم موجودين. ماريو وتشوتشا ونيفيا وجلاديس، يفتحون هداياهم بحرص كي لا يمزقوا ورق التغليف الزاهي. أشرقت وجوههم إذ تلقي كلّ منهم حافظة نقود بورقة نقد جميلة خضراء بين طياتها.

في تلك الليلة، ومع أني ذهبت إلى فراشي في وقت متأخر عن المعتاد، لم أستطِع النوم. حتى عندما حاولتُ بإخلاص وأغمضت عينيّ بشدة، كنت أرى دميتي الجديدة، وأرى لعبة البازل أو كتاب التلوين، وهي تبدو أكبر من حقيقتها في نظري. وكان علي أن أضيء النور كي أتأكد أن هداياي حقيقية. أتت مامي لوقت قصير من الحفلة الصاخبة في

t.me/qurssan

البيت المجاور في رداء طويل فضي بذراعيها الشاحبتين عاريتين ممسكة بذراع الخال موندو. اشارت لي بإصبعها محذرة عندما رأت الضوء مضاء، ولكن لم يبدُ أنها كانت تكترث بالفعل، وضحكتْ كثيرًا عندما أطلق خالي النار على نفسه عدة مرات من مسدس يويو الجديد. بعد ذلك بوقت طويل مرت جلاديس بي عندما عادت من المساعدة في المنزل المجاور. "لقد تجاوز الوقت منتصف الليل يا آنسة"! ولكن بدلاً من أن تطفئ النور جلست على سريري وخلعت خفها وبدأت في تدليك قدميها المرهقتين. كنا نستطيع أن نسمع الخالات والأخوال ومامي وبابي وهم يغنون الترانيم من بعيد. "يقضون وقتًا طيبًا في الجوار"! قالت جلاديس. رقصت السيدة لاورا رقصة البوليرو مع السيد كارلوس تمامًا كما في الأفلام. وخلع السيد موندو قميصه وأدى رقصة تشبه رقصات العمال فوق طاولة الطعام. دفع أحدهم السيدة إيسا المجنونة في حمام السباحة أو ألقت هي بنفسها فيه، لا يمكن أن تتأكد.

تجولت جلاديس بنظرها في الغرفة لتستوعب زحام الألعاب الجديدة قبل أن يتم رصها بحب فوق الرف. ظهرت على وجهها نظرة أمل. أخرجت المحفظة الجديدة من جيبها وفتحتها وأخرجت ورقة العشرة بيسو من ثنياتها. "سأشتري الحصالة منك"، قالت بصوت متردد.

الحصّالة! إنها قديمة لا تساوي عشرة بيسو بالتأكيد. كما أنها صدئت بسبب تركها في الشرفة طوال الليل. والزنبرك لا يعمل بكفاءة. نصحتها ألا تفعل: "انتبهي يا جلاديس"!

t.me/qurssan

تذبذبت نظرة جلاديس. وضعت الورقة النقدية في مكانها ومدت يدها بالمحفظة، "سأضيف المحفظة أيضًا".

للحظات لم أعرف كيف يكون التصرف المناسب. في أغلب الأحيان كانت مامي تقول لي القواعد: "لا يتخلى المرء عن هدايا تلقاها". يجب على جلاديس الاحتفاظ بمحفظتها. ولكن ذلك يعني أن عليَّ أن أحتفظ بالحصالة القديمة، والتي كان سيمثل إعطاؤها للغير فعلاً كريمًا. نظرتُ إلى الرفِّ مرتبكةً.

قلتُ لجلاديس: "يمكنك أن تحصلي عليها بلا مقابل". فغرت جلاديس فاها من المفاجأة. أكدت نظرة الخادمة الصغيرة شكوكي في أني فعلت شيئًا يمكن أن أعاقَب عليه إذا عُرف، فأضفتُ: "لا تخبري أحدًا يا جلاديس، اتفقنا"؟ هزت الخادمة رأسها بلهفة، بينما تغادر الغرفة والحصالة محزومة في مريولها مخبأةً تحت ذراعها.

ولكن مامي التي تلاحظ أتفه البقع على المفرش الموضوع تحت الطبق أو الكدمة الناتجة عن إصابة خاطئة على ذراع ابن خالة صغير أو المكان الفارغ في رف اللعب في الغرفة. "ذلك يذكرني..." قالت أمي بعد بضعة أسابيع من رأس السنة، عندما كان المنزل كله مكرسًا للبحث عن نظارة القراءة الخاصة بها، والتي كانت أعلى رأسها حينها. سألت: "أين حصالة العذراء الخاصة بك يا كارلا"؟ فتبادلنا أنا وجلاديس نظرات المذنبين. وجدت مامي النظارة على رأسها وأنزلتها على أنفها. نظرت بفضول إلينا أنا وجلاديس.

"حصالتي"؟ سألت كلما لو كنت أسمع هذه الكلمة للمرة الأولى.

"هيا، هيا"، قالت أمي ونظرت مرة أخرى نحوي ونحو جلاديس.

t.me/qurssan

"اها. تلك الحصالة"، جاوبتها، إنها "في مكان ما".

كانت أمي صبورة جدًا وقالت بلطف: "حسنًا فلنبحث عنها"، وبالطبع لم نجدها في أي مكان في غرفة نومي، مع أني قمت ببحث شامل مقنع، وفتشت حتى داخل أحذيتي ذات الأربطة، ولم تلحّ مامي على الأمر وتخلت عنه.

وفي يوم الأحد بعد أن ذهبت الخادمات إلى القداس المبكر تفحَّصت أمي حجرتهن، بينما وقف أبي يراقب النافذة. لاحقًا سمعت صوتيّ أبي وأمي متوترين خلف الباب المغلق لغرفة المكتب ثم انفتح الباب بقوة، خرج أبي نحو البهو تتبعه أمي متجهمةً، فاختبأت خلف الكرسي الخوص وفي الوقت المناسب بينما هما يمران. ثم عادا مرة أخرى في طابور: أبي وتشوتشا المتذمرة وأمي في الخلفية. عاد الموكب نفسه جيئة وذهابًا مع نيڤيا ثم ميلاجروس وأخيرًا مع جلاديس، وكانت تزرّ عينيها. أغلق الباب. علت الأصوات في غرفة المكتب. ورأيت عواصف ترابية تهبّ. وفي الركن لمعت قصاصة من ورق الزينة اللامع مما تخلّف من مرح العطلة. أخيرًا انفتح الباب بعنف وهرولت جلاديس عبر البهو وهي تبكي في تنورتها المرفوعة.

وجف قلبي. كانت المتاعب تختمر في البيت الكبير. ثم حطّت بالفعل على جلاديس ولم يعد هناك جدوى من الاختباء لأنها ستطالني بدوري سواء عاجلاً أم آجلاً. نهضت وأرحت دمية الرضيع على حشية المقعد متجاهلة صيحتها "ماما"!

توقفت قليلاً عند باب غرفة المكتب متهيبةً كالعادة من الأرفف العالية المكدسة بالكتب كما في المكتبة العامة والخشب الداكن للحوائط

t.me/qurssan

ومصاريع النوافذ. كانت أمي تتمشى جيئةً وذهابًا كما لو كانت لا تعرف إلى أين تذهب، وتدخن بلا انقطاع. وأبي كان جالسًا على طرف مقعده، رأسه محني ومستندًا بذراعيه على أذرع الكرسي. على الطاولة الصغيرة بجوار صفّ غلايينه تحت الحصالة الميكانيكية ملفوفة في مريلة. خطوت داخل الغرفة ولكن لم يلحظا وجودي. قلت بغتةً: "كانت هدية"!. تسمّرت أمي في مكانها ونظرت إلي بنظرة شاردة.

اعترفتُ: "أنا أعطيتها إياها".

نظر إليّ أبي وتبادل النظرات مع أمي.

بدأت أمي تنهرني: "في المرة القادمة عندما يأتي لك والدك بهدية..." ولكن أبي قاطعها. "سنأتي لها بهدايا أفضل يا مامي"!، قال وغمز نحوي، "لا أرى الدمى الراقصة تُترك في المطر أو تُعطى للخادمات".

رقص قلبي فرحًا من فكرة أن هناك مفاجأة أفضل من أي مفاجأة أتت قبلها. ما الذي يمكن أن تكونه؟ نظرت حول الغرفة على اتساعها بحثًا عن أفكار للتخمين، أي شيء، أي شيء. فوقعت نظرتي على الحصالة.

أطفأت أمي سيجارتها بدفعات صغيرة متوترة، "أظنّ من الأفضل أن أشرح الأمر للآخرين"، تنهدت وعبرت بجواري. وصفقت الباب خلفها بقوة، فتذبذب حامل الغلايين وتراقص في موضعه. انهار حائط كامل من نباتات بنت القنصل.

في الخارج، عند ممر السيارات كان ماريو قد صف السيارة عند المدخل. دخل إلى المنزل وبعد وقت قصير خرج يحمل صندوقًا من

t.me/qurssan

الكارتون وعدة أكياس كبيرة وضعها في المقعد الخلفي. تبعته جلاديس بمنديل على شعرها يحفظ تصفيفة الشعر المخصصة للكنيسة على حالها وتمسح دموعها بمنديل آخر. ركبت السيارة بجوار متاعها، ومع التماعة من أطرافها المعدنية التي قضى ماريو أغلب اليوم في تلميعها اختفت السيارة عبر الممر وتجاوزت الحارس عند الباب نحو العالم.

"بابي"، صحت مستديرة، "لا تجعل جلاديس تذهب من فضلك".

مد أبي يديه وسحبني نحْو حجره. كانت عيناه معتمتين كأن لطخة من اللون البني تحجبهما، قال: "لا يمكن أن نثق فيها..." كان يهم بالشرح ثم فكر أنّه من الأفضل تفسير الأمر هكذا: "جلاديس هي من طلبت أن تغادر، ستحصل على وظيفة فورًا. ربما حتى تسافر إلى نيويورك". ولكن النظرة المتجهمة على وجهه لم تقنعني. نظر فيما ورائي خارج النافذة. كان صوت محرك السيارة يبتعد حتى صار أزيزًا.

وقعت نظرته على الحصالة الصغيرة. ابتسم ومد يده في جيبه مخرجًا بنسات. قال "اجعليها تدور".

لم يكن لي مزاج للعب. ولكن أبي بدا حزينًا أيضًا وكان علي أن أحّسن مزاجه. تناولت البنس من يده وأوقفته وشددت المقبض لأقصى طاقته. سقطت العملة محدثة رنينًا داخل الحصالة. علِقَت الرافعة ولم تنزلق عائدة إلى مكانها. ارتفع جسد العذراء الصغير وفردت ذراعيها، ثم توقفت، عالقةً، في منتصف المسافة بين السماء والأرض.

t.me/qurssan

الطبلة

يويو

انت ماميتا بالطبلة من إحدى رحلاتها إلى نيويورك. طبلة رائعة جوانبها حمراء لامعة بأسلاك ذهبية متقاطعة مثبتة برؤوس مسامير ذهبية، وأعلاها وأسفلها باللون الأبيض. كان لها حزام أزرق عريض بحشية كي تعلقها حول رقبتك، فيكون سطحها موجهًا للأعلى. قدمتها لي ماميتا ووضعت ذلك الحزام حول رقبتي، ثم فتحت الجزء العلوي من الطبلة لأرى العصاتين مخبأتين في التجويف الموجود بقلبها. اخرجتهما وأغلقت سطح الطبلة وأعطتني العصاتين. ومع أن يدها هي التي قرعت القرعة الأولى، فهي لم تسلبني متعة هدير التطبيل الافتتاحي الصاخب.

برا ـ بام، بررا ـ بام، بررا ـ بام، بررا ـ بام!!
"أها" –دارت عيون جدتي في مقلتيها- "بيتهوفن آخر"!
قالت أمي بفخر: "ما الذي ستقولينه لجدتك"؟
"برابراااابرااااربررررابررابراابرررررب بوووم! بوووم! بوووم! بوووم"!
"يويو"! صاحت فيّ أمي، فتوقفت عن قرع الطبلة فجأة حتى إنها صوتها رنّ في الغرفة التي صمتت فجأة. "هذا يكفي جدًا"!

t.me/qurssan

"لاورا" قالت جدتي وهي تعبس نحو ابنتها. "لماذا تصرخين في الطفلة"؟!

قلت بلطف: "شكرًا ماميتا"!

"شكرًا فقط؟! الا تجمِّلينها قليلاً". علّقت أمي.

"شكرًا جزيلاً" جمّلتها. ثم هبطت عليهم بقرعات كارثية للطبل تعلن عن الفرح بالعالم، مما جعل ماميتا تلقي برأسها إلى الخلف وتضحك ضحكتها الشابة المجلجلة. وسدت أمي أذنيها بسبابتيها وفمها طفح بطوفان من التأنيب حجبته بطرقات طبلي، حتى نزعت العصاتين من يديّ وقالت إنها ستخبئهما حتى أصبح عاقلةً بما يكفي لأدق على طبلتي كالكبار. نسيت كل الوعود التي كنت قد قطعتها –قبل منحي الطبلة– بأن أحسِّن من شخصيتي وجلست أبكي. تدخّلت ماميتا وأعيدت العصاتان إلى تجويف الطبل، وانتُزع مني وعدٌ آخر بأني لن ألعب بالطبلة داخل المنزل ولكن فقط في الفناء.

سحبتني جدتي باتجاهها. لقد كانت في الماضي، كما قالت مامي، اجمل امرأة في البلاد. كنا نسميها ماميتا "الأم الصغيرة" لأنها أصغر في الحجم من مامي بالوجه الرقيق لفتاة صغيرة وعيني غزال بنيتين وشعر مموج أبيض يلتف في كعكة ويسقط أحيانًا على ظهرها في شكل ضفيرة، كانت تبدو كفتاة تعرَّضت لخوف رهيب حتى شاب شعرها فجأةً.

قالت وهي تواسيني: "هذه الطبلة من متجر سحري".

t.me/qurssan

"اوه"؟ قالت أمي بشكل عابر راغبة في العودة إلى الحوار. "من اين أتيتِ بها"؟

"شوارتز"، قالت ماميتا، "إف إيه أو شوارتز"، ووعدت بأنه في يوم قريب، قريب جدًا، إذا أحسنت سلوكي ولم أُفقد أمي صوابها بالقرع على الطبلة، وإذا كففت عن العبث بأشياء مثل احمر الشفاه والعطور، ثم ادعي وأنا اتجول في المنزل يفوح مني عطر باريسي واحمل نظرة بريئة على وجهي وكأني لا أعرف ما الذي حدث للقارورة الصغيرة ذات الفيونكة، فستأخذني هي -جدتي المفضلة- من الجزيرة إلى الولايات المتحدة في طائرة؛ كي أرى متجر شوارتز والثلوج. وهنا لم أستطِع أن أتمالك نفسي فأزحت الغطاء واختطفت العصي وأخذت اعزف بقرع متواضع ورقيق ومهذب، جعل ماميتا تغمز ومامي تبتسم وتتفقان هما الاثنتان أنني كنت بالفعل عاقلة وأتحمل المسؤولية في الخمس دقائق الأخيرة.

بام - بم، بام - بم، بام - بم، كنت أطوف بالطبلة حول الفناء طوال اليوم. كان إعطائي الطبلة ثم منعي من التطبيل عليها بأي شكل هو سلوك نمطي من أمي. كيف كنت لأدرك القوة الكامنة في الطبلة ما لم يسد -على الأقل- واحد من الكبار أذنيه حين يسمعها؟ وكيف يرتبط القرع على الطبلة بالإلهام ما لم يحدث ضجيجًا؟ كنت أشعر بالقرع يمتد لأصابع قدميّ العشر المشدودة، لساقيّ النحيلتين اللتين ستصبحان أكثر أنوثة يومًا ما، على أردافي التي بدأت في أرجحتها حين صرت امرأة. امتدّ لأعلى عند القفص الصدري؛ حيث تربع القلب نفسه مثل طبلة قرمزية بين عصاتين عاجيتين. ثم يرتفع القرع مثل جناحين يجعلان

t.me/qurssan

كتفيّ تهتزان وذراعيّ ترتفعان ومعصميّ يهتزان وينقران وتهبط العصاتان بووم، بووم، برررا ـبا، بووم!

"يولاندا التاجراسيا لقد نسيتِ نفسك"! أتى صوت أمي رقيقًا كأنها تلقي تحية، صوت كالبازلاء المهروسة. "لدينا فناءٌ كبير لا يحلم الكثير من الأطفال باللعب فيه".

وهكذا كان الأمر طوال اليوم، أسير أمام شجيرات الكركديه والجهنمية وأطبل، حتى صارت الطيور الطنانة على استعداد لأن تهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عزّ الشتاء. أسبوع وراء أسبوع وراء أسبوع، كنتُ أطبل جيئة وذهابًا، وجيئة وذهابًا بطول وعرض الفناء، ثم وكما هي العادة مع مثل تلك الألعاب سيئة الحظ، فُقِدت إحدى العصاتين، ثم قامت خالتنا المجنونة إيسا ـالتعيسة في زواجها من أمريكي والموشكة دائمًا على الطلاق، والتي لم تكن تنتبه بالتالي لخطواتهاـ بالسقوط فوق العصا الثانية وكسرتها إلى قطعتين، ولصقتها بصمغ قالت إنه قادر على لصق أجزاء بيت في بعضها. ولكني لم أصدق قط أن ذلك الصمغ يمكن أن يكون صالحًا للعصا، بغض النظر عن صلاحيته للصق قطع فناجين الصيني، ورعاة الغنم الخزفيين المهشمة وكل تلك الأغراض الخاصة بالكبار التي كانت دائمًا تجد طريقها للتهشم على الأرض في وجودي. وهكذا، في أقل من شهر أصبح لدي طبلة بلا عصيّ. ماميتا ومامي والخالة إيسا اللواتي لم يكن يفهمن أن عصاتي الطبلة هي العصي الوحيدة التي تصلح معها، اقترحن أقلام الرصاص أو مقابض الملاعق الخشبية التي تستخدم لعمل عجينة الكعك. جربتها جميعًا ولكن الصوت لم يكن هو نفسه، وفقد التطبيل

t.me/qurssan

منعته. فاعتدت ارتداء الحزام على صدري بينما تتدلى الطبلة على جانب خصري كمسدسات الخارجين عن القانون.

في تلك الأيام كان لدينا فناء شاسع يحلم الكثير من الأطفال الآخرين باللعب فيه بالفعل. تمتد الحدائق لمسافة خلف غرفة الغسيل مستويةً ومشذبة حتى يبدو وكأن الأرض نفسها خضراء لا مزروعة بالنجيل. في خلفية المجمع السكني كان هناك كوخ تُحفظ فيه صفائح الفحم المستخدم لغلي الثياب البيضاء. كوخ عرف أنه مسكون. في تلك الأيام كان الذهاب إلى كوخ الفحم للتحديق داخل البراميل الكبيرة المليئة بقطع الفحم واستنشاق غبارها يعدّ مغامرةً كبيرة. ثم تستجمع شجاعتك وتقلب برميل فحم فارغًا كي تسقط الشيطان منه، ثم تسابق عائدًا إلى البيت من الجهة الخلفية، وتتسلق الدرج الخلفي مسرعًا حتى غرفة الغسيل؛ حيث ستمد بيلا العوراء رأسها وتقول "ما الأمر؟ هل الشيطان يجري وراءك يا فتاة"؟

كانت بيلا خادمة الغسيل العجوز هي أغرب خادمة أتت إلينا على الإطلاق، ويبدو أن كل أنواع المتاعب قد مرت بها. فقدت إحدى عينيها، ترى أكانت اليسرى أم اليمنى؟ أنت لا يمكن أن تعرف أبدًا. كانت العينان تتبادلان الأدوار في التحديق بثبات في السماء. ولكن ما هي العين؟ بعض الهلام يجاوره هلام مماثل. من كان سيلاحظ غياب عين مقابل بشرتها غير المعقولة. كان لديها بقاع من الأبيض المائل إلى الزهري بطول ذراعيها وساقيها. وإن نجا وجهها من ذلك. فقد كان بلون بني موحد. البشرة البنية ناعمة حتى لتبدو وكأنّها قد كويت بمكواة ساخنة. فقط حول العينين؛ حيث لم تستطع المكواة أن تصل كانت هناك تجاعيد من الابتسام. هي من هاييتي، ولكن بشكل واضح نصفها

t.me/qurssan

فقط من هناك. كانت الخادمات الدومينيكانيات فاتحات البشرة يخفن منها؛ لأن هايتي كانت مرادفة لسحر الفودو. كانت مثيرة للفضول، وانا طفلة فضولية، احمل الوعد بالثلوج في قلبي والدهشة من العالم تفور بداخلي، فتدفعني الى تلمُّس فناجين الصيني المحرمة، أو خنق ابن خال صغير أو كلب أليف بقوة، ليبدو وكأنه يخرج من قناة الولادة. لم أكن أرغب في شيء أكثر من إعفاء مؤقت من التهذيب، وأن أحدق طويلاً في يديها المرقطتين.

كما قلت، كان كوخ الفحم مسكونًا. وكان ذلك من عمل بيلا. فقد كان هناك وقت قبل وقت بيلا، كان كوخ الفحم فيه مجرد كوخ فحم. ولكن بيلا أتت وجلبت معها بالإضافة إلى خمسة أكياس كبيرة من أغراضها حكاياتها عن الشياطينَ والأشباحَ وإغماءاتها بسبب الأرواح التي تتلبّسها ونبوءاتها من قبيل: "أرى هالة حول رأسك، احذري من الماء اليوم"! كانت تدّعي أن كل تلك الأرواح تعيش في كوخ الفحم. وهكذا فبحلول الوقت الذي تلقيت فيه طبلتي كان كوخ الفحم مسكونًا. يجب أن أضيف أيضًا أنه بحلول زمن الطبلة كانت بيلا قد رحلت. صمدت لشهرين في المجمع السكني قبل أن تختفي في يوم أحد. فدخل المنزل في عاصفة من النشاط. أحصيت الملاءات وتم جرد الملابس. وحسبت الخادمات الأخريات ومامي الأمور ووصلن لنتيجة مفادها أننا كنا نعيش مع لصة لمدة شهرين!

"للأسف، لن تستطيعَ الفرار بتلك البشرة".

وبالفعل أمسكتها الشرطة في اليوم التالي. وقتها احتكمت أمي إلى تعليمها الأمريكي وخلصت إلى أنه سيكون من القسوة توجيه تهمة لها.

t.me/qurssan

لم تكن المسكينة تعرف مصلحتها. دعوها ترحل هي وأكياسها العشرة. وقد رحلت تاركة وراءها كوخا مليئًا بالشياطين والأشباح، حتى إنه في وقت ضياع عصا الطبلة الخاصة بي كان التجرُّؤ على دخول الكوخ الفحم بمثابة تجرؤ على الشيطان شخصيًّا. في اليوم الذي دخلت فيه إلى كوخ الفحم بحثًا عن المتاعب بطبلتي على خصري ووتدين صغيرين عوضًا عن العصي، كانت بيلا قد رحلت منذ عدة أسابيع. دخلت دافعة الباب للخلف حتى تأوهت مفصلاته، وكأنها شياطين حطمت أصابعها وقرصت أنوفها المدببة. توقفت للحظة في المدخل وقد أغشاني شعاع الضوء الذي شقّ الظلام كنصل سكين. تبينت ثمانية أو تسعة براميل مستقيمة واثنين ملقيين أرضًا. دهست قطع الفحم تحت قدميّ، تجرأت أكثر. وقفت حيث انتهى شعاع الضوء، ثم تجرأت بإصبع قدم واحدة على الظلام. كان قلبي يدق بقوة. انحنيت على أول برميل منتصب ونظرت بداخله وأنا أكاد أتوقع أن أنظر في بئر عميق إلى عيون الشيطان. لا شيء سوى قطع الفحم حتى علامة المنتصف. في البرميل الثاني يصل الفحم حتى علامة الربع ثم شظايا أصغر من الفحم. كانت خادمة الغسيل الجديدة نيڤيا تستخدمها بدون كفاءة، بدون نظام.

البرميل الأخير كان مختبئًا خلف البراميل الأخرى. نظرت داخله فوجدته ممتلئًا. فجأة كانت هناك حركة خفيفة، همهمات، فم صغير يفتح في تثاؤب، الفم زهري ورطب حتى بدا مستحيلاً وجوده في برميل فحم. أُغلقَ الفم وفُتح واحد آخر. صدرت منه صيحة "مياو"، وماء فمّان أو ثلاثة في كورال، "مياو مياو". فورًا ميزت واحدًا له أربع أصابع بيضاء ونقطة بيضاء بين أذنيه، مرتديًا ملابسه بالكامل أو هكذا

t.me/qurssan

بدا عكس الآخرين الذين كانوا مهملين وفقدوا أحذيتهم وقبعاتهم، كان ذلك المثير للفضول هو ما أريده لنفسي.

ولكني لم ألمسه ولم أربت عليه أو على أي من أخوته وأخواته. في ذلك الوقت كانت جل معرفتي تتكون من عدة قواعد اعتدت الخلط بينها جميعًا، حتى عند وقوع حدث ما كنت أعرف إن كان يجب عليّ أن أفعل شيئًا، ولكن لم أكن أعرف ما هو تحديدًا. إن كان الحدث برقًا في السماء مثلاً فكان عليّ إما أن أقف تحت شجرة، وإما في حقل مفتوح كي لا تقع فوقي الشجرة. إذا وجدت عشًا به بيض العنادل أو أفراخها، فعليّ ألا أعبث به وإلا فستهجره الأم وتموت الأفراخ. ولكن هل كان ذلك فيما يخص الطيور أم القطط؟ لم أكن متأكدة. تذكرت أيضًا بشكل مبهم قصة مرعبة عن قطةٍ أمٍّ توحشت وخدشت عيني شخص كان يهدد صغارها وفقأتهما. لم أكن أريد أن أتعلم التعامل مع القطط بهذه الطريقة القاسية. احتجت بالتالي أن أسأل شخصًا كبيرًا قد يكون على دراية بكلّ شيء، وسأستطيع ساعتها أن أمرر سؤالاً حول القطط بين الأسئلة عن البرق وبيض الطيور. ولكن ترى من سيكون على دراية بالقطط بشكل أكيد دون أن يشك في سري؟ مامي في المنزل سيئة فيما يخص الأمرين. ماميتا لا تعرف أي شيء بخصوص الحياة البرية التي تصيبها بالحساسية كما تدَّعي، ولذا كان عليها أن تذهب في رحلات تسوق إلى نيويورك؛ حيث قالت إن الهواء الطلق لم يكن ينتمي للحياة البرية، وهو لغز عاهدت نفسي أن أحله في يوم من الأيام. لم يكن من المجدي سؤال الخالة إيسا أيضًا. ستضحك ضحكتها التي تشبه الشهقة وتصفر وتموء مدعية أنها دجاجة وعندليب وقطة في كائن واحد حتى تخمن العائلة الممتدة بأكملها ما الذي أفعله، وبيلا بالطبع كانت قد رحلت. غادرت الكوخ وتلكأت

t.me/qurssan

في الفناء أفكر فيما يجب أن افعله مع خوفي من بقائي هناك، احاور نفسي حول اختياراتي، فتأتي القطة الأم وتعميني. ومن غيظي رفعت غطاء الطبلة وكدت أخرج الأوتاد واطبل محدثة ضجيجًا اعلى من اي وقت مضى، وعندها رأيت رجلاً لم أكن قد رأيته قط قبل ذلك، يعبر فناءنا نحو بستان أشجار البرتقال البرية الممتد حتى ما بعد سياجنا. كان معه كلب، أو بالأحرى فإن الكلب كان يركض أمامه، فأبطأ وشم الأرض وأطلق نبحة وطارد فراشة وجعل العالم أكثر أمانًا لهذا الرجل بعشرات الطرق الأخرى. كان الرجل أنيقًا ووسيمًا ويشبه الذين يظهرون في القصص، يرتدي بنطال ركوب خيل وحذاء الفروسية. كان لديه لحية صغيرة مدببة وشارب مما جعلني أتساءل إن كان الشيطان، ولكن طريقته في معاملة الكلب بمودة وروح مرحة أقنعتني بأنه لا يمكن أن يكون شيطانًا. لم يرني على الرغم من أنه مرّ على بعدِ لا يزيد عن عشر ياردات عندما تلوى الكلب ورفع أنفه وبرم إحدى قدميه إلى الأعلى. توقف الرجل ونظر إلى الأعلى نحو السماء. عندها لاحظت أنه يحمل بندقية معلقة بحزام على كفته وماسورتها موجهة إلى الأعلى.

"اهدئي، اهدئي"، قال الرجل موجهًا كلامه إلى الكلبة. "أين هي أخلاقك"؟ ثم التفت إلي. ارتفعت أطراف شواربه في ابتسامة وقال: "يومك سعيد أيتها الآنسة الصغيرة. أرجو ألا تكون كاشتانكا قد أخافتك"؟

نظرت إلى الرجل، إلى بندقيته والكلبة تدفع أنفها حيث تدفع الكلاب أنوفها عند الناس. بفطرة طفل عرفت أن الرجل لا خوف منه؛ لأن الغرباء الذين يلتقيهم جدي في سفره كانوا يأتون أحيانًا للزيارة ويتجولون حتى في نطاق أملاكنا. ولكني كنت قلقة من وجود

t.me/qurssan

كلبة طليقة في مكان به هريرات، سبع لقيمات صغيرة، بالجوار في الكوخ.

تشممت الكلبة طبلتي، فسألني الرجل: "قولي لي... ما هذا الذي معك يا ترى"؟

"إنها طبلة"، قلت وأنا أحولها من جانب خصري إلى أمامي، "ولكني أضعت عصاتيها"، رفعت سطح الطبلة وأملتها حتى يرى الوتدين. "يجب علي أن أستعمل هذه، والصوت ليس الصوت نفسه".

"نعم ليس الشيء نفسه" وافق الرجل، مما يحسب له كثيرًا. جثم بجوار كلبته. أصدر حذاؤه صريرًا.

قلت: "بمناسبة عصي الطبلة". ثم أسرعت بالسؤال لأني كنت متأكدة أني وجدت الرجل المناسب له: "هل يمكن أن تلعب مع هريرة حديثة الولادة أم ستهجرها الأم، أو أنها شتخمشك وتصيبك بالعمى؟ ومتى يمكن أن تأخذ الهريرة من أمها كي تتبناها كحيوان أليف"؟

"حسنًا"! قال الرجل وهو ينظر إليّ عن قرب نظرة ود: "بمناسبة العصي ها؟ مثلما تنتمي عصي الطبلة إلى الطبلة ولا تفي الأوتاد بالغرض، فإن الهريرة تنتمي إلى أمها ولن يفي أي شخص آخر بالغرض".

اعترضت وأنا أنظر إلى كاشتانكا.

وقعت يد الرجل بحب على رأس كلبته "الحيوانات الأليفة موضوع مختلف بالتأكيد، ولكن الكائنات الصغيرة يجب أن تكبر بما يكفي حتى تحيا بدون أمها"، ختم كلامه واقفًا.

t.me/qurssan

وبينما هو يقف انطلقت كاشتانكا إلى الأمام. أمسك الرجل بطوقه وسحب الكلبة عائدًا إلى الوراء حتى إن قدميها الأماميتين كانتا لا تزالان تخطوان في الهواء. "عصي الطبلة أليس كذلك"؟ ضحك الرجل باتجاه شيء خلف كتفي. استدرت ورأيت قطةً أمًا ضخمة وسوداء بأثداء وردية مدلاة تتسلل إلى كوخ الفحم. نبحت كاشتانكا بحماس. هرعت القطة إلى الداخل.

"تأدبي يا كاشتانكا"! قال الرجل وشد الطوق. توقفت الكلبة وناحت بصوت خفيض كي تظهر أن مشاعرها قد جُرِحت. قال الرجل: "أما عن عصي الطبلة"، وغمز بعين واحدة لمدة طويلة حتى إني تساءلت إن كانت عينه غير حقيقية مثل عين بيلا، "عندما تكون الهريرة لا تزال رضيعة لا يمكن أن تؤخذ من أمها كي تصبح حيوانًا أليفًا، أليس كذلك"؟

كان يتحتم علي أن أوافق.

"إن أخذها سيكون..." تفكر الرجل في كلماته وقال "سيكون انتهاكًا لحقها الطبيعي في أن تحيا". رأى الرجل أني لم أفهمه فقال ببساطة: "ستموت. لذا يجب أن تنتظري"، وأضاف وهو يربت على شعري حتى أعطتني كاشتانكا نظرة غيرة. "يجب أن تنتظري حتى تتمكن الهريرة من التصرف وحدها. ألا تتفقين معي"؟

نظرت خلفي نحو الكوخ.

استرسل الرجل: "أتصور أنه بعد أسبوع، أي دعينا نقُل واحد.. اثنان.. ثلاثة...الخميس القادم، أتصور أن الهريرة حتى لو كانت قد

t.me/qurssan

ولدت اليوم ستكون مستعدة إلى أن تنتمي إلى فتاة راقية مثلك تمتلك طبلة بحلول الخميس".

نقرت بأصابعي على الطبلة، واحد، ثلاثة، خمسة، السابع هو الخميس.

"إنها طبلة جيدة"، لاحظ الرجل، "وهذا حزام جيد ومتين".

في تلك اللحظة طار سرب من الطيور فوقنا. نظرت الكلبة إلى الأعلى ونبحت بحماس. "سنذهب"، أعلن الرجل. وذهبا، قبل أن أستطيع أن أعد حتى رقم سبعة، عبر الحديقة نحو بوابة مصنوعة من الخيزران ذات صرير دخلا عبرها إلى البستان واختفيا بين الأشجار.

واحد اثنان، با - بام، ثلاثة هو الأحد. كانت القطة الأم قد دخلت إلى كوخ الفحم لتطعم صغارها. با - بام. كانت التي تخصني هي التي ترتدي أفضل الملابس. سأسميها شوارتز. سبعة أقل من عدد أصابع اليدين، ولكن سبعة هو سبعة أكثر من الآن، وكأنما لتأكيد حساباتي سمعت الصوت الهادر لطلقة بندقية الرجل من بعيد. سمعت جلبة تأتي من كوخ الفحم، وبعد لحظات أسرعت القطة الأم عبر الحديقة وقد أفزعها صوت البندقية.

عندما لاحظت أن الأجواء خالية، قررت أن أدخل مرة أخرى إلى الكوخ وأقول لشوارتز على خطتنا ليوم الخميس القادم. دخلت ونظرت من فوق حافة برميل الفحم. كانت شوارتز تموء رعبًا. "اهدئي، اهدئي"، طمأنتها. ولكن اهدئي اهدئي لم تكفِ. التقطتُها وهمست في أذنها الجميلة الصغيرة الشبيهة بالصدفة "اهدئي، اهدئي"، أنزلتها حتى كتفي وساعدتها على التجشؤ ووضعتها في ثنية ذراعي

t.me/qurssan

وداعبت بطنها ودسست إصبعي تحت ذراعها فماءت، إن ذلك مسلٍّ وعليّ أن افعله مرة أخرى. ولقد فعلت للتو.

كان اليوم الجمعة، ولن يصبح خميسًا قبل سبعة أيام أخرى. كان لدي كل النية في أن أعيدها إلى مكانها. ولكن، ولتسمِّها صدفة او تسميها خطة، انطلقت بندقية الرجل مرة أخرى عن بعيد وادركت انه يصطاد في بستان البرتقال. يصطاد! إن بعض الطيور التي يصوب بندقيته نحوها في تلك اللحظة أمهات تحمل دودًا لأطفالها. لم أكن أعرف في ذلك الوقت الكلمة التي تَعْني أن تقول شيئًا وتفعل عكسه، ولكني كنت أعرف الكثير من الكبار الذين يمارسون ذلك، لن اسمح له أن يحرمني من القطة الجميلة بقاعدة أخلاقية هو لا يلتزم بها.

خرجت من الكوخ مع شوارتز مثبتة على كتفي. ماءت مودعة أخواتها وإخوتها، بينما نعبر الحديقة. فجأة توقفت. أمامي جلست القطة الأم السوداء تستمتع بالشمس الدافئة على ظهرها الأسود السمين تلعق قدمها كما لو كانت مغطاة بعجينة الكعك. لم تكن قد رأتني ولكني كنت أعرف أنه في ظرف ثوانٍ سيصلها مواء شوارتز. في لحظة أصبحت الذكرى المبهمة حادة الوضوح. رأيت القطة تتسلل إلى الأمام. رأيتها تجثم كي تقفز. رأيتها تقفز وتقع فوق وجه المرأة. رأيت مخالبها تفقأ عينًا. رأيت الهلام ينسكب، وتذكرت فجأة بوضوح صادم بيلا وهي تحكي كيف فقدت عينها!

ببطء وبينما يدي اليسرى تربت على شوارتز كي أسكت مواءَها، فتحتُ غطاء طبلتي بيدي اليمنى. أنزلت أم شوارتز إحدى أقدامها ورفعت أخرى وبدأت في اللحس. رفعت شوارتز بحركة ماهرة واحدة

t.me/qurssan

واسقطتها في تجويف الطبلة واخرجت الوتدين واغلقت الغطاء كي ينغلق وحركت الطبلة حتى أصبحت أمامي. بينما تتلفت القطة الأم حولها وتلمحني انا وطبلتي التي كانت تموء الآن بشراسة، بدأت في القرع بشدة لأشوش على المواء:

برا برا برا بوم بوم ! (مياو!)
برا بووم! (مياو! مياو!) بوم
بوم
بوم
(مياو!)

مضيت نحو البيت مباشرة وأنا أرفع ركبتي عاليًا مثل جنود المواكب الاستعراضية. نظرتْ إليّ القطة الأم المرتبكة بتشكك وتبعتني عن بعد بحذر وهي تموء. جاوبتها الطبلة بالمواء. أخذت أقرعُ بجنون. كان قلبي يطبّل. ثم لاحقتني القطة الأم فركضت بجنون وصعدت السلم الخلفي بسرعة، ثم دخلت غرفة الغسيل وأغلقت الباب.. عرفت من الحوض العميق الممتلئ بالملابس البيضاء المنقوعة أن المرأة الغسّالة الجديدة قد خرجت لبرهة قصيرة. تلصصت عبر النافذة وأنا أسند ظهري إلى الحائط. مرّت القطة الأم أمام الباب. توقفت وتشممت الأرض.

ماءَت "شوارتز"!

ماءَت شوارتز بشكل محموم من داخل الطبلة. نظرتِ الأم حولها في كلّ مكان وعلى الباب ونحو السماء ولكنها لم تستطِع أن تحدد مصدر الصوت.
ماءت: "شوارتز أين أنتِ"؟
"رعد! رعد"! هدرت البندقية. فرّت الأم بعيدًا.

t.me/qurssan

التقطتُ الهريرة التي تموء من داخل طبلتي. تجعد وجهها الآدمي الصغير بالمواء. كنت أكره المواء الذي يشعرني بالذنب. أردت أن أغطسها في الحوض كي أُسكتَ مواءها. عوضًا عن ذلك فتحت شبكة النافذة ورميت الكرة التي تموء في الخارج. سمعت صوت ارتطامها بالأرض ورأيتها بعد ثوانٍ تترنح خارجة من ظل البيت تموء وتتعثر إلى الأمام. لم يكن هناك أثر للقطة الأمّ.

لا بد أني ذهبت إلى تلك النافذة عشر مرات في ذلك النهار وراقبت الهريرة المصابة تتقدم بشكل متقطع عبر الحديقة. كنت أشعر برغبة قوية أن أذهب وأودعها عند باب كوخ الفحم، ولكن لم يكن مسموحًا لي أن أخرج من المنزل. هكذا كانت أوامر أمي. هناك رجل مجنون يطلق النيران بشكل غير قانوني في بستان البرتقال. تم إبلاغ الشرطة. وفي وقت ما قبيل الغداء توقف إطلاق النار. نظرت من نافذة غرفة الغسيل. كانت الهريرة قد اختفت.

استيقظت في تلك الليلة فزعة بين مخالب كابوس لا أستطيع أن أتذكره. في تلك الأيام كنا ننام تحت ناموسية معلقة في أعمدة أربعة عند أركان السرير. كان لكل شيء في الظلام مظهر شبحي عبر الشبكة البيضاء. صندوق الألعاب شبحي، الستائر شبحية. في تلك الليلة رأيت القطة الأم تجلس عند طرف سريري تدس وجهها في قماش الناموسية حتى اتخذت شبكة الشاش ملامحها كقناع موت. تجمدت رعبًا. حدقت القطة فيّ بعينيها الفسفوريتين وأطلقت مواءً ناعمًا كالأنين. أغمضت عيني وفتحتهما مرة أخرى. جلستْ هناك تنتحب حتى الفجر. ثم رأيتها تقوم مرة أخرى وتقفز وتهبط محدثة صوتًا على الأرض وتخطو حتى البهو وتهبط السلم. في اليوم التالي حكيت لأمي دامعة عن القطة التي

t.me/qurssan

تسكن بقرب سريري طوال الليل، "مستحيل"! قالت أمي، وكي تثبت ذلك مررنا بأرجاء المنزل نفحص الأقفال والنوافذ. "ربما صحيح"! قالت مامي عندما اكتشفت نافذة تُركَت مفتوحةً في غرفة الغسيل. واشتكت أمي من أن نيڤيا المرأة الغسّالة الجديدة سيئة بالقدر نفسه كالمرأة القديمة.

وفي الليلة التالية، وعلى الرغم من أن النوافذ كانت مغلقة والمنزل محصنًا مثل ترسانة، ظهرت القطة مرة أخرى بجوار فراشي. وتكرر ذلك ليلةً بعد ليلة. أحيانًا كانت تموء، وأحيانًا كانت تحدق فيّ فقط. أحيانًا كنت أصرخ وأوقظ المنزلَ بأكمله. قالت أمي قلقة: "إنها مرحلة طبيعية جدًّا من الكوابيس". استمرت المرحلة. أعطيت الطبلة لابنة خالة صغيرة وأضفت القطة الشبح إلى الصفقة. ولكن القطة واصلت زياراتها على فترات متقطعة، لعدة سنوات.

ثم انتقلنا إلى الولايات المتحدة. واختفت القطة كلية. رأيت الثلوج. حللت أحجية الهواء الطلق المصنوع في أغلبه من الخرسانة في نيويورك. هرمت جدتي حتى إنها لم تعد تستطيع أن تتذكر من هي. ذهبت إلى مدرسة بعيدة وقرأت كتبًا. هل تفهم أنني أحشر الوقت كله الآن حتى يسدّ كل الفراغ في قصتي؟ وبدأت في الكتابة، قصة بيلا، ثم قصة جدتي. لم أرَ شوارتز مرة أخرى قط. اختفى الرجل ذو اللحية المدببة وكلبته كاشتانكا من على وجه البسيطة. كبرت وأصبحت امرأة فضولية، امرأة مسكونة بأشباح وشياطين القصص، امرأة عرضة للكوابيس والأرق. وما زلتُ حتى الآن أستيقظ أحيانًا في الثالثة صباحًا وأحدّق في الظلام. في تلك الساعة وتلك الوحدة أسمعها، شيء أسود ذو فراء يربض في أركان حياتي، ينوح بسبب انتهاك ما يقبع في القلب من كتابتي.

t.me/qurssan

الفهرس

الصفحة

(١)

١٩٧٢ ـ ١٩٨٩ ..... ٧

وحـــم ٩

القبـلـة ٣٣

البنات الأربع ٥١

چـو ٨٣

قصة رودي المنهرست ١٠٥

(٢)

١٩٦٠ ـ ١٩٧٠ ..... ١٢٥

ثورة اعتيادية ١٢٧

ابنة الاختراع ١٥٧

نعـــدٌ ١٧٥

ثلـــج ١٩٣

استعراض ١٩٥

٣٢٥

t.me/qurssan

(٣)

١٩٥٦-١٩٦٠ ٢٢١

دماء الفاتحين ٢٢٣

الجسد الإنساني ٢٥٥

طبيعة صامتة ٢٧١

مفاجأة أمريكية ٢٨٩

الطبلة ٣٠٩

t.me/qurssan

في عام ١٩٦٠ يجد الدكتور جارسيا الطبيب والمعارض السياسي من جمهورية الدومينيكان نفسه مضطراً للجوء إلى الولايات المتحدة هرباً من سلطات الديكتاتور تروخيو في بلاده. وبصحبة زوجته وبناته الأربعة كان عليه أن يبدأ من الصفر في نيويورك.

وعلى الرغم من انتماء عائلة جارسيا إلى الطبقة الأرستقراطية وإلى العرق الأبيض الأوروبي في الجزيرة التي يغلب على سكانها الطابع الأفريقي والخلاسي، تجد الأسرة نفسها على هامش المجتمع الأمريكي، مجرد مهاجرين فقراء من أمريكا اللاتينية لا يحسنون نطق الإنجليزية ولا تشفع لهم بشرتهم البيضاء ولا أصولهم التي تنتمي لسلالة الغزاة الإسبان.

وعلى لسان الفتيات الأربعة تسرد جوليا ألفاريز سيرة العائلة وبناتها في الرحلة من قصور أرستقراطية الدومينيكان إلى ضواحي المهاجرين الفقراء في نيويورك، ومحاولاتهن للتأقلم مع الثقافة الأمريكية، ثم مسار كل منهن في الحياة وتنقلاتهن بين الولايات المختلفة، ورحلاتهن المتكررة بعد ذلك إلى بلدهن الأم بعد استقرار الأحوال السياسية، وبعد أن صرن "جرينجاس" أي أمريكيات في مصطلح أهل أمريكا الوسطى والجنوبية. مع التركيز على مسار حياة الابنة الثانية "يولاندا" التي تحترف الكتابة عندما تكبر، والتي يلمح النقاد إلى أنها قد تكون قناعاً للمؤلفة نفسها، وهو ما قد يستشعره القارئ أيضاً. وفي خلفية الأحداث نرى فصولا من الاضطرابات السياسية في بلدان أمريكا اللاتينية وديكتاتورياتها العسكرية.

جوليا ألفاريز: هي شاعرة وروائية وكاتبة أطفال أمريكية من أصل دومينيكاني. من مواليد ١٩٥٠. من أهم مؤلفاتها "في زمن الفراشات" و "قبل أن نصبح أحراراً" و" حفل عرس في هاييتي". حصلت على الوسام الوطني للفنون من الكونجرس الأمريكي وعلى عدد من الجوائز الأخرى عن أعمالها الشعرية والروائية.

نيرمين نزار: كاتبة ومترجمة مصرية فلسطينية، صدر لها كمؤلفة "إسكندرية/بيروت" وكمترجمة "بعد جنازة" للكاتبة البريطانية ديانا أتهيل عن الروائي المصري وجيه غالي

ISBN 978-977-303-?04-1

t.me/qurssan